أمين يوسف غراب



8

آثار على الشفاه



أمين يوسف غراب

● فلاح ولد في القرية ، ونشأ في القرية وذاع اسمه وانتشر أدبه ، وهو ما زال في القرية ..

● التقى بقرائه على نطاق واسع على صفحات آخر ساعة أيام ان كان يملكها الاستاذ محمد التابعي ، وما زال يكتب فيها الى اليوم ..

● تخصص في الكتابة عن القرية ، والريف المصرى ، وتصوير حياة سكانه تصويرا دقيقا ، مما جعل قصصه تترجم الى عدة لغــات ، وتذاع في أكثر بلاد العالم .

● كتب عنه عميـــد الادب العربى الدكتور طه حسين فقال : «وهو يشتق احـــــا دنه من حيـــــاتنا المصريـــة اليومية فيحسن اشتقاقها ، ويرفعها من طور الواقع المبتذل الى حيث يجعلهــــا أدبا فيه عبرة وعظة، وفيه اثارة لعواطف الرضى والسخط والسرور والحزن والامل واليأس ، وهــــو من أبـــرع النـــاس في تصوير البؤس والشقاء والحرمان ، سواء كان مصدر هذه الخصال هــــو سوء النظام الاجتماعى ، أم هو الانحراف عن جادة الفضيلة وطريق الخلق القويم»

● عرف بأدبه الصريح عن المــرأة وتحليـــــل نفسيتهـــا تحليلا دقيقـــــا وتعتبر كتبــه « هتـــــاف الجماهير » و «أرض الخطايا» و «نساء في حياتي» و «يوم الثلاثاء» من أهم الكتب التى تناولت هذه الناحية .

● بدأ يتجه الى المسرح فكتب مسرحية ــ ست البنات ــ التى افتتحت بها دار الاوبرا المصرية موسمها لعـــام ١٩٥٣ ، فنجحت نجاحا منقطع النظير مما جعــــل جميع الصحف المصرية تتحدث عنهـــــا وتصفها بانها أروع ــ كوميديا ــ قدمت للمسرح بعد وفاة نجيب الريحاني .

اهداءات ٢٠٠٢

المهندس/محمد إبراهيم شبايك

الاسكندرية

أمين يوسف غراب

آثام على الشفاه

الكتاب الذهبى

العدد السادس عشر ـ سبتمبر سنة ١٩٥٣
يصدره نادى القصة

تعريف بالكاتب

لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين

أريد اليوم أن أتحدث عن كتابين من كتب شبابنا القصاص، هما « يوم الثلاثاء » و « أرض الخطايا » للاستاذ أمين يوسف غراب .

وأحب قبل كل شيء أن أسجل اغتباطي باني استكشف في آثار الشباب أدبا خليقا بالعناية والرعاية حقا ، لست أدرى أأهمله غيري من الشيوخ كما أهملته أنا أم انفردت .. انا بهذا الاهمال المعيب ، فقد صرفت عن هذا الادب الخصب الرائع الى الاعمال العامة احيانا والى الادب القديم احيـــانا أخرى ، والى الادب الاوربي والامريكي طـــــورا ثالثا ثم الى أدب الاتراب والنظراء مرة اخرى ، وأهملت ما كان الحق علي أن أمنحــه من الوقت والجهد ما هو اهل له .

وأكاد أعترف لهؤلاء الشباب بان من حقهم أن يغضبوا وأن يعتبوا بل أن يلوموا وأن يثقلوا فى اللوم ،فهم يكدون ويجدون وينتجون فيحسنون الانتاج ثم لا يجدون صدى لجدهم وكدهم، وانتاجهم الا ما يكون من هذا الصـــدى الخفي الذى يتردد في نفوس القراء حين يقرأون فيرضون أو يسخطون ثم لا يعربون عما يجدون من الرضي والسخط لانهم ليسوا نقادا ولا كتابا وانما هم قراء يأخذون ما يقدم اليهم فاذا فرغوا منه انصرفوا الى غيره وانصرفوا الى أعمالهم ونسوا ما قرأوا كما ينسون ما يأكلون ويشربون .

وأحب بعد ذلك أن اهدى الى الاستاذ أمين يوسف غـراب أصدق الشكر وأخلصه وأجمله لانى قرأت كتابيه فلم ترهقني قراءتهما من أمرى عسرا ولم أتكلف فيهما ما أتكلفه في قراءة غيرهما من الكتب التي يكثر فيها التخفف من اجـــادة اللفظ واتقان التعبير وتخير الاسلوب والمحافظةعلى منزلة متوسطة بين

الغريب الذى لا يساغ والمبتذل الذى لا يطاق .

فالاستاذ أمين يوسف غراب كاتب يعرف لغته حق المعرفة، ويحسن التصرف فيها غير متكلف ولا متصنع لا يخرج عن ذلك الا حين يضطره الفن الى هذا الخروج حين يروى نكتة عامية أو يدير الحوار بين رجلين أو امرأتين أو رجل وامرأة من أهــل الريف فأما حين يعرب عن ذات نفسه فهو يؤدى ما يريد فى لغة نقية وأسلوب صفو ، ولفظ يتخيره فيحسن تخيره وهو يرتفع فى كثير من الاحيان الى ألوان من التشبيه الرقيق الدقيق الذى يبعد فى غرابته حتى يفاجأ القارىء فجاءة حلوة ويقع من نفسه أحسن موقع ويترك فيها أحسن الاثار ، والكاتب على ذلك لم يتخرج فى الجامعة ولا فى الازهر ، ولم يختلف الى المدارس ولم يجلس الى الاساتذة والمؤدبين ،وانما علم نفسه فأحسن تعليمها وأخذها بفنون من العنف حتى انقادت له فأحسنت الانقيـــاد وقرأت ما ارادها على أن تقرأه فعرفت كيف تقرأ وكيف تفهم ، وكيف تسيغ ما تقرأ وما تفهم وكيف تتمثله ثم ترده بعد ذلك أدبا طريفا فيه كثير من روعة وفيه كثير من جمال لانها أضافت اليه من خلاصة طبعها ما أسبغ عليه سذاجة حلوة وأجرى فيــه روحا مصريا عذبا .

وهو قد قـــرأ أدب المعاصرين من بنى وطنه ، ثم قرأ ادب القدماء ، فأكثر قراءته ، ثم هو لم يتعلم لغة أجنبية ولكنه رغم ذلك قد تأثر بما قرأ ومما نقل عن اللغات الاجنبية لم يكد يترك منه شيئا . وأتيح له من هذه القراءة المختلفة المتنوعة فن من الادب لا شك فى أصالته وفى طابعه المصرى الخالص ولا شك مع ذلك فى أنه متصل بالحياة العامة التى يحياها الناس عــلى اختلاف أجناسهم ولغاتهم فى هذا العصر الحديث

ولست أزعم أن الاستاذ أمين يوسف غراب قد وصــل الى أرفع منزلة من الادب فبينه وبين هذه المنزلة أمد لا يزال بعيدا وأى الناس يصل الى هذه المنزلة حتى حين يتاح له ما لم يتح لهذا الكاتب الاديب من وسائل الاجادة والاتقان ، وانما أزعم أنه دليل أى دليـــل عــلى أن فى النفس المصرية من الخصب ، وجودة الطبع وصفاء الذوق ، واعتدال المزاج ما يتيح لهـــا أن تشارك فى الادب الرفيع فتحسن المشاركة

والاستاذ أمين يوسف غراب قاص مقصر الى الان لم يحاول أن يطيل القصص فيما أعلم وأكبر الظن أن الوقت لم يتح له كما لم يتح له فراغ البال وانه انما يكتب هذا القصص القصير مستجيبا لفنه من ناحية ولضرورات الانتاج السريع المنتظم من ناحية أخرى ٠

وأحسب أنه لو فرغ لفنه ٠ وقدر له أن يجنب ما تفرضه الحياة اليومية من العسر لاتيح له انتاج أكثر امتاعا وأغزر مادة وأقدر على طول البقاء وهو يشتق أحاديثه هذه القصار من حياتنا المصرية اليومية فيحسن اشتقاقها ويرفعها من طور الواقع المبتذل الى حيث يجعلها أدبا فيه عبرة وعظة ، وفيه اثارة لعواطف الرضى والسخط والسرور والحزن والامل والياس ، وفيه ميل شديد الى التشاؤم ، فهو يجيد أكثر ما يجيد تصوير الامال الخائبة والظنون الكاذبة والاوهام التي تدفع أصحابها الى التورط في الخطأ الذي لا سبيل الى اصلاحه واقتراف الاثم الذي لا أمل في استدراكه ، فهذا الفتى يضطرب بين البؤس البائس والامل المختلط النزق حتى يقترف جريمة القتل والسرقة ، ثم لا يلبث أن يستكشف أنه لم يسرق الا وهما لان النقد الذي سرقه وقتل في سبيله نقد أجنبي لايغني عنه شيئا الا أنه يسلمه الى السلطان ليقتص منه ٠ وهو مع ذلك قد اضطر الى الاثم اضطرارا ، وقاوم الاثم ما استطاع ان يقاومه ٠ وهذا الرجل الذي يقرأ كتبا فيرى فيها حبا آثما قد تورطت فيه امرأته فيخرجه الغضب عن طوره وتسيطر الحفيظة على أمره كله ويستيقن أن امرأته تلك التي تلد في المستشفى انما تلد نتيجة الاثم والفجور ٠ فلا يكاد يردها ويرد معها الصبي الى داره حتى تنتهي به الغيرة الى خنق هذا الصبي البريء ٠ ثم لم يلبث أن يتبين أنه لم يقتل الا ابنه لان تلك الكتب الاثمة لم تكن موجهة الى امرأته وانما كانت موجهة الى الخادم التي طردت من الدار حين استكشفت سيدتها هذا الاثم

وهذا الرجل الساذج من أهل الريف كان يرعى الغنم على عمدة القرية فزوجه العمدة من ابنة خادم تعمل في داره ٠ وهو محب لزوجه محسود على أنه قد تزوجها ولكنه يسمع تعريضا

بأن امرأته أثيرة عند العمدة فيقتلها ثم يستكشف بعد دقائق بأنها لم تكن أثيرة العمدة الا لانها كانت ابنته من خادمه

والكاتب لا ينتهي بقصصه دائما الى الاثم المقطع المبهظ الذى تسيل فيه الدماء وتزهق فيه النفوس ولكنه ينتهي في كثير من الاحيان الى خيبة من الامال ليست اقل شنعا وبشاعة من ذلك الاثم • وأسلوبه في تصوير خيبة الامل هذه يشـــبه كثيرا ما تألفه عند الكاتب الفرنسي موباسان فأكبر الظن انه قرأ ما ترجم الى العربية من هذا الكاتب وقرأ كاتبنا العظيم محمـــود تيمور فأحسن الانتفاع بما قرأ •

وهو من أبرع الناس في تصوير البؤس والشقاء والحرمان، سواء أكان مصدر هذه الخصال هو سوء النظام الاجتماعي أم هو الانحراف عن جادة الفضيلة وطريق الخلق القويم على أن من الاسراف أن يقال أن كاتبنا يجيد دائمـا ، ويوفق دائما الى ما يجب فما أكثر ما يخطئه التوفيق فينتهي الى غير غاية • وما أكثر ما يضطر أحيانا الى التزيد والاغراق في الوصف ولا ســـيما حينما يصف الترف والمترفين وجسم المرأة وجماله وفتنتـــه المغرية •

وكاتبنا من أقل الكتاب كلفا بالابتذال في اللفظ ولكني مع ذلك أحب له ألا يغلو في وصف الطعام على هذا النحو المتهالك الفج الذي يجب أن يشير اليه الادب دون أن يمعن فيه •

أما بعد فاني أهنيء كاتبنا بأدبه هذا الخصب الرائق وما أشك في أنه اذا أمعن في القراءة وراقب نفســـه حين يكتب واشتد في مراقبتها سينتهي بأدبه الى غاية بعيدة من الاجـادة والاحسان •

طه حسين

الاهرام في ١٩٥٢/١١/٢٩

إهداء

سيدى العزيز الدكتور طه حسين
كل ما فى الحياة أخذ وعطاء حتى الحب ، وأنا قد أحببتك ، لذلك أخذت منك الكثير ، وأخذت منك الكثير جدا .
فهل تسمح لى اليوم أن أعطيك القليل ، وأن أعطيك القليل جدا ، اذ أهدى اليك هذا الكتاب ..
انها قلة قليلة ما فى ذلك شك ، ولكن ثق يا سيدى انها قلة تزيد على كثرتك .. لانها كل ما أملك .

أمين يوسف غراب

خيوط لا ترى



كنت فيما مضى أحفل كثيرا بالافكار الجيدة ، وأعيرها قدرا كبيرا من الاهتمام واحاول جهدى أن أستفيد منها الى أكبر حد ممكن ولو كلفنى ذلك ما لا أطيق • وذات ليلة واتتنى ، فكرة جيدة • • فكرة جميلة للغاية • • قلت لنفسى لماذا لا أهجر هذه المدينة الصغيرة التى أنفقت فيها كل هذا العمر • وارحل الى المدينة الكبيرة ، لعلنى هناك أظفر لنفسى بالهناء الذى تنشده ، والذى لم استطع أن أحققه لها فى مدينتنا الصغيرة هذه • ولا سيما أن الهناء الذى أطمع فيه ليس بالشىء الكثير أو الكبير أو من العسير تحقيقه لانه ليس معجزة من المعجزات أنه أيسر مما تظن بكثير أنه فى متناول كل انسان • ومع ذلك لم اظفر به برغم محاولاتى المتكررة ومتاعبى الكثيرة التى بذلتها فى سبيله •

كانت كل آمالى لكى يتاح لى هذا الهناء ، هو أن أظفر كل يوم • أستغفر الله — فهذا كثير — بل كل أربع وعشرين ساعة

برغيف واحد من الخبز أمسك به رمقي

وفجأة وجدت نفسي في العاصمة ، ولكن في مركـز حرج للغاية ، كنت في الطريق اليها قد انفقت كل مايمكن انفـاقه حتى المعطف البالي الذي كنت ارتديه ، والذي كنت أستر به ماتمزق من ثيابي الداخلية وما ظهر عاريا من جسدي المرتعش المقرور • كنت قد بعته بثمانية وعشرين قرشا، ركبت القطار بعشرين منها ثم قطعت مابقي من المسافة على قدمي لان مدينتنا الصغيرة كانت بعيدة جدا عن العاصمة بحيث لايمـكنك أن تقطع مسافتها هذه الطويلة على قدميك ، ولا سيما اذا كانتا كقدمي هزيلتين معروقتين مقرورتين دائما • وابتعت بالقروش الثمانية الباقية جميعها خبزا حملته على يدي ، وحرصت عليه حرصا شديدا ، ورحت بين اليوم واليوم ألقف ذلك الثعبـان الكبير الذي يسمونه امعائي رغيفا واحدا ، وكنت حذرا جدا ، حريصا الحرص كله ، بحيث كنت لا ألقفه الرغيف في الوقت الذي يريد هو وانما في الوقت الذي تكون فيه آلامي قد بلغت أقصى حدودها ، وهكذا الى أن ألقفته آخر رغيف قبل أن أبلغ العاصمة بليلة واحدة •

كانت العاصمة كبيرة جدا ، واسعة جدا، وكانت من البهجة والروعة واللطف بحيث انني رميت خيالي بالقصور وبالعجز ، واتهمته بضيق الافق، لانه لم يستطع يوما أن يتخيل العاصمة على حقيقتها ، أو يتصورها بهذه الروعة التي استحوذت عـلى مشاعري • وقد سرني هذاالذي رأيت سرورا لاحد له وطمأنني كثيرا ، حتى انني نسيت ما انا فيه من حرج ، ونسيت شـيئا آخر كان يهمني جدا أن أنســـاه ، نسيت ذلك الثعبان الكبير النائم في بطني فلم أعد أحس به كلما تلوى أو تمطى فيـكاد يمزق أحشائي كما كان يفعل •

وانطلقت في قلب العاصمة كطفل ناعم يســير بين آلاف اللعب وتبهجه صنوف الحلوى وتأخذه ألوان الثياب الموشـاة وأنا أرقب بعيني رأسي الشوارع النظيفة والسيارات الانيقة التي تروح فيها وتجيء والابنية الفخمة والعمارات الشـاهقة التي تنبعث منها الاضواء مختلفة ألوانها فتشـم لها رائحـة

حلوة تداعب عينيك . والنساء الجميلات اللواتي يسرن على الطوار ، أو تعطر ضحكـــاتهن الطريق ، أو يقفن فى ثيابهن الداخلية في النوافذ والشرفات يتماوج شـــعرهن مع هواء الليل الخفيف .

كان هذا كله يطربني كثيرا ويلذ لى أن أراه . ويجعل عقلى الذى كان قد تبلد وران عليه البؤس كما يرين الصـــدأ على الحديد فيشل تفكيره . يرجع ويفكـــر من جديد . ويفكـــر تفكيرا حلوا جميلا مستقيماًمتزنا فيه مايطمئن النفس ويبهجها ويصور لها الآمال العذاب في صورة مجلوة واطار مزخرف ثم يقربها اليه حتى لتكاد تتحسسها بعينيك وتلمسها بأصابعك وظللت هكذا أسير من شارع الى شارع ومن ميدان الى ميدان. ومن حي الى آخر حتى هدأت الحركة واقفرت الطرقات وأغلقت الشرفات والنوافذ . ورحت لاأرى الا شبح الجندى العملاق فى الليل كالمارد الجبار . ولا أسمع الا أزيز سيارة تمـرق من جانبى كالسهم أو صوت حذاء الجندى الثقيل الضخم يدق به الارض دقا بغيضا مزعجا . فرجعت الى نفسى ونسيت سريعـا الارض دقا بغيضا مزعجا . فرجعت الى نفسى ونسيت سريعا ماكنت فيه من لذة . ووجدتنى فى حاجة الى التفكير السريع والرأى السديد والفكرة الصائبة .. اذ لابد لى فورا ومن غير ابطاء أن أخلق لى مكانا آوى اليه الى أن ينقضى الليل .

ونظرت حولى وكنت أقف فى ميدان فسيح تحف به الابنية الانيقة كأنها العرائس فى الليل . وتطلعت الى البناء الجميل الذى أقف بجواره ، ورحت أنظر الى الطوار العريض الممتد أمامه . ولاحت لعينى بعض الظلمة تكتنف نهايته فسرنى ذلك ورحت أنقل قدمى نقلا هينا وكلما غمرتنى الظلمة زاد سرورى لانى سأجد مكانا لايرانى فيه الجندى . فأنا لا أبغض شـيئا مثلماأبغض رؤيةهذا العملاقفىالليل . وبينما أنا كذلك أسير حذرا على مهل ، رأيت شبحا مستلقيا على الطوار بجانب الحائط فاقتربت منه وتأملته فوجدته شحاذا مسنا قد خانته قـواه فاستلقى على الطوار متهالكا وقد أخذته اغفاءة غير جادة ، فهو لاينى يفتح عينيه بين الحين والحين كما لو كان يفتحهمـــا فى النهار للمارين يستجدى بهما العون كما يستجديه بقلبـه ، ولسانه ويديه. وبقدر ماآلمتنى شيخوخته المريضة التى تهالكت

على الارض عظاما يمسك بعضها بعضا من الخوف • سرنى أن وجدت لى زميلا استعين به على الليل وعلى الجندى وعى ما أنا فيه من حرج شديد ، فدنوت منه وحييته فى أدب رقيق ، وأنا أتحسس الارض وأجلس بجواره على الطوار وأقول بصوت خفيض جدا :

ـ السلام عليكم

فنفض الرجل عنه اغفاءته ، سريعا وفتح عينيه المتعبتين ومد لى يده المرتعشة وشفتاه تهمهمان ببعض الادعية ، فاسقط فى يدى وشعرت بالخزى والتورط الشديد اذظن الرجل اننى موسر سأتصدق عليه•• وآلمنى هذا•• وآلمنى أيضا أننى ان قلت له شيئا من الحقيقة فسأطفىء سريعا تلك الفرحة التى أنارت وجهه المتغضن • ومرت لحظات شعرت فيها بعرق الخزى يتصبب من كل جارحة فى ، فتركته وانصرفت صامتا أحث الخطى وتشيعنى حفنة من الشتائم والنعوت التى نعتنى بها الرجل ظلما اذ حسبنى مخمورا يتندر به • أو لاهيا يسخر منه • وفى الطريق وكنت قد قطعت شوطا كبيرا وسط الظلام رأيت صبيا صغيرا يحمل فى يده كوزا عرفت منه أنه جامع الاعقاب ، فتبعته مؤملا الخير فيه • اذ لابد أن يكون الصبى الصغير فى طريقه الى مكان ينام فيه • ولا بد أن يكون هذا المكان فى حى غير هذه الاحياء النظيفة التى يغمرها النور •

وسار الصبى وسرت خلفه ، وراح المسكين يقطع عدة طرق فى الليل وينتقل من ميدان الى آخر • ومن شارع الى غيره وأنا خلفه أجر ساقى جرا من فرط الاعياء • وكلما خارت قواى ووقفت لأستريح وأحست عينى بأنها ستفتقد الصبى فى الظلام أسرعت خلفه لاهثا متقطع الانفاس •الى أن بلغنا شارعا أملت فيه الخير الكثير لان الظلمة كانت تغمره وتفيض عليه رائحة القاذورات العفنة التى تكدست على جانبيه ، وكانت نفاذة بحيث تشعرك فى الظلام أنك فى حى من تلكم الاحياء البائسة التى لاترد أمثالى أبدا ولا تلفظهم • ورحت والصبى أمامى اقطع هذا الطريق وكان طويلا جدا•• الى أن لاح لنا نور من بعيد راح ينبعث من مكان قريب منا • فجث الفتى الخطى فرحا كأنه قد عثر على شيء ثمين • وما ان بلغناه حتى وجدناه

حانة ما زالت عامرة بالرواد فى الليل ، وقد فتح نصف بابها فقط فانبعث منه الضوء الشاحب واستلقى على الطوار أمـام الحانة فى الليل كالرقعة الصـفراء • ورأيت الصبى يدلف اليها غير هياب أو متردد. أما أنا فوقفت على الطوار فى الظلام أحاصره بعينى حتى لايفلت منى • فرأيته غير الصبى الهزيل المتعب الذى كان يسير أمامى من لحظات • فقد رأيته نشيطا معافى ، سريع الحركة غماز اللفتة • ينقض فى سرعة خـارقة على الاعقاب فيلتقطها بأصابعه • وكلما اعترضته مائدة أومقعد كور جسده تكويرا غريبا حتى ليكاد يطويه كالحبل ، ومرق من تحت المائدة أو المقعد • يقفز ويتريث حينـا • كأنه الكلب الصغير المدلل ينتقل من تحت مائدة الى أخرى • وظل كـذلك يظهر حينا فتراه عيناى ويختفى حينا فأفقـــده الى أن اختفى فجأة وطال اختفاؤه حتى ساورتنى الشكوك وركبنى الخوف لانه لابد أن يكون قد خرج من الباب دون أن أراه • وقدتحقق هذا عند ما اقتربت فى حذر من باب الحانة وتلمسته فى قلبها فلم اجده • فأحزننى هذا كثيرا وهممت أن أغادر هذا المكان• ولكن الامل الذى يحلو له أن يسخر بالناس أحيانا فى وقت الجد • راح يغرينى بالانتظار لاننى لابد واجده •

ووقفت على الطوار فى الليل انتظر الصبى، الى أن جاء رجل ضخم الجثة زرى المنظر ووقف على الطوار فى النور أمام الحانة ووضع أمامه مايشبه الشيء الدائرى قد صنعهمن الجريد ووضع عليه صينية كبيرة من الخشب عليها بعض صنوف من الطعام وراح ينادى عليها قائلا : على الله ، وما أن سمع من فى الحانة هذا النداء حتى ابتهجوا وهللوا وراحوا ينادونه باسمه هـذا يطلب لسانا وهذا يطلب لحما من الرأس •• وهـــذا يطلب جواهر ــ وحتى الآن لم اعرف ماهى هذه الجواهر ــ وراح الرجل بسكين كبير فى يده يقطع لحما ، ويكسر عظاما ويضع هذا كله فى أطباق صغيرة ، وكلما ملأ طبقا نادى بصـــوته الاجش : على الله ، وكلما خرج من الحانة بطبق فارغ نادى نفس النداء • وكلما القى الى كلب صغير أقعى بجواره عنـد الصينية بشيء من العظم ردد نفس النداء ، فينهال الـــكلب الصغير على تلك العظام فى شوق وفرحة يلعقها حينا ، ويمسح

عليها حينا آخر • وأحيانا «يعضعضها» بأنيابه الرقيقة المدببة فذكرني هذا بالجوع وما يصنعه بصاحبه• وما أن ذكرت هذا حتى وقعت في شقاء كبير • فقد تحرك فجأة وعلى غير انتظار ثعباني اللعين • وراح يتمطى في أحشائي فيكاد يمزقهـــا تمزيقا قاسيا • وهممت ان أنصرف بهذا الاذى الذى أحملـه لولا انني رأيت مصادفة • أو على الاصح ثعباني اللعين هـــو الذى رأى قطعة كبيرة من اللحم قد سقطت من الرجـــل على الارض دون أن يراها • ودون أن يراها الكلب أيضا • وكان هذا من سوء الحظ • اذ على الرغـــم مني تعلقت عيني بهـــا وتشبثت بها تشبثا غريبا حتى لكأن قطعة اللحـــم هذه هي حياتي • وهي دنياى • وليس من السهل على الانسان • اى انسان أن يفارق حياته لذلك وقفت أتطلع اليها وأصغى الى دقات قلبي وهو يكاد يقفز من بين جنبي هلعا وجذعا كلمـــا أبصرت بالكلب ، ورأيته يتلفت ذات اليمين حيث هي فقـــد كان أخشي ما أخشاه أن يراها الكلب فيحرمني منها • وهكـذا وجدت نفسي مرة أخرى في مركز حرج دقيق• فأنا اذا اقتربت منها ومددت لها يدى فسيراني الكلب ، وسيراني الرجـــــل وسيراني أيضا من في الحانة من السكارى والمخمورين • وأنا أحتمل كل شيء الا أن يراني واحد من هؤلاء • كيف أحتمـل أن يراني الكلب وأنا أختلس منه شيئا ، وكيف يراني انسان مثلي وأنا أختلس شيئا من كلب • وأنا ان تركتها فســـوف لايغفر لي الثعبان اللعين هذا أبدا ، لابد أنه سيميتني • وأنا لاأريد أن أموت ، لانه لايوجد الانسان الذى يريد أن يموت• وفكرت •• وفكرت جيدا وجيدا جدا • وانتهى بي الامر الى أنه ليس في استطاعتي أبدا أن أتغلب على عين انسان أو عين كلب • وبدأت في تقطيع حبال نظراتي التى شبثت على ذلك المنظر الجميل الذى اعترف بأنني أفارقه مرغما • ورحت فعلا أقطع بعد تلك الحبال وأخلص ما تشبث بها وانعقد عليها • وبينا أنا كذلك ، كلما قطعت حبلا انعقد حبل آخر ، اذا بي أفاجأ برجلين خرجامن الحانة تسبقهما رائحة الخمر الرخيصة التى عبا منها كثيرا وأقبلا على في ثيابهما الانيقـــة • وما أن أبصرا بي حتى مد لي أحدهما يده وصافحني في حرارة وشوق

زائد • وهو يقول في سرور وابتهاج وفرحة غامرة :

ــ ازيك ياسي محمد •

فأسقط في يدى • وقلت متلعثما وانا أنظر اليه مشدوها :

ــ ليس اسمى هو محمد ياسيدى •

فقال وهو لايزال يهز يدى بقوة :

ــ ياسيدى كلنا محمد • ومع ذلك فنحن أصدقاء •• • ألا تعرفنى •• أنا محمود • ألا تعرف محمود •

ثم اقترب منى في الظلام يترنح من فرط الخمر وهمس فى أذنى وهو يلوى لسانه بين شدقيه :

ــ اصغ الى •• سأرضيك هذه المرة •• سأعطيك جنيهـا أجل جنيها كاملا •• فقط تصدق الوعد وتأتى لنا بشىء •• أى شىء •• اجل أى شىء •

فقال الرجل الثانى على الفور • وكان على الطوار بجانب الحائط يترنح فى الظلام :

ــ شىء صغير •• صغير •• صغير جدا أنا لا أحب الاالشىء الصغير •

فقاطعه الذى يده فى يدى وهو ينظر اليه مغتاظا وقال :

ــ ياسيدى اسكت انت ••

ثم التفت الى وقال :

ــ قلت لك اى شىء ••

ثم لوى لسانه مرة أخرى وقال وهو يضغط على يدى ويهزها بين يديه فى حرارة وقوة :

ــ قلت جنيها •• جنيها • أتسمع سأعطيك جنيها •

فلم أفهم شيئا من كل هذا وقلت هى الخمر • وهممت أن أسحب يدى من يده وانصرف بيد أننى لمحت من بعيد شبحا يقبـــل علينا فى الظلام يسير على مهل وهو يتلفت حواليه ، فارتعدت فرائصى وارتعش جسدى خوفا فقد حسبته المارد اللعين •• وقلت أتريث قليلا حتى أحتمى بهذين الرجلين المخمورين برغم ماهما فيه من سوء حال •• حتى ينصرف هذا المارد الجبـــار بيد أننى فجأة رأيت الرجل الذى أمامى والذى يدى فى يـــده يقفز من مكانه منتفضا كمن لدغته حية وهو يقول :

ــ هاهى •• هاهى •• قلت لك جنيها ، جنيها •

ثم أخذ يهزنى من يدى وهو يقول مبهورا :

ـ هاهي ·· انظر · انظر ·· انها امرأة ·· امرأة ساعطيك جنيها ···

وكان الشبح قد اقترب منا فاذا به امرأة تمر بنا وتنظر الينا في الظلام وتسترق السمع وهي تسير متخاذلة حتى لكأنها تقتلع قدميها اقتلاعا من الارض · وما أن مرت بنا وابتعدت عنا خطوات حتى رأيت الرجل الذي أمامي يدس يده في جيبه سريعا · ثم يخرجها سريعا أيضا ، وبها جنيه حقيقي وضعه في يدي وراح يطبق أصابعي عليه وهو يدفعني خلفها دفعا قويا في يدي وقد تدهورت أنفاسه وتدهورت معها أيضا الكلمات من بين شفتيه :

ـ هاهي ·· انظر ·· انظر · انها امرأة · امرأة · اذهب اليها ، اذهب · اذهب · يامحمد ، قلت لك أنا محمود ·

وفجأة رأيتني أسير فعلا · وانقل قدمي خلفها نقلا ، وأنا أشد ما أكون دهشة من هذا الذي لاأعرف منه شيئا ، ولكن فجأة رأيت المرأة تقف أمامي وتنظر الى فأسقط في يدي وارتبكت ارتباكا شديدا بيد أن هذا كله لم يسدم طويلا اذ رأيتها تقترب مني وتهمس في أذني وهي تضع يدها على كتفي كما لو كنا صديقين من زمن بعيد ·

ـ أواثق أنت منهما ·

ولما عجزت عن تحريك شفتي · قالت ويدها مازالت على كتفي تربت عليها في رفق :

ـ ألم يقولا لك كم سيدفعان ؟

فجحظت عيناي واصابني مايشبه الحمى وراح جسدي ينتفض تحت راحتها التي وضعتها على كتفي ، وفجأة رأيت الرجلين معنا وأمامنا سيارة وهما يشيران عليها بأن تركب فركبت وركبنا معها بعد أن مد لي أحدهما يده يصافحني فلم أمد له يدي لانه لم يكن لي يد أمدها في تلك اللحظة ·

وهمت السيارة أن تنطلق بيد أن المرأة فجأة أمسكت بكتفي السائق صارخة وأصرت على أن تنزل ثانية ان لم أصحبها أنا فهي لاتطمئن الى مكان تجهله الا اذا كنت أنا معها ·· أنا ·· أنا من ؟ ؟ وارتعدت فرائصي ودارت بي الارض واضطرب قلبي اضطرابا شديدا لم استطع معه أن استرد أنفاسي ، ورحت

أنظر الى الظلام حولى وعيون السيارة التى تكاد تحرقنى وفجأة رأيت الرجلين يهبطان الى الارض ويحملاننى حمـــلا الى قلبه السيارة التى انطلقت بنا • وفجأة أيضا رأيتنى وحدى فى بيت فارغ تفتحت جميع أبواب غرفاته الا بابين اثنين أحـكم اغلاقهما احكاما • الباب الخارجى للبيت • وباب غرفة معينة بالذات • ورأيتنى أجلس وحدى فى صالة ضيقة الى مائـــدة قذرة من الخشب القديم المتآكل • أفكر فى هذا الذى حدث كله • ومن أنا •• وما هو السبب الذى جعل هذه المرأة تصر على أن أصحبها وأنها لا تطمئن الا بوجـــودى •• ترى من أنا حقيقة •• وهبها ظنتنى كما ظنت • ولكنها لاتعرفنى •• ولم ترنى •• وفجأة وجدتنى أبتسم من تلك الخيوط السوداء التى لاترى ، والتى تربط صنفا من الاشقياء بهذا الرباط المقـدس فتصفى نفوسهم وتجلو قلوبهم فيعرفون فى أحـرج الاوقـات كيف يكون وفاء البائس للبائس واطمئنان الشقى للشـــقى برغم الرذائل والقاذورات التى يتمرغون فيها ، وانفرطت من عينى دمعة فجففتها سريعا لاننى أكره البكاء وأكره الرجـــل الذى يبكى • وبينما أنا أجفف تلك الدموع البغيضة الى قلبى حانت منى التفاتة فرأيت بابا صغيرا مفتوحا وشممت رائحة تتصاعد منه أشبه برائحة الخبز • أو هكذا خيل لى فهرعت اليه • وما أن عرفت انه باب المطبخ حتى انسرقت اليه سريعا كما ينسرق الفار فى عتمة الليل ورحت أقلب بأصابعى كـــل شيء وأنبشه بأظفارى لعلنى أجد كسرة خبز • ولكننى لم أجد واأسفاه شيئا يمكن أن يسمى طعاما سوى قطعة صـغيرة من الجبن مرت عليها أيام وأيام ، فغدت عفنة كريهـــــة الرائحة فأعدتها ثانية وانصرفت سريعا • لاننى ســـمعت مزلاج باب الغرفة المغلقة يتحرك • ورأيت بابها يفتح وتخرج منه المرأةوما هى الا لحظات حتى كنت بجانبها فى الطريق أسير صـــامتا ، وتسير هى بجوارى شاحبة الوجه منكسة الرأس مطبقة الشفتين لا تنبس • وظللنا هكذا نسير فى قلب الظلام • على غير هدى • وأخيرا التفت اليها وقلت :

ــ أين دارك •• أو الى أين تسيرين ؟

فأنفقت جهدا كبيرا حتى أقامت رأسها ورفعت عينيها عن

الارض ، وتمتمت قائلة بصوت لايكاد يبين :
ـ داري قريبة • وقد مررنا عليها ، ولكنني لا أستطيع أن أذهب اليها الان ويدي فارغة •
ثم بللت شفتيها بلسانها وقالت :
ـ ولذلك سأنتظر حتى تفتح بعض المطاعم لأشتري خبزا وجبنة
فقلت :
ـ أجائعة أنتِ الى هذا الحد ؟
ـ ليس من أجلي ولكن من أجل أولادي الصغار •
فقلت وأنا لا أكاد أتبين وجهها في الظلام •
ـ الك أطفال ؟
ـ أجل ••
ـ ولك زوج ؟
ـ مات من ثلاث سنوات
فصمت حينا ثم قلت :
ـ اذهبي الى بيتك الان واستريحي قليلا • ثم في الصباح احضري لهم الخبز •
فمدت يدها الى وجهها • ولم أر مافعلت به • لاننا كنا في الظلام وقالت :
ـ مرت عليهم ثلاث ليال لم يطعموا فيها شيئا • وكنت كما قلت أنت ، أتعلل لهم بالصباح فكيف أدخل عليهم الليلة أيضا ويدي فارغة • هل يصدقون اذا قلت لهم انتظروا الى الصباح الذي أصبحوا يبغضونه ، لانه يبدد آمالهم •
ثم انقطع حديثنا • وعدنا الى الصمت • ورحنا نسـير في الظلام • وظللنا نسير لانسمع سوى وقع أقدامنا في الليل تلك الاقدام التي كنا من فرط اعيائنا ننقلها على مهل جدا •• ونظن أننا ننقلها بحذر •• الى أن قالت المرأة •
ـ أتذهب الى حانة عزوز دائما •
فارتبكت جدا وأنا أقول لها :
ـ لم أذهب اليها الا هذه الليلة •
فقالت وهي تدنو مني وتسير بجانبي كالكلب الاليف :
ـ وأين مكانك الذي تفضله ؟
وكان السؤال معقدا والاجابة عليه أشد تعقيدا ، وخشيت

ان لم أجب • أو ان اجبتها بالحقيقة أن أزيد الى قلبها جرحا جديدا • لذلك قلبت الاجابة سؤالا وقلت :

ـ أتترددين أنت كثيرا على حانة عزوز ؟

فقالت :

ـ لاأتردد عليها أو على غيرها الا اذا أعوزتني الحاجة •

ثم عدنا ثانية الى الصمت والسير والظلام • ولكننا لم نسر كثيرا هذه المرة لان الليل كان قد انصرف عنا وانصرفت عنا ظلمته • ورأينا مطعما قد فتحت أبوابه فهرعنا اليه ، ولن أنسى ماحييت تلك الفرحة التى غمرتها والبهجة التى فاضت عليها وعلى وجهها الاصفر الشاحب • وهى تقف أمام المطعم وتطلب من البائع كذا رغيفا وكذا جبنا • وكذا « فلافل » وقد لفت نظرى انها اشترت أشياء كثيرة جدا أكثر مما كنت أظن • • خمسة عشر رغيفا • ونصف أقة من الجبن وخمسة قروش طعمية • ثم بعد ذلك انحنت فى سلة زائدة على بائعة فجل كانت بجانب المطعم واشترت منها فجلا كثيرا • ولاحظت بعد أن ابتاعت هذا كله انها لاتستطيع أن تحمله على يدها الهزيلة المعروقة • فطلبت منها فى خجل شديد ان أحمل عنها بضاعتها الى أن تبلغ دارها ، فقبلت شاكرة لى هذا الذى ظنته فضلا واعتبرته جميلا •

ولم نقطع مسافة كبيرة لاننا كنا قد بلغنا الدار • وبعد أن وقفت قليلا أخرجت مفتاحا من جيبها وفتحت باب بيت صغير متهدم أو يكاد • ثم دلفت أمامى فدلفت خلفها واذا بى أرى شيئا غريبا • رأيت أطفالها الخمسة ، وكانوا قد استلقوا على الارض من غير غطاء • وما أن سمعوا صرير المزلاج حتى أفاقوا من نومهم سريعا وما أن رأوها حتى تعلقوا جميعا بأذيالها • تماما كما تتعلق القطط الضريرة بأثداء أمها • • • وما أن رأوا الخبز أحمله أنا على يدى ، حتى تركوها وأسرعوا الى والتفوا من حولى فى ابتهاج غريب • ورأيت أمامى مائدة صغيرة عليها طبق فارغ تأزحنه ووضعت بجانبه مامعى من خبز وغيره • فانطلقوا اليها سريعا واحاطوا بها يشبون عليها ويمدون اليها أيديهم الصغيرة • فمنهم من يبلغها فيختطف رغيفا ويسرع به الى ركن من أركان الغرفة • ومنهم من تعجزه يده

القصيرة فيترك المائدة ويسرع الى أخيه فيرتمى عليه ويغتصب منه رغيفه اغتصابا • بعد معركة قصيرة •

ووقفت أتأمل هذا كله • وانظر اليه صامتا • ثم انصرفت صامتا أيضا لا أنبس

وما أن بلغت الطريق وسرت قليلا حتى كنت قد نسيت هذا كله ••• ولا أدرى كيف نسيته وبعد حين وجدتنى أمام مطعم فاخر للغاية • رصت أمامه الارغفة الطازجة رصا جميلا • وقدر رائعة المنظر يتصاعد بخارها الشهى ممتزجا برائحة الفول اللذيذة • فانطلقت الى داخل المطعم تغمرنى فرحة طارئة وتخيرت مائدة كبيرة وجلست اليها في ابتهاج • ورحت أنتظر الخادم حتى يحضر فأطلب منه كل ما أشتهى •

بيد أننى فجأة وجدتنى أغادر المطعم سريعا وسريعا جدا • تماما كما دلفت اليه سريعا • وسريعا جدا ، فقد تذكرت فجأة أننى وأنا أضع الارغفة للاطفال على المائدة وضعت لهم ايضا بجوارها الجنيه الذى كان فى جيبى •

عندما يأتى الربيع



ـ كم الوقت الآن ؟

ـ التاسعة مساء ..

فاختلس نظرة سريعة الى عينيها الجميلتين ، ووجهها المشرق الذى يكاد يلامس كتفه ، وقال :

ـ هل اطمع فى أن أراك عندما ينتصف الليل ؟

وكأنها سمعت شيئا مزعجا فاضطربت أنفاسها وارتعشت يداها حتى اهتزت بين أناملها تلك الابرة التى غرستها فى ذراعه فسحبتها سريعا واستدارت مكفهرة الوجه ، تتراقص ظلال أهدابها الطويلة على خدين كأنهما جذوة تتقد . وانصرفت تتعثر فى خطواتها : وما أن غادرت الغرفة وبلغت ذلك الممر الفاصل بين غرف مرضى الدرجة الاولى ، حتى شعرت بدوار شديد فأسندت رأسها الى الحائط ، وظلت كذلك الى أن أقبلت احدى الزميلات ، فرجتها أن تنوب عنها فى اعطاء ما بقى من ابر لبعض المرضى . وذهبت هى الى غرفتها وما أن طالعها سريرها

الصغير الابيض القائم فى المخدع كالمحراب حتى ارتمت عليه لاهثة . وما هي الا لحظات ايضا حتى تفجرت الدمـــوع من عينيها وراحت تسيل دافئة على وجهها المضطرب .

انها كانت تنتظر كل شيء الاهذا الذي حدث الليلة .. اذ كيف يجرؤ هذا الشاب .. أو غيره من الناس على أن يتطاول عليها : ويسر اليها هذه الكلمات التي تنطوي على هذا الهول الكبير .. أهي من هذا الصنف الذي يظن ؟؟ .. هل بـدت له يوما كذلك ؟؟ .. هل أتت أمرا ما يخول له أن يرتكب معها هـذا الاثم الذي تورط فيه . أو الذي يريد الليلة أن يتورط فيه ؟؟ .. ترى هل هذا هو جزاء اهتمامها به ، ورعايتها له . وسهرها على راحته وتمريضه والعناية به .. ومع ذلك فهي لم تهتم به أكثر من سواه .. لم ترعه أكثر من غيره .. لم تقدم له أكثر من تلك الابتسامة التي ترسمها على ثغرها مرغمة كلما دخلت عليه ، أو على غيره من المرضى لتشيع في نفوسهم البهجة والامن والطمأنينة ، وتخفف عنهم آلامهم .

حقيقة أن هذا الشاب منذ جرحت قدمه ، وهو في ضيعته ، ودخل هذا المستشفى الريفي وقيل أنه ابن عظيم من العظماء ، والعناية به تفوق كل حد ، فجميع من في المستشفى وعلى رأسهم كبير الاطباء نفسه في خدمته ليل نهار ، وحرصا على توفير أســباب الراحة له اختارها كبير الاطباء بالذات . ثقة منه في عنايتها بمرضاها ، لتقوم على خدمته ، وقد قامت بما يفرضه عليها الواجب ، وما هو أكثر من الواجب ــ فالدواء فى مواعيده المحددة ، والطعـام هي التي تشرف عليه وتعده له ، وأدق ساعات العالم تضبط حينما تغرس ابرة البنسلين في ذراعه في المواعيد المقررة من النهار أو الليل .. وما من مرة لمست أنامله الجرس ، الا كانت على رأسه تسأله ما يريد .. فهل هذا هو الجزاء ؟ .. وهل هذه هي الحسنة التي تنتظرها على ما قدمت له من صنع .. ؟

ومدت أناملها المرتعشة وجففت بعض الدموع ، ثم عـادت الى نفسها ..

ولكـــن .. ترى ما الذي جعـــل هذا الشـــاب يركب رأسه ويهمس لها بما همس ؟!.. الأنه ابن عظيم من العظماء؟ .. الأنه رجل ترى ؟ ..وهل بالمال يباع الشرف ويشترى ؟! .. ترى أى سوق هذه التي يعرض فيها ... ؟ وأى مال هذا

الذى يقومه ؟! أم هو ارتكب هذا الجرم ٠أوهو يريد ارتكابه : لانها تقوم على خدمته ٠٠ أو لعله ظن ٠ اذ تفعل ذلك ٠ انهـا خادمة ٠٠ وهل من المفروض على الخدم أن يقدموا للسادة كل ما يريدون حتى ولو كان يغضب الله ولا يرضى الناس ؟؟ وكيف يركب الانسان عقله الى هذا الحد فيظن ان نساء الارض جميعا حل لرغبات الرجال ونزواتهم ٠

ومدت أناملها المرتعشة الى عينيها الجميلتين وجففت بعض الدموع ٠٠ ومن ثم عادت الى نفسها مرة أخرى ٠٠ ولكن ماذا يريد عندما ينتصف الليل ؟ ٠٠ بل وماذا يريد الرجـل من المرأة اذا ما همس فى اذنها وحدد لها موعدا ؟!

.وجحظت عيناها ٠٠٠ وتعالت دقـسات قلبها ٠٠ واربدت سحنتها وهى تتمتم بصوت كأنه لفحات النـار ٠٠ لن أذهب اليه ٠٠ لا عند ما ينتصف الليل ، ولا عندما يطلع الفجر ٠٠ وسوف لا أذهب اليه أبدا ٠٠ لا فى الليل ولا فى النهار ٠٠ وليكن ما يكون ٠٠ وليفعل كبير الاطباء ما يشاء ٠٠ ليلق بى خارج المستشفى ٠٠ ليجعلنى أتشرد فى الطرقات ٠٠ أهيم على وجهى ٠٠ أتضور جوعا ٠٠ فكل هذا أحب الى ممـا يدعوننى اليه ٠٠ مما ينتظر لى عندما ينتصف الليل ٠٠ ولكن ما الذى ينتظرك عندما ينتصف الليل ٠٠ ؟

وتمتمت بصوت كأنه لفحات النار ٠ ٠

ليتنى أدرى ٠٠ ليتنى أدرى ٠٠

وشعرت بما يشبه الضيق يطبق على أنفاسها ويكاديخنقها : كما أحست بأن الملابس التى ترتديها تفعـــل هى الاخـرى بجسدها المضطرب ما يجعله ينوء بها ، فهى تزم عليهحتىلتكاد تخنقه ٠٠٠ فقامت الى الباب وأغلقته ،ومنثم تجردت منثيابها جميعا الا من غلالة رقيقة ودت لو تخلصت منها هىالاخرى ٠٠ وذهبت الى النافذة وفتحتها لتستنشقبعض الهواء ٠٠فطالعتها حديقة المستشفى الكبيرة ، نائمة فى أحضان الليل كالعـذراء الناعمة ٠ يرسل الربيع الندى أنفاسه اليها فى الليل ، فيحيل كل ما فيها الى عبير يتضوع ٠٠ ورأتشيئا جميلا لمتكن لتقدر أنها ستراه ٠٠ رأت القمر فى السماء يتألق نورا وبهاء وفتنة وكأنه الفتى العاشق يغازل تلك العذراء ويداعبها ويرسـل

ضحكاته اليها ، فتتألق ورودها وتزدهر أغصانها ويروح كل ما فيها في خفر جميل يرد للعاشق قبلته قبلات . وبسمته ابتسامات . فالزنابق كلما داعبها النسيم . ومستها في رفق أنفاس الربيع تميل ذات اليمين وذات الشمال على أغصانهـا المترنحة .. والورود البكر ذات الاكمام . كلما قبلها القمر وهبت عليها أنفاس الليل ، تفتحت أوراقها ورفت أفوافهـا وراحت في الليل تتضوع مسكا .

وسرها هذا الذى تراه ، وهـدهد قلبها الثائر ، فراحت تتطلع اليه منتشية وقد تسلل القمر اليها من النافذة فأنـار وجهها ونصف صدرها العارى ، وأحالها هى الأخرى الى زهرة يانعة متفتحة ..

ولكن ما الذى ينتظـرها عنـدما ينتصف الليـل ؟ .. أجل ما الذى ينتظرني عندما ينتصف الليـل ، وما الذى يريده منى هذا الشاب الجميل ؟! .. وما الذى يقصده بهـذا الهمس الحلو الذى همس به فى أذنها !!

وتعالت دقات قلبها وهى تتمتم بصوت كأنه لفحات النار .. لا .. لن أذهب اليه .. لن أذهب اليه .. وليكن ما يكون فما كان أبدا للثمار البكر أن تجنى هكذا خلسة وغدرا.. ومن ذا الذى سيغـدر بك ؟ ! .. هو .. هو . لقد كان يجب أن أتوقع هذا من زمن بعيد .. بعيد جدا .. من اليوم الذى دخل فيه هذا الفتى الجميل المستشفى .. من اللحظة التى رأيتـه فيها .. أو رآنى هو فيها ..

ولكن من الذى قال لك ذلك ؟!

هو .. هو .. أجل هو .. ابتسامته الحلوة التى يقابلنى بها كلما دخلت عليه .. عيناه .. عيناه الناريتان .. نظراته .. نظراته التى تنفذ الى قلبى : فتصهر جسدى وتكاد تجردنى من ثيابى .. ثم أنامله .. أنامله الرقيقة التى كانت تمسـح يدى مصادفة اذا اقتربت منه : فتترك عليها تلك الآثار التى تشبه الحروق .. أجل هو .. والان فقط قد عرفت .. ولن أذهب اليه .. لن أذهب اليه .. لا عندما ينتصف الليل .. ولا عندما يطلع الفجر .. وسوف لا أذهب اليه أبدا .. لا فى الليل . ولا فى النهار .

وما الذي تخشـــــــينه اذن ؟ ! لا شيء .. لا شيء ..
وما من قـــــوة في الارض ترغم امـــرأة عـــلى شيء .. اذن اذهبي اليه وانظري ماذا هو فاعل .

لا .. لا .. انني أخاف .. اني أخاف.. ممم تخافين ؟؟ .. منه .. من عينيه النارتين .. ذراعيه القويتين .. صدره العريض الخافق الذي يكتنفه شعر أسود كث مدبب كأنهأسنة الحراب .. كل شيء فيه .. وجهه المشرق الذي ينعكس نوره في عينيّ نارا تحرق جوارحي وتحيل كياني الى ما يشبـــه الرماد .. أجل انني أخافه .. ولن أذهب اليه .. فلو أن الامر مثلا : وقف عند قبلة واحدة أو حتى قبلات . ليسر وهان .. ولكن من يدري ؟! .. قد ينصب لي الشباك وقد أقع فريســة بين ذراعيه .. فهل أستطيع عندها أن أفلت ؟ .. هل سيقوى خصري هذا الواهي النحيل . على أن يرد ذراعه تلك القوية ؟ .. هل تستطيع يدي هذه الصغيرة أن تقـــاوم ؟ .. واذا لم أستطع .. أأصرخ ؟ أأستغيث ؟ .. وبماذا أستغيث اذا كان هو من المكر والدهاء بحيث حاصر ثغري بشفتيـــه ؟ .. هل سأستسلم ؟ .. هل سأستكـــين ؟ .. واذا اســـتسلمت واستكنت .. ماذا يحدث . ؟! لا .. لا .. لن أذهب اليه .. لن أذهب اليه .. وليكن ما يكون ..

وأغلقت النافذة في ذعر ، ووقفت فيوسط الغرفة ذاهلة . وكلما ألقت ببصرها الى شيء ما ، عادت فردته مغلفا بشـــبكة لا ترى من الدموع .. وظلت كذلك الى أن تهتكت فجـأة تلك الشبكة ، وتفجرت الدموع من عينيهـــا ، وراحت تبكي في سكون الليل بكاء حارا ، الى أن غابت عن نفسها وعن دنياها .. بيد أنها فجأة التفتت مذعورة تضطـــرب .. فقد سمعت الساعة الكبيرة الدقاقة في الممر ، تدق الثانية عشرة .

ولكن .. ولكن ماذا ؟ !

كقدمي هزيلتين معروقتين مقرورتين دائما . وابتعث بالفروش حضر هـو الى ؟ .. أجـــل .. وهبت خائفـــة ترتعـــد وذهبت الى الباب وأحكمت رتاجه الداخلي .. ولكن هل يجرؤ أن يفعل هذا ؟؟ .. يفعل أكثر من هذا .. ان الرجل اذا أراد غدا مجنونا .. وهل هو يريد ؟؟ أجل يريد .. يريد ماذا ؟!

يريدك أنت ·· انه يحبك ·· يحبك ·· ولكنى أبغضه ·· ابغضه ·· أبغضه ·· لا أريد أن أراه ·· وسأقول له ذلك ·· الان ·· وفى هذه اللحظة ·· سأقول له اننى أبغضك ·· أكرهك ·· لا أريد أن أراك ·· سأقول له ان من الثمار ما لا يمكن جنيه أبدا ·· وأن من الورود ما لا يمكن قطفه أبدا ·· سأقول له ذلك ·· حتى ولو أدى الامر الى أن أرده ردا غير حميد ·· أن أصفعه على وجهه ·· ان ألقى به من النافذة ·· وهمت بأن تنصرف اليه ، بيد أن نظرة عارضة حانت منها الى المرآة فرأت جسدها العارى الا من تلك الغلالة الرقيقة ·فمدت أصابعها اليها فتحسستها ، ولما لم ترض عنها نزعتها عن جسدها ، وبعد حين راحت على مهل ترتدى ثيابها ·· وفكرت أى الثياب تختار ·· ولكن هذا الثوب الجميل ·· اننى لم أرتده من زمن ، فلماذا لا أرتديه الليلة ؟! وارتدته ، ومن ثم راحت تنظر فى المرآة الى ما ينطوى عليه هذا الثوب الماكر الخبيث من فتنة واغراء ·· ولكن هذا الهدب الطويل المسترخى ·· قليل من الكحل فى الزاوية يكمل الرواء ، ويفعل فعل السحر ·· ومدت أناملها اليه ·· ولما فرغت منه وقفت تتأمله حينا ·· وتعبث بأناملها حينا آخر فى درج من أدراج خزانة ملابسها ·· وما ان اصطدمت أناملها بشىء صغير حتى فرحت فرحا لا يقدر ، فقد وجدت أصبع الاحمر الذى لم تره منذ سنين

ولما أتمت كل شىء ورضيت عن كل شىء ، انصرفت تقطع على مهل ذلك الممر المظلم ، وكأنها فى زينتها احدى غانيات الاساطير تخطر فى الليل ·· حتى بلغت باب غرفته ، فمدت أناملها وفتحت الباب فى حذر ، ثم انسرقت كالنسيم متسللة الى الداخل تسير على أطارف اصابعها ·· حتى اقتربت منه ·· ونظرت اليه ·· ورأته مستلقيا على سريره الصغير الابيض يسبح فى اغفاءة جميلة كأنه ملاك ينعم بحلم جميل ·· وسرها ما رأت فراحت تتأمل ·· تتأمل كل شىء فيه ، وكأنها تراه لاول مرة ·· ومدت قدمها الصغيرة الحافية وتقدمت خطوة من المرآة ·· ثم وقفت وأرسلت نفسا رقيقا كأنه عبير الزهر · ثم عادت الى قدمها الصغيرة العارية ونقلتها مرة أخرى ·· وتقدمت

خطوة ثانية ‥ وحطت كالعصفور بجانبه على حافة السرير‥ وطالعها صدره العريض فراحت تنظر اليه ‥ ورأت ذراعيه القويتين ‥ ثم وجهه الجميل وعينيه الغافيتين ‥ ثم شعره اللامع المتهدل بجانبه على الوسادة وكأنه حول وجهه الابيض المشرق ، سحابة سوداء تحف بهالة من نور ‥ وشاقها الجمال ‥ جمال شعره اللامع المتهدل ‥ فمدت أناملها في حنان اليه ‥ ومست جبينه المشرق وشعره اللامع ‥ وأحس وهو نائم بشيء كأنه النسيم يمس جبينه في رفق ‥ ويداعب شعره في حنان ‥ ففتح عينيه في هدوء ، وما أن رآها أمامه حتى اعتدل في جلسته ، وقال على الفور وهو يمد يديه في خجل ، ويطرح على صدره العاري الغطاء ‥

ـ كم الوقت الان يا آنسة ؟

ـ لقد انتصف الليل ‥

ـ شكرا ٠ فقد حان موعد الابرة الثالثة

رمّان الجناين

يعد الكاتب للطهطاوي كتابا جديدا ضمنه اعنف المآسي الجنسية التي فصل فيهـا القضـاء المصري عـلى طريقته القصصية المعروفة ، وهذه هي احـدى المآسي التي تضمنها الكتاب المـذكور وان كان فصل المحاكمة فيها قد ارجىء للكتاب نفسه .



كنت كلما نظرت اليه ، آمنت بأن قسـوة الشقاء هي في تعلمه ، وليست في تحمله وان من فضل الله على الاشقياء أنهم يتعلمونه سريعا ، ويحملون أعبـاءه مهما ثقلت ويسيرون بها وسط الناس كأنهم منهم . . فأنت لا تستطيع أن تنظر الى عم رضوان أو تجلس اليه . وتتأمل لحيته الطويلة المسترسلة على صدره بيضاء ناصعة كأنها النور يقطر صفاء وطهرا . أو ترى وجهه الضاحك برغم تغضنه وبرغم استبسـاله المضني في سبيل اللقمة ، أو تستمع الى أحاديثه العذبة يرسـلها

بأبلغ الحكم . وتظن أن هذا الرجل يخفي في صدره هما كبيرا . أو يختزن في قلبه حزنا . أو حتى هو يفكر مجرد التفكير فيما يسمونه الحزن أو الشقاء .

وعم رضوان هذا علم من أعلام قريتنا هو في القرية كالمخطوط القديم في المكتبة الحافلة . فهو أثمن كتبها لقدمه وأعزها لندرته . ولو لم يكن أحسنها موضوعا وهو قد بلغ الثمانين من عمره وزاد عليها بضع سنين ، ولم يبلغ أحد في القرية هذه السن . لذلك كان عم رضوان هو الاب والجد وجد الجد . مع أنه لا ابن له ولا أسرة ولا حتى قريب من بعيد ولكن القرية جميعا كانت أسرته وأبناؤها أبناءه وبناتها بناته ما من فتاة كانت صغيرة تلعب عند عربته الصغيرة التي يبيع عليها الفاكهة في القرية الا كبرت وتزوجت وأنجبت أطفالا . كل ذلك وهو جالس أمام عربته على رأس الزقاق ينادي على بضاعته بصوته الجميل . ويودع هذه ويستقبل تلك لتودعه سرها . فقد كان قلبه هو الخزانة التي تودع فيها القرية أسرارها . فما من امرأة في القرية تحمل سرا الا أودعته قلب عم رضوان . وما من أيم وأرملة أو ثيب الا يحس عم رضوان بأحاسيسها ويتلمس لها الخير ما استطاع . وما من عذراء التف كمها ونضجت ثمارها وطاب قطافها، الا يحث لها عم رضوان عن البستاني الذى يعرف كيف يجني الثمار ، كل ذلك وهو سعيد بهذه الحياة راض عنها الرضا كله ، الى أن التقى ذات يوم بمبروكة .. وكانت «مبروكة» هذه طفلة لايعرف عنها شيئا الا أنها ألقيت في الحياة قضاء وقدرا، كما يلقى بعشرات من أمثالها في الدنيا كل يوم . فنشأت يتيمة معدمة تستجدي اللقمة من كل بيت وتغيب النهار كله تتحسس بقدميها الحافيتين أزقة القرية وحاراتها متلصصة على تلك اللقمة من ثنايا الابواب .. فاذا ما أعجزتها في النهار ذهبت في الليل الى الاجران وراحت تبحث عنها بين تلال الاتربة وأكوام الروث ، كما تبحث الكلاب الضالة عن طعامها في القمامات . وتنبش الدجاجات الجائعة عن رزقها في الارض حتى يغلبها النوم فتنام كما هي عند سفح ذلك التل أو على رأس الزقاق الى أن وجدت ذات ليلة من عربة عم رضوان مأوى لها يقيها

غائلة الصقيع . فكانت تنام تحتها متخذة من عجلتيهما الصغيرتين حصنا حصينا . وتظل نائمة الى أن يعود عم رضوان من المسجد بعد صلاة الفجر فيوقظها مشفقا عليها حينا ومقيما أودها حينا . بأن يقدم لها كسرة من الخبز . أو بعض الفاكهة العطبة . أو رغيفا صحيحا من تلك الارغفة الطازجة التى بيعت بها فاكهته ، أو هو أحيانا يشركها فى طعامه

وشعرت الفتاة بهذه النعمة الجزيلة ، وذاقت حلاوة الرغيف الصحيح بعد الكسرة الجافة . ولذة الشبع بعد قسوة الجوع . واستشعر قلبها السعادة كلها وهى تأكل مع الشيخ وتغمس لقمتها معه فى ذلك السائل الذى اختلط بشىء من ادام . وكانت كلما شعرت بهذا وأحست بنعيمه يفيض عليها همت بأن تقول للشيخ شيئا . ولكنها لاتعرف ماذا يقال للناس عن هذا الفضل . ولا ماذا يسدى اليهم على هذه النعمة فتكتفى بأن تنظر الى وجهه فى صمت وكأنها تنظر الى كتاب كريم نزل بالخير للناس وتروح تتبعه كالكلب الامين وان ذهب الى المسجد للصلاة فهى عند العربة تهش عليها وتذب عنها وتحميها من عبث الاطفال والصبية . أما اذا ماغاب الشيخ ساعة أو بعض الساعة فهى المنادية على الفاكهة بصوتها الصغير كما ينادى الشيخ على فاكهته مغنيا بصوته الجهير وهكذا كانت الصلة بين الطفلة والشيخ . ومرت الايام . ومرته سريعة جدا على الفتاة ودائما ما تمر الايام سراعا على الفتيات الصغيرات أشبه ما تكون بانسام الربيع أو أنفاس الفجر .. تترى رخاء وتهب صفاء فيورق العود ويينع الغصن وتعبق الازهار . وهكذا سريعا مرت أيام مبروكة ففرع عودها وأينع غصنها وراح تحت الثوب الاسود الفضفاض، يتموج كالشذى فيملأ الجو عبيرا وعطرا ، ونظر عم رضوان الى هذا الغرس الذى زرعته يداه . وتعهده عطفه ورعاه . رأى ساقيها الجميلتين وكيف رقت بشرتها والتفت على مايشبه النور . ورأى ردفها وكيف برز من العدم فجأة وراح سرا يناغى الثوب ويداعبه فى الخفاء . ورأى أشياء أخرى كثيرة جدا ولكن شيئا واحدا هو الذى هاله أن يراه . رأى صدرا عريضا قد خرج على الوجود فجأة فى استعلاء واستكبار وقد أخذته العزة بالجمال

واستهوته الفتنة بالناس فأطل على الدنيا فخورا يختال تحت الثوب برمانتين جميلتين طاب قطافهما ونفذ سحرهما وهو قد رأى من قبل صدورا كثيرة زانها الجمال وزينتها الفتنة . رأى صدر فاطمة . ومنجده . ومباركه . وزيناهم . وكيداهم وأكابر ، وأم لخير . ولكنه لم يرصدرا كصـــدر مبروكة . ولذلك راح يتطلع اليه دائما . وكأن هذه الرؤية استهوته فراح يغافلها بين الحين والحين وينظر الى نهديها البـــارزتين وما فعله طيشها بالثوب الذى بدت ثقوبه على الصدر وكأنها منقار طائر جميل . وكانت تسره كثيرا هذه الرؤية . رؤية هذه الثقوب التى نفذت منها رائحة الانوثة تغمر منخاريه ، فكان لايسعه الا أن يغض من بصره مفكرا .

وفكر عم رضوان ، وفكر كثيرا جدا حتى أجهده التفـكير وهو يبحث بينه وبين نفسه عن البستانى الماهر الذى يعرف كيف يعرك هذا العود . ويجنى هذه الثمار . ويتذوق طعـم الفاكهة التى طاب قطافها ... ولكن لماذا لاتكون أنت ؟ .. أنا ... وبرقت عيناه ، وتدهورت أنفاسه سريعـــا وراحت شفتاه تردد بعض آيات من القرآن . ومن ثم ترك عربته وراح يحث الخطى الى المسجد ، وما أن بلغه حتى جلس فى ركن من أركانه يتلو القرآن . وظل كذلك الى أن أذن فى النـــاس بالصلاة فصلى معهم ، ومن ثم ذهب الى داره بعـــد العشاء . وجلس الى ـ الطبلية ـ التى أعدتها له مبروكة . وجلست هى قبالته تقدم له الطعام وتنتقى له رأس هذه الفجلة الطرية ، وقطعة الجبن النظيفة ولقمة الخبز هذه التى تقوى أسنانه على مضغها وتصف له جمال هذه الرجلة التى جمعت أعوادها من الحقل بيديها وطهتها له من غير أن يعلم ، ويبسمل الشـــيخ وراح يتناول عشاءه صامتا مغمض العينين لاينبس الى أن مد يده ليقطف عودا من الفجل فالتقت أنامله مصادفة بيد مبروكة . واذا بشىء كأنه النار يكاد يحرقه ، فرد يده سريعـــا وفتح عينيه وعندها عرف أن مبروكة جالسة معه تقاسمه العشـــاء وهم أن يقول لها شيئا ولكنه آثر الصمت وأغمض عينيه من جديد بيد أنه بعد حين وجد نفسه يقول لها وهو يرسم ابتسامة كبيرة على شفتيه :

ـ ستتزوجين يامبروكة •

فلم يتورد وجهها خجلا كماهو منتظر، وانما اكتنفته سريعا صفرة شاحبة وقالت وهى تعالج اللقمة التى شرقت فى حلقها:

ـ أتزوج ؟

ـ أجل ••

ـ اذن أنت تطردنى ؟

فتمتم الشيخ وهو يمد يده الى عود آخر من الفجل :

ـ وهل يطرد الاب ابنته •

فترقرقت الدموع فى عينيها وهى تمسك بيده مرتعشة:

ـ لاتزوجنى •• لاتزوجنى •

ـ الى هذا الحد تخشين الزواج •

ـ أخشى فراقك •

فقال الشيخ وهو يمد عينيه الى وجهها :

ـ هذه سنة الله •

فانهمرت الدموع من عينيها وقالت خائفة وهى تقبل يده وتبللها بالدموع •

ـ لاتزوجنى ان كنت حقيقة تحبنى •

ـ والناس • ؟

ـ أتخشى الناس ؟

وحانت منه التفاتة أخرى اليها فوقعت عيناه على صدرها فرد بصره سريعا وتمتم وهو يلقى بوجهه الى الارض :

ـ وأخشى الله يامبروكة •

ـ اذن تزوجنى أنت •

ففتح عينيه متذعرا كمن أصابه مس وقال :

ـ أتزوجك أنا ؟

ومسحت الفتاة الدموع المنسابة على شفتيها وقالت :

ـ لأكن زوجك عند الله • كما أنا ابنتك عند الحقيقة •

وكان ما أرادت الفتاة ، وقدرت مبروكة فى أبيها هـــذا الصنيع الذى قدمه اليها • وهذا العطف الذى أسبغه عليها • فقد كانت كل أمانيها أن تسعد الرجل الذى أسعدها وتحسن الى الانسان الذى أحسن اليها • وتسدى جميلا الى من رباها ورعاها فراحت تعطيه من السعادة كل ماتملك المرأة ، ومن

الحب كل ماتملك الزوجة . ومن الرعاية والعناية والاخلاص كل مافرضه الله على الابناء للآباء، فهو عندها أمام الناس الاب الرحيم . وعندها أمام الله الزوج الوفى .. أما بينهـا وبين نفسها فهو الرجل الذى انتشلها من بين تلال الاتوبة وأكوام الروث . وأطعمها من جوع وآمنها من خوف .

وسعد عم رضوان بهذا كله سعادة لم يكن ليقدر أن الله يهبها للناس فانقلب شخصا آخر لا صلة له بالانسان القديم يضحك دائما ، ويمرح دائما ، وينهل سعادة الدنيا وهنـاءة الحياة من ذلك المعين الذى لاينضب . وهو وفاء مبروكة .. وجمال مبروكة .. وصدر مبروكة الذى كان قبلته . وهكذا عاد اليه شبابه وزايلته شيخوخته . حتى أصـبح لايرى الا نظيف الثوب أو ضاحك الثغر . أو مغنيا يرسل عقسيرته فى الفضاء ينادى على بضاعته وهو فى الحقيقة يتغنى بمبروكة ويصف جمال مبروكة ويتغزل فى صدر مبروكة .

ع الصدر زاين   وم التياب باين
يا أغـلى من العـين   يارمـان الجنـاين

ثم تأخذه النشوة وهو يتطلع الى وجه معبودته الضـاحك المتورد وطرفها الاسود المضمخ فيدفع عربته فى قوة وسـط الزقاق مرددا بأعلى صوته :

أسمر وجميـل   يابو رمش كحيل
ياأحمر الخدين يارطب

أما اذا غازلته مبروكة . وكثيرا ما كانت تغازله . لانه كان يحلو لها أن تستمع الى أغانيه فيها وتشبيبه بها . فكان ينسى وقاره ويتناسى شيخوخته . فيترك العربة ويضـع يديه على صدغيه مغنيا :

رمان الجناين يا أخضر   رمانك ياحبيبى طاب
وفى عرضك راسى بتوجعنى   اعمـلى حجـاب

فنجتمع نحن الصبية حوله . ونروح نردد معه الشـطر الاخير : اعملى حجاب . ونظل كذلك الى أن يأتى على وصف الحبيب من شعره الى أخمص قدميه وصفا دقيقا رقيقا ممتعا ولا سيما وصفه للصدر وما عليه من رمانتين . وما بينهما من جـدول يترقرق منه العسل المصفى .

أما اذا اشفقت مبروكة على ساعديه من ثقل العربة وراحت تدفعها أمامه نيابة عنه تجوب بها الحسارات والازقة فهو من خلفها ينظر الى غصنها الرطيب وفرعها المياد وما يخفيه الثوب من فاكهة ويصف لنا مغنيا كل هذا أو بعضه في هذه الاغنية الجميلة التي كنا نطرب لها جميعا ونسير خلفه لنسمعها ٠

بلدى أبو صوير والتل الكبير وبنا
والبطن قشطه لفايف والعسل له قنسا
قلت ياجميل دوقني العسل قال لى
كل بنت عيشه تعرف ليالى الهنا

بيد أن حظ عم رضوان العاثر لم يشأ له أن يدوم هذا النعيم ، ولا أن تعمر هذه السعادة التي كانت أشبه بعمر الزهر لايلبث أن يطلع عليه الصيف فيحترق ٠ فقد ذهبت مبروكة ذات يوم الى النهر لتغسل بعض الفاكهة وتنظفها كعادتها ٠ فنزلت الى الماء ودفعت أمامها «صفتا» ثقيلا امتلأ بالبلح فغاص منها في الماء فهمت به لتنقذه فابتلعها اليم ٠ ولم يقف لها على أثر الا عندما رؤيت جثتها طافية على السطح ٠

وترامى الخبر الاسود الى عم رضوان فاستقبله ضاحكا غير مصدق ماسمعت أذناه وكيف يصدق عم رضوان أن تموت مبروكة ٠٠ قيل له أن مبروكة ذهبت الى النهر ولم تعد فسخر وقيل له أن مبروكة قد ماتت فابتسم ولم يصدق ٠٠ وقيل له هيا لنشيع جثة مبروكة ونترحم على جدثها الطاهر فضحك من قولهم ٠٠ وترك أهل القرية جميعا يسيرون خلف النعش باكين مترحمين ٠ وذهب هو الى داره وجلس ينتظر مبروكة ٠

ولما لم تعد وقضت أول ليلة في حياتها خارج الدار ٠خرج مع الفجر يجوب أزقة القرية باحثا عنها وكلما قابله أحد استوقفه وسأله في هدوء عجيب ٠٠ ألم تر مبروكة ؟ وأذكر انه التقى بي ذات مرة وكان ذلك بعد وفاتها بيومين فاستوقفني وسألني عنها ٠ فلم اتمالك نفسي وانسابت الدموع من عيني فاقترب مني وربت على كتفي وهو يقول منصرفا :

ــ حتى أنت أيضا تصدق أنها ماتت ٠

وظل عم رضوان على هذا النحو زمنا طويلا ٠ وكان كلما برح به الشوق اليها ترك عربته يعبث بها الصبية في الزقاق

وذهب الى النهر وجلس على حافته يتأمل الماء وينتظر مبروكة وكثيرا ما كان يسرح به هذا التأمل الى حد رؤية مبروكة .. فكانت تخرج له من اليم . وتخرج حلوة جميـــــلة كما كان يشتهى . يزين صدرها ذلك الرمان الذى كان يحبه . وتروح عارية فى الماء تداعبه وتلاعبه . كما كانت تداعبه وتلاعبه فى الدار . ويروح هو يغترف بعينه ما يشتهى من صدرها ، ومن ذلك الرحيق العذب الذى يترقرق فى وسطه عسلا مصفى ويظل كذلك الى أن تأخذه النشوة فيهم بتقبيلهـــا . لولا أن الحقيقةتصدمه فيعود من حيث أتى يجفف عبراته الصمامتـة وظل كذلك الى أن ساءت حالته وهزلت شيخوختـه وكذلك خسرت تجارته خسرانا كبيرا، فقد عرفنا نحن الصبية فى القرية ماهو الشيء الذى لايرد بهعم رضوان سؤالا فماكان على الصبى منا الا أن يقدم اليه مليما واحدا . وأحيانا لايقدم له شـيئا ويقول له :

ـ «وحياة رحمة مبروكة» فيعطيه بالمليم كل ماعلى عربتـه من فاكهة . عطبة أو طازجة : وتبدى شقاء الشـيخ فى كل شيء حتى فى لحيته التى غام بياضها وغدت زرقاء باهتة أشبه بجلد القنفذ الميت . وكان يبدو ذلك واضحا فى جلستـــه المتخاذلة أمام بضاعته يذب بيده المتعبة أسراب الذباب التى تجمعت أمامه على حفنة من البلح الحامض وهو يغنى بصوت لايكاد يبين .

صلاة النبى على عيشه وبلح عيشه
ياريت يوم الوداع لم كان ياعيشه

أو فى رؤيته وهو يعبث بأنامله الحزينة فى بعض حبـات من الجوافه العطبة ويردد :

ـ أغلى من الجواهر ياجوافه . . . الوقه بقرش .

وذهب عم رضوان الى النهر ذات ليلة وجلس على الشاطىء ينتظر مبروكة تخرج اليه من اليم كالعادة . ولكنها لم تخرج فأحزنه ذلك حزنا شديدا وعاد مكتئبا ينتزع قدميه انتزاعا من الارض حتى بلغ داره . وهناك جلس على الحصير الـذى كان يجلس عليه مع مبروكة ، ورأى الطبليـــة التى كانت تعدها له مبروكة حافلة بأشهى الاطعمة منكفئة خلف البـاب

ورأى القلة التى كانت تملؤها وتضعها له فى المنور فتثلج فى دقائق . ملقاة بعيدا قد كسر عنقها . ورأى شيئا آخر علق على مسمار صدىء فى الحائط كما يعلق الانسان المخنوق فى حبل ، فتبينه فاذا به قميص مبروكة الحريرى الاحمر الذى كانت خاطته لنفسها وارتدته ليلة الزفاف . ثم رأى غير هذا كله شيئا لم يكن قد رآه من زمن . رأى فى قلب الصندوق الصغير الذى كانت مبروكة تحفظ فيه ثيابها رمانتين جافتين كان قد احتفظ بهما عندها حين أوشك موسم الرمان على الانتهاء ليتغزل فيهما كلما أراد أن يتغزل فى مبروكة ويصف صدرها ، رأى كل ذلك فأيقن أن مبروكة قد ماتت فعلا . وايقن أنه لايستطيع بعدها أن يعيش فى القرية مادام كل شىء فيها يذكره بمبروكة . وقام على الفور واحضر جوالا كان يستجلب فيه الفاكهة من السوق . ووضع كل مايملك . جلبابه القديم الذى ينام فيه . وبعض أرغفة جافة تقيم أوده فى الطريق . وحرص حرصا شديدا على الرمانتين فلفهما باحكام فى قلب القميص الحرير الاحمر ووضعهما فى الجوال وحمله على ظهره . ومن ثم تسلل من القرية فى الليل لايرى أحدا ولا يراه أحد وظل يسير على غير هدى . ويضرب بعصاه فى الارض ، وكلما لحقه الليل وضع الجوال على الارض وألقى برأسه الثقيل عليه الى أن يطلع الفجر فيواصل سيره . الى أن وجد نفسه عصر ذات يوم يجلس مع الجالسين أمام باب مسجد سيدنا الحسين

وكما يحن الغريب الى الغريب ويتعرف البائس على الشقى تعرف عم رضوان على الشيخ متولى بائع العرقسوس أمام باب المسجد . وتوطدت الصلة بينهما سريعا ، ولما أقبل الليل اصطحبه الشيخ متولى الى داره فى حارة المشاعلية ــ خلف المسجد تماما واضافه فى غرفته الصغيرة بالدهليز الفسيح فى بيت الشوادفية وهو بيت قديم متآكل . وكان بالدهليز غرفة خالية استأجرها عم رضوان بعشرين قرشا يدفعها عندما ييسر الله له الحال . وكان بالدهليز خمس غرف أخرى يقطن احداها عم متولى . ويقطن الثانية الشيخ نوفل وهو فقيه ضرير يقرأالقرآن أمام المسجد . وتقطن الغرفة الثالثة المعلمة لبيبة الكراشاتية مع ابنتها أنوار . وهى تشتغل

فى الحى ببيع الكرشة والكوارع ولحمة الرأس ، وفى الغرفة الرابعة يقطن الاستاذ حسبو وهو عرضحالجى عند المحكمة الشرعية . واشتغل حينا كاتبا لاحد المحامين لذلك كتب لافتة كبيرة على باب غرفته سطر عليها :

الاستاذ حسبو المناديلى ، وكيل الافوكاتو نجيب البشلاوى بالاستئناف العالى ومجلس الدولة . والمحاكم الشرعية ، وعضو نقابة المحامين ، أما الغرفة الخامسة فتقطنها الست لواحظ وهى امرأة فى مقتبل الشباب والنضارة ، ولكن لايعرف على وجه التحديد المهنة التى تزاولها .. ووجد عم رضوان فى هذه الزمرة الجديدة بعض الراحة ، فقد أولوه جميعا عطفهم ولا سيما المعلمة لبيبة التى ابتاعت له فى اليوم الثانى فرشا متواضعا واشترت بعض مصنفات من مخلفات الفاكهة وأجلسته بجوار طبليتها على باب الزقاق ، ينادى هو على فاكهته . وتنادى هى على اللسان والمخ والجواهر وأكل الباشوات ياكوارع بتلو . وهكذا اطمأن عم رضوان الى حياته الجديدة وتوطدت علاقته جدا بالمعلمة . أما ابنتها أنوار فكانت تحب أحاديث الشيخ وفكاهاته الى حد كبير وكثيرا ما كانت تجلس الى جواره وتتحدث اليه حديثا طويلا ، وجلست أنوار بجواره يوما وكان يوم جمعة وهو يوم عطلتها فى مصنع الطرابيش الذى تعمل به النهار كله . وراحت تتحدث اليه كالعادة ، وهو يتحدث اليها كالعادة ايضا . غير أن نظرة عابرة منه فى ذلك اليوم جعلته يرد الطرف سريعا وهو يرتعش كمن أصيب بحمى مفاجئة . فقد رأى صدر مبروكة الذى يعرفه جيدا ورآه يدل تيها بالرمانتين الجميلتين ويميس عجبا كلما هب النسيم على الثوب ولاح ذلك الجدول الذى يترقرق عسلا مصفى . واغمض الشيخ عينيه وعاد ففتحهما ثانية فهاله انها حقيقة وليست مجرد خيال أو وهم كما تعود ان يرى فى أيامه الاخيرة فأطبقهما وهو يرتعش . فسألته أنوار عما به فلم يجب . وكذلك سألته المعلمة لبيبة فلم يجب أيضا . وانما ترك فرشه وذهب الى غرفته المظلمة فى قلب الدهليز ، وما أن بلغها حتى ألقى بجسده وشفتاه تهمهمان بالفاظ لايسمع منها غير اسم مبروكة وتعالج عيناه دموعا غزارا انسابت على

لحيته الطويلة فأحالتها الى شبكة كبيرة من الدموع وظل كذلك لايفطن الى نفسه الىأن دق عليه الباب الشيخ توفيق عند الفجر ليصحبه الى المسجد ٠

وعاد عم رضوان من المسجد وجلس الى «فراشه» على رأس الزقاق مبكرا على غير العادة وراح ينادى على بضاعته بصوت خافت وعينه ترقب من بعيد شيئا ٠ الى أن خرجت عليه أنوار من الدهليز كماتخرج الشمس من خلف غمامة سوداء فاستوقفها وراح يداعبها ومن غير أن يفطن الى مايقول وجد نفسه يسألها:

ــ أريد أن أتزوجك ياانوار ٠

فضحكت الفتاة لهذه الفكاهة الطريفة وأسرعت في طفولة محببة، وأمسكت بلحيته وخنقت شعرها الطويل بين أصابعها وجذبت وجهه اليها حتى كاد يدانى وجهها وقالت وهى تضع سبابتها على ثغره :

ــ هس ماتقولش كده ياشاطر ٠

ثم انفلتت من أمامه كما ينفلت العصفور في الهواء وغابت عن عينيه ٠ ولم تدر أنها قد سببت له بهذه الدعابة الـــــا لايحتمل فقد مكنته وهى تدنى وجهها من وجهه من أن يشـــم ذلك الارج الذى يتضوع مسكا من صدر مبروكة ٠٠٠ ولـكن هل هو حرم فعلا من مبروكة ٠٠ ولكن كيف يحرم منها وهى مازالت على قيد الحياة ؟ وما زال صدرها الذى يحبه يتضوع عبيره ويعم شذاه ٠٠ اية قوة فى الوجود تستطيع أن تحرمه من حياته ٠٠ من دنياه ٠٠ من ذلك الرمان الجميل الذىطاب جناه ٠٠ ان مبروكة لم تمت ٠٠ واكتنفته فرحة غريبة أضفت على وجهه المترهل ولحيته المكتئبة اشراقة جميلة أنارت وجهه وبعثت فيه الحياة من جديد ففتح عينيه ورأى الصبية من حوله ورأى فرشه وماعليه من فاكهة ولاول مرة بعدأن ماتت مبروكة انطلق صوته بالغناء الجميل ٠

وأقبلت مع الضحى المعلمة لبيبة ٠ وأقبلت كما هى العادة بعجيجها وضجيجها تحمل على كتفيها عدة حبال علقت بهــا رؤوس بعض الثيران الكبيرة ٠ وعدة ارجل تسيل منها الدماء وبين يديها كرش كبير تنسال منه رائحة الروث العفنة ، وما أن بلغت طبليتها الكبيرة بجوار فرش عم رضوان ٠ حتىألقت عليها بكل هذه الاحمال وهى تقول فرحة منورة الوجه :

ـ مبروك يارضوان .
ـ خير ياست
ـ أنوار اتخطبت ..

وقبل ان يجيب بشيء قالت الست لواحظ التي كانت قد أقبلت من بعيد تسبقها عدة فرقعات كبيرة . بعضها تحدثه اللبانة الكبيرة التي حشرتها في فمها . وبعضهـا ينبعث من شبشبها الاسود اللامع الذي تزينه وردة حمراء .

ـ مبروك يامعلمة اتخطبت لمين ؟
ـ عبده افندى المكوجى اللى على راس الزقاق .

ولاحظت المعلمة شيئا غريبا اكتنف وجه عم رضوان فسألته فقال سريعا وهو يرسم على وجهه ابتسامة باهتة :

ـ لاشيء .. كنت أريد أن أتزوجها أنا .

فضحكت المعلمة حتى استلقت على قفاها . وقالت الست لواحظ وهي تنصرف غامزة بعينيها :

ـ انت تتجوز المعلمة .

وأثرت هذه الكلمة فيه تأثيرا كبيرا لانها ذكرته بحقيقتـه المرة . بالزمن الذي يعبث بشيخوخته على هذا الوضع المهين . والايام التى تسخر من وجهه المتغضن ولحيته الطويلة والقدر الذى لايريد ان يشفق على تسعين عاما ، انقضت فى شـقاء لايحتمل . ثم قلبه الذى ما زال يهفو الى صدر مبروكة كما يهفو الوليد الى صدر امه . واثر فيه هذا تأثيرا عميقا . حتى خارت قواه . وظل كذلك أياما أحس خلالها بأنه سيموت . فلم يزعجه هذا الاحساس بل أطربه الى حد كبير لانه سيلتقي بمبروكة كما حدثه بذلك الشيخ نوفل . وسيستعيد معهـا سعادته وهناءته . وسيلقي برأسه هذا الثقيل على صدرهـا ويستنشق عبير ذلك المسك من جديد . ولكن هــل ماتت مبروكة حقيقة حتى يلتقي بها هناك ؟ وفجأة تولاه احسـاس جديد بأن مبروكة لم تمت . وانها ما زالت على قيد الحيـاة وانها تعيش معه فى دهليز واحد . وكل مافى الامر انهـم انتزعوها منه انتزاعا . ليزوجوها من عبده افندى المكوجى الذى على رأس الزقاق . ولما تأكد من ذلك بينه وبين نفسـه أحس بأنه لم يمرض وانه مازال فى صحته وقوته وانه يريد

أشياء وأشياء . فترك مكانه وألقى بمذبته بعيدا وراح طوال اليوم يقطع الزقاق ذهابا وجيئة . يبحث حينا عن عبده افندى المكوجي الذى على رأس الزقاق . وحينا عن مبروكة التي يريدون انتزاعها منه ، ومع انه كان يلتقى بعبده وبأنوار عشرات المرات في اليوم الا أنه لم يرهما .. وظل كذلك ايااما الى أن تعب وأحس بأنه يريد أن يستريح فذلف خلسة دون أن يحس به أحد الى الدهليز . وبينما هو يقطع ظلامه أحس بحركة في غرفة المعلمة، فعرج عليها من غير أن يدرى وتلصص من ثقب الباب . فاذا به يرى شيئا فلم يصدق عينيه ، فعاد وفتحهما مرة أخرى وأرسل بصره طويلا ، فرأى أنوار واقفة أمام المرآة الصغيرة المعلقة فى الحائط متجردة من ثيابها جميعا تحاول فى نشوة أن ترتدى ثوبا جديدا أبيض اللون ، هو الذي أعدته لليلة الزفاف ، لترى فتنته على جسدها ، ونظر عم رضوان من ثقب الباب الى الجسد العارى والفتنة المتيقظة ورأى فيما رأى صدر مبروكة .. ورآه كما هو بغديره الرقراق ورمانه الجميل ورائحته الذكية . وأخيرا فى غطرسته وكبريائه . وانبعثت الى أنفه رائحة الانوثة تحترق فى منخاريه انها تماما رائحة مبروكة .. ودفع الباب فى قوة فانفتح وذلف منه ثم أغلقه فى عنف .. فذعرت الفتاة وبحركة لاارادية رفعت يديها بالثوب الى صدرها فحجبته . وغاظه أن تخفى عنه بضاعته فاقترب مربد السحنة لامع العينين .

ـ اخرج ... اخرج

ـ أتطردينني ؟ ..

ـ قلت لك اخرج ..

ـ أنا رضوان يامبروكة .

وصر على أسنانه ووقفت شعرات لحيته الطويلة كالحراب فغدا كذئب مفترس .

ـ قلت لك اخرج ...

ـ أنا رضوان يامبروكة .

ـ مبروكة مين ... أنا أنوار .. أنوار

وكفكفت مرتعبة تلوذ بالحائط . فقال فى غلظة وهو يقرض على أنيابه وينتزع الثوب من يديها :

ـ انت مبروكة .. هذاالصدر ملكي وهذاالرمان غرس يدي
وهمت الفتاة أن تصرخ فأطبق على شفتيها بيديه وهو يرغى ويهدر كالثور وقد سال لعابه اللزج على صدره فلوثه .
ـ أنا رضوان يامبروكه .
ودفعته الفتاة عنها في قوة هائلة .
أسقطته على الارض وهمت أن تفتح الباب لتستغيث ولكنه فجأة شعر بقوة هائلة تسرى فى كيانه كله فجذبها فى عنف من قدمها وأسقطها بجواره على الارض وراح فى قوة الثور يطبق على نهديها وكأنه يريد أن ينتزعهما وهو يرغى :
ـ أنا رضوان يامبروكة !
واستطاعت الفتاة بعد صراع عنيف أن تخلص يديها من ذراعيه . وما أن فعلت حتى غرست أصابعها فى عنقه المترهل فخنقته وظلت تخنق حتى برزت عيناه وأحس بأنه يموت وعز عليه أن تقتله مبروكة بيديها فراح هو الاخر يضغط على عنقها في غيظ كبير ، وفجأة رأى سكينا كبيرة ملقاة على الارض بجوار خطافين كبيرين فتناولها وراح يردد فى جنون كبير :
ـ أنا رضوان يامبروكة .
ورأت الفتاة السكين فىيده فذعرت ونزعت اصابعهامن عنقه مستسلمة . ولكنه كان قد أجهز عليها .. وبنفس السرعة التى اجتز بها رقبتها ، اجتز ثدييها وفتح الباب سريعا وخرج الى الطريق يركض فى سرعة جنونية . وما أن بلغ المسجد ورأى جموع المصلين خارجة منه . حتى توسطهم وراح يرقص أمامهم بثيابه الملطخة بالدماء . وقد أمسك ـ بالثديين ـ فى يديه وراح يغنى بصوت أشبه مايكون بصوت النار فى الاذان:

ع الصدر زاين   وم التياب باين
ياأغلى من العين   يارمان الجناين

أغلى من العين



« في قصر الخلد ، حيث الخليفة هارون الرشـــيد ، في جناحه الخاص لم يبرحه منذ أيام ، والوزير جعفر والعباسة يتهامسان عند الشرفة • »

العباسة : أراه قد تغير كثير في هذه الايام •

جعفر : كيف !

العباسة : ساهم ، واجم ، لا تعرف البهجة طريقها الى قلبه ولا الابتسامة سبيلها الى شفتيه •

جعفر (دهشا ينصت الى لحن موسيقى ينبعث من جناح الملك) وهذا الذى أسمع، هذه الالحان التى تسيل رقة وعذوبة وهذا الغناء الذى يذيب القلوب • ثم هذه القيـــان • وتلك الحسان ، اللائي يتماوجن من حواليه• فينثرن الفتنة وينفثن السحر ، فيملأن الكون عطرا ، أكل هذا لا يبعث البهجـــة الى قلبه •• ؟

العباسة : كل هذا يثير شجونه • يرهف عواطفه ، يرهق

قلبه المعنى انه يضيق حتى بانفاس الزهـــر ، لقد رأيتـــه بعينى ، يسدل الستر على النوافذ حتى لايرهقه عبير الشذى

جعفر (مفكرا) : ومنذ متى هو كذلك ؟

العباسة : منذ أن جاء الى القصر بتلك الاعرابية ·

جعفر (دهشا) : راعية الشاء

العباسة : أجل ·

جعفر : عجيب هذا الذى أسمع ·

العباسة : واعجب منه أن تراه · اذن لرأيت قلبا أذوى به العشـــق ، وأذرى به الضنى · لم أره مولها كما أراه الان · (لنفسها) : وكم سألت نفسى ، وفيم هذا الوله ، وهى بين يديه ، ملك ذراعيه (لجعفر) : ترى هل يطمع العاشق ، فى أكثر من أن يظفر بمن يعشق ؟؟

جعفر (متخابثا) : سلى قلبك ·

العباسة (غاضبة) : انى أحدثك عن الخليفة ·

جعفر : انه ليس كما تظنين ·

العباسة : ماذا به اذن ؟

جعفر : يقظة ضمير ، وعما قريب ستغفو

العباسة (فى دهشة) يقظة ضمير !

جعفر : لعل قلبه الكبير يراجعه فى اغتصابها

العباسة (دهشة) : اغتصابها ! اغتصاب من ؟

جعفر : سلافة ·· هذه الاعرابية

العباسة : وممن ؟؟

جعفر : من الذى تحب ·

العباسة : من الذى تحب ؟ ومن هو ؟

جعفر : أعرابى يرعى الابل ·

العباسة : (وقد ازدادت دهشتها) يرعى الابل ؟

جعفر : أجل · يرعى الابل ·

العباسة : لم أفهم شيئا ·· وضح ·

جعفر : معذرة · لاننى لا أستطيع ·

العباسة : أسر هو ؟

جعفر : انه من أسرار الرعية ·

العباسة (غزلة تنظر اليه) : وان لم يصدق جعفر العباسة

فمن يصدقها اذن ؟

جعفر : جعفر ·

العباسة : قل اذن ·

جعفر : على أن يضم الى ما بيننا من أسرار

العباسة (مسبلة الهدب في خفر) : وهل بيننا أسرار ؟

جعفر (هائما) : بيننا الدنيا بما رحبت ، الحياة بما جمعت ·· بيننا ··

العباسة (مقاطعة) : دع حديث جعفر والعباسة ، وهات حديث الخليفة وسلافة ·

جعفر : ألا يطربك حديث جعفر والعباسة ؟

العباسة : يلذ لى أن أسمع حديث العشاق ·

جعفر : وأنا أيضا ·

العباسة : اذن قل ·

جعفر : كنت ذات ليلة مع مولانا الخليفة · نجوس خلال الديار ونتفقد شؤون الرعية ، وكنا فى زيين غريبين ، لم يعرفنا فيهما أحد · وكان القمر فى الافق ، يرسل نوره على دجلة ، فيحيل صفحته الى بساط من فضة ، يتمساوج ذات اليمين وذات الشمال (ينظر اليها) كما يتماوج الان هذا الشعاع النورانى ، على صدر فاتنة بغداد ·

العباسة (وهى تنكس هدبيها) : وبعد ·

جعفر (مستطردا) : وكان مولانا الخليفة مبتهجا مسرورا، تغمره السعادة بما أياءه الله عليه من نعيم يتمثل فى ولاء رعيته التى تسبح بحمده ، وتشيد بفضله ، وتود لو تصنع له من حشاشات القلوب ، عرشا يجلس عليه ، ومن أفئدة العيون بساطا تحت قدميه · وهزنا الشوق الى الفضاء · فخرجنا الى المروج في الليل ، وفجأة سمع مولانا الخليفة صوتا ينبعث فى السحر كأنه السحر · ويسرى مع أنفاس الظلام ، فيعطر آذان الليل · فتبعناه في الظلام ، فاذا بنا أمام أعرابية كأن وجهها الفلق تناجى حبيبها فى الليل بجوار الخيام · فتحدث اليها مولانا الخليفة حديثا طويلا · عرف منه أنها تحب أعرابيا يرعى الابل عند الشاطىء · وأنه قد خطبها الى أهلها · وسوف تزف اليه بعد أيام · وما أن سمع مولانا هذا ·حتى تركها وانصرف

وفي النفس ما فيها من تعلات ٠
العباسة : وبعد ٠
جعفر : احتجبت الشمس وراء الافق ، حتى نفذت مشيئة مولانا الخليفة ٠
العباسة : كيف ؟!
جعفر : قبل أن طلع الصبح ، كانت سلافة في القصر ٠ وخطيبها في السجن ٠
العباسة (مأخوذة) : في السجن !
جعفر (مبتسماً) : أجل
العباسة : ولماذا ؟
جعفر : حتى لا يغرى القنص ، كلب باللحاق به ٠
العباسة : انه الظلم ٠
جعفر : انه العدل بعينه ٠
العباسة : العدل أن تفرق بين قلبين ٠
جعفر : العدل أن يرضى مولانا الخليفة ٠
العباسة : (لنفسها بعد صمت) : العدل أن يرضى مولانا الخليفة (لجعفر) : وهل رضى ؟
جعفر : قلت أنها يقظة ضمير ٠ وعما قريب ستغفو ٠
العباسة : أجميلة هي يا جعفر ؟
جعفر : لم أرها ٠
العباسة (دهشة) : ألم تكن معه ؟!
جعفر (ينظر الى عينيها) : منذ أن نظرت الى السماء ، لم تر عيني الا قمراً واحداً ٠
العباسة (متبرمة) : دع حديث الغزل ٠
جعفر : وفيم أتحدث اذن ؟
العباسة : في شؤون الخلافة ٠
جعفر : وكيف تساس بلا قلب ؟
العباسة : (متجاهلة) أي قلب تعنى ؟
جعفر : يا لك من جاحدة ٠ قلب من أذرت به عيناك
العباسة : قلت لك دع حديث القلب ٠
جعفر (هائماً) : وهل تعبق الزهرة ، ان ظمىء الغصن ؟
العباسة (تنظر اليه)

جعفر : وهل يجرى النهر ، ان امتنع المطر ؟
العباسة (تنكس رأسها في خفر)
جعفر : وهل تعزف القيثار ، ان انقطع الوتر ؟
العباسة (متوردة الوجه تنظر اليه)
جعفر : وهل تترى الانفاس ، ان نضب القلب ؟
العباسة (تعبث بطرف شاله بأنامل مضطربة) : أهـذا حديث القلب ؟
جعفر : انه حديث الحب .
العباسة : أتحبني ؟
جعفر : وهل لا يحب العابد معبوده ؟ ... (بصوت متهدج) لكم وددت (يصمت)
العباسة : وددت ماذا ؟
جعفر : (يصمت) .
العباسة : قل ، قل ...
جعفر : (وهو ينظر اليها) :لوصنعت من هذه الشفاه كأسا
العباسة : هبك صنعت .
جعفر : اذن لرشفت رحيق الحياة .
العباسة : واذا ارتويت ؟
جعفر : الهبتني سياط عيناك .
العباسة : واذا ألهبتك ؟
جعفر : تبردت من حرها بخمر شفتيك .
العباسة (هائمة تنظر اليه) : جعفر !
جعفر : معبودتي .
العباسة : زبيدة تمكر بنا .
جعفر : وجعفر خير الماكرين .
العباسة : لقد ترامى اليها حديثنا ليلة الحراقة .
جعفر : وقد أطحت برأس من نقله اليها .
العباسة (وجلة) : انه عبرة .
جعفر (هامسا) : قتل ليلة الامس .
العباسة (ممسكة بيديه) : انني أخشى الخليفة .
جعفر : انه في يدى .
العباسة : أدخل السرور عليه .

جعفر : سأجعل الكون يصغي الى أنغام ضحكاته

(تدخل احدى الوصيفات)

الوصيفة (هامسة في وجل) : مولانا الخليفة ·

العباسة (هامسة لجعفر وهي تنصرف مسرعة) : كن حذرا (تخرج)

(يدخل الخليفة « هارون الرشيد » مهمـــوما بادي الحزن والشحوب الذي تلتمع صفرته في عينيه ·)

الخليفة (لجعفر) : أنت هنا ؟

جعفر : منذ أن تنفس الصبح يا مولاي

الخليفة وفيم البكور ؟

جعفر : لقد ترامي الى أن مولانا الخليفة · مد الله في عمره، وأدام عزه ، وأطال أيام ملكه ، ليس على ما تنشده الرعيةلذاته الكريمة ، من راحة بال ، وسعادة حال ·

الخليفة :من قال ذلك ؟

جعفر : الشمس المتوارية حزنا وراء الافق ، الطير المنكس أجنحته في السماء ، النهر الساهم الواجم الحـزين ، الورود المنكسة على أغصانها تعتصرها ريح الحزن اعتصارا · انمولانا الخليفة ، اذا فارقت الابتسامة شفتيه حزنت الطبيعة ،واكتأب الكون ·

الخليفة (لنفسه ساخرا) : حزنت الطبيعة . واكتـــأب الكون ·

جعفر : كل ما في الوجود مسخر لك يا مولاي ·

الخليفة : حتى الذى لا أملكه يا جعفر ؟

جعفر : ليس من شيء لا يملكه الملك ·

الخليفة (محزونا) : قلت يوما ما تقول · الى أن وجدته

جعفر (دهشا) : أى شيء وجدته يا مولاي ؟

الخليفة (وهو ينظر حزنا) : الشيء الذى لا أملكه ·

جعفر (متعجبا) : الشيء الذى لا تملكه !!

الخليفة : أجل ·

جعفر : وما هو ؟

الخليفة : قلب المرأة ٠

جعفر : وأدتها أمها ، من تضن بقلبها على أمير المؤمنين ، أى النساء يا مولاى ٠ لا يقتلها الشوق الى رضاك ٠

الخليفة (واجما) : سلافة ٠٠

جعفر (مأخوذا) : سلافة !

الخليفة : أجل ٠

جعفر : تلك الاعرابية

الخليفة (فى سهوم) : راعية الشاء ٠

جعفر : ولكنها بين يديك ، ملك ذراعيك يا مولاى ٠

الخليفة : كتلة من الثلج ، جسد بلا قلب ، انفاس بلا روح امرأة بلا جسد ٠

جعفر (دهشا) : امرأة بلا جسد ؟

« تدخل احدى الوصيفات ٠ وتتقدم خطوة ٠ ثم ترجع خطوة »

الوصيفة : ان مولاتى الملكة ، لتطمع فى أن يؤذن لها بالمثول بين يدى مولانا الخليفة ٠

جعفر : ان مولانا ينظر فى شؤون الخلافة ٠

الخليفة : سأنتقل الى جناحها بعد حين ٠

الوصيفة (تتقدم خطوة ثم ترجع أخرى) : أمر مولاى ٠ « تنصرف »

جعفر : امرأة بلا جسد ٠٠

الخليفة (وهو يتلوى حزنا) : انه الحب يا جعفر (ينهض متخاذلا الى احدى النوافذ ، ويزيح بيديه الستر وينـــادى) على بعنان ٠

« تدخل عنان سريعا ، وهى جارية حسناء ، تقوم على شؤون الخليفة الخاصة ٠ وما أن تبلغ التكئـة التى يقف عليها الخليفة حتى تخر راكعة عند قدميه ٠ »

عنان : مولاى ٠

الخليفة : أسألك عن سلافة ٠

عنان : يظلها جناح عطفك يا مولاى ٠

الخليفة : كيف حالها ٠ ؟

عنان : يجملها الحرير والمخمل ، ويزينها الماس والجوهر ، ويتضوع عبير المسك من عطفيها ، ويقتلها الشوق الى اللقاء ٠

الخليفة (لنفسه ساخرا) : ويقتلها الشوق الى اللقاء)لعنان بعد صمت طويل) على بها ٠

عنان (تتقدم خطوة ثم ترجع أخرى وتنصرف) :

جعفر : ليأذن لى مولاى ٠

الخليفة (لا يجيب)

جعفر (ينصرف)

« تدخل سلافة تسبقها رائحة العطور ، تتعثر فى فاخـــر الثياب ، وتبدو شاحبة اللون محزونة الفؤاد »

سلافة (وقد ركعت عند قدميه) : مولاى ٠

الخليفة (وهو ينهضها في حنان ويشير الى الاريكـــة التى يجلس عليها) : اجلسى ٠

سلافة : عفوا يا مولاى ٠

الخليفة : اجلسى ٠

سلافة (يقطع أنفاسها الحزن) : وهل أجرؤ ٠

الخليفة : أنت ٠

سلافة (مقاطعة) : أنا جاريتك يا مولاى ٠

الخليفة : أنت حبيبة ٠

سلافة : كلا يا مولاى

الخلفية : ماذا أنت اذن ؟

سلافة : خادمة ٠

الخليفة (ينظر اليها بشوق وقد أجلسها بجـــواره) : ما أجمل هذه الزهرة البكر ٠

سلافة : انها من صنع خميلتك يا مولاى ٠

الخليفة : انها من صنع الله ٠

سلافة : الله خلقها ، وأنت قطفتها ٠

الخليفة : أنا رعيتها ٠

سلافة : بل وأدتها (تبكى)

الخليفة : أتبكين ؟

سلافة : من جرح يتنزى ٠

الخليفة : أى جرح تعنين ؟

سلافة : جرح قلبي .
الخليفة : أتحبينه ؟
سلافة : أكذب ان قلت لا .
الخليفة : حتى على البعد ؟
سلافة : كما كنت على القرب (تبكى)
الخليفة (وهو يجفف لها دموعها بيديه) : ولكنى أحبك .
سلافة : وهأنذى بين يديك .
الخليفة : أنا لا أريد ذلك .
سلافة : وها هو جسدى بين ذراعيك .
الخليفة : ولا هذا أيضا .
سلافة : وها هى حياتى . اقض عليها ان أردت .
الخليفة : أريد قلبك .
سلافة : لست أملكه .
الخليفة (حانقا) : من يملكه اذن ؟
سلافة (سابحة) : الذى يأسو جراحاته .
الخليفة : وهل لا أستطيع ؟؟
سلافة : القلب يا مولاى ، كالزهرة ، لا يقطف مرتين .
الخليفة : أوهام .
سلافة : القول ، ما يقول المالك ، لا ما يقول المملوك .
الخليفة (متبرما) : أى مالك وأى مملوك ؟
سلافة : أنت المالك ، وأنا المملوك .
الخليفة : يريد المالك أن يكون مملوكا .
سلافة : وتريد الارض أن تكون سماء (تبكى) .
الخليفة : ألا يعوضك عنه شيئا ؟
سلافة (سابحة) هيهات !
الخليفة : ألا يعوضك هذا النعيم الذى أنت فيه .. هذه الدنيا التى تدين لك . هذا العرش الذى ينتظرك .. هذا المعبود الذى يريد أن يكون عابدا .. ألا يعوضك هذا كله .. ألا يسعدك ؟؟
سلافة : انه يشقينى .
الخليفة (جزعا) : يشقيك !

سلافة : ليس ماذكرت هو الحياة ·· ولا ·· الدنيا ·· ولا السعادة ·· أبدا ، ولا هو الملك ·
الخليفة : ماالدنيا اذن ايتها الفتاة ؟
سلافة (لنفسها) : قلبان يتحابان ·
الخليفة (جزعا) : والحياة !
سلافة : حبيبان يتلاقيان ·
الخليفة (مضطربا) وما السعادة ؟
سلافة : زوجان يتعانقان ·
الخليفة : وما الملك اذن ايتها الفتاة ؟
سلافة : بلا حب وهم تردده الشفاه ·
الخليفة (مأخوذا) : بلا حب وهم تردده الشفاه ·
سلافة : بل دنيا تعوزها الحياة ·
الخليفة (صارخا يحجب عينيه بيده) : اغربى عن وجهى أيتها المرأة ··· اغربى عن وجهى ··· انك تقتليننى ··· انك تقتليننى ·
سلافة (تخرج سريعا خائفة ترتعب)

« فجأة يظهر جعفر من خلف الستر »

الخليفة : أكنت هنا ؟
جعفر : وسمعت كل شىء يامولاى ·
الخليفة : وما الذى ترى ؟
جعفر : أن يقتل ذلك الاعرابى ·
الخليفة (دهشا) : ان يقتل ذلك الاعرابى !
جعفر : أجل ·
الخليفة : ولم ؟
جعفر : ليورق الزهر على غصنه ، ويرجع الطائر الى عشه
الخليفة : وضح لم أفهم شيئا ·
جعفر : طالما الكرم يامولاى، ينديه الغيث ، فدن الخمار ملآن
الخليفة : حتى ولو كان فارغا ؟
جعفر : حتى ولو كان فارغا ·
الخليفة : ومتى يفرغ ؟
جعفر : اذا امتنع الغيث ·
الخليفة (لنفسه) : أهكذا حال العشاق ؟

جعفر : سرابهم يامولاى ، البحر الخضم .
الخليفة : وما بحرهم اذن ؟
جعفر : كسرابهم ، آمال ، وأحلام .
والخليفة (مفكرا) : ولكنه الظلم ياجعفر .
جعفر : الظلم أن يتعذب مولانا الخليفة .
الخليفة (لنفسه يتلوى ألما) : انني أتعذب .
جعفر : وهذا هو الدواء .
الخليفة : أترى ؟
جعفر : وقد استدعيت حامل السيف .

« يمد يده الى احدى الستر ويزيحها فيظهر مسرور شاهرا سيفه وهو يدق الارض بقدميه » !

مسرور : أمر مولاى .
الخليفة (يصمت ولا يجيب)
جعفر : بأمر مولانا الخليفة ، تقطع رأس عامر بن سعد الجهمى ، نزيل السجن ، وتقدم رأسه الى سلافة على صينية من ذهب .
مسرور (وهو يدق الارض بقدميه منصرفا) أمر مولاى (يخرج)
الخليفة (يرتمى متهالكا على احدى الارائك ، يتصبب العرق من وجهه) .
جعفر : أيأذن لى مولاى ؟
الخليفة (متهدجا) : الى أين ؟
جعفر : الى كل مافيه سعادتك (ينصرف)

« تدخل سلافة مرتاعة زائغة العينين ، وما أن ترى الخليفة حتى ترتمى عند قدميه ، صارخة : »

سلافة : مولاى .
الخليفة (خائفا) : اغربى عن وجهى يامرأة .
سلافة : انني أضرع اليك .
الخليفة : قلت لك اغربى عن وجهى .
سلافة : انني أحبك .. اعبدك .. أتفانى فى الولاء اليك لك جسدى قطعه ان أردت ، لك روحى اقض عليها ان شئت
الخليفة : أريد قلبك .
سلافة : خذه اليك ، استله من بين جنبى ، فقط ابق على عامر

الخليفة : لقد سبق السيف العذل
سلافة : اى سيف • وأي عذل ؟
الخليفة : سيف ارادتي •
سلافة (مرتاعة) : مولاى ، ماذا أسمع ؟
الخليفة : ان الملوك اذا أرادوا شيئا ، نفذه القدر •
الخليفة (وهو ينظر الى عينيها الجميلتين) : أمرى لا يرد •
سلافة : حتى ولو كان ظلما ؟
الخليفة : حتى ولو كان ظلما
سلافة : حتى ولو كان جرما ؟
الخليفة : حتى ول وكان جرما •
سلافة : حتى ولو أغضب الله ؟
الخليفة (مضطربا) قلت لك أخرجي يا امرأة
سلافة (باكية تقبل قدميه) : مولاى •
الخليفة : لا رجعة لامرى •
سلافة : حتى ولو أحببتك ؟
الخليفة (وهو يدفعها عن قدميه) : حتى ولو كان حبك
سلافة (وكأنها تخاطب نفسها) : أحقا أن الملوك يامولاى اذا أمرت أمرا نفذه القدر ؟
الخليفة (وهو يهم بالانصراف) : أجل : نفذه القدر (يحاول أن ينصرف)
سلافة (وقد تعلقت بأذياله) : اذن فلى مطلب يسير ، بعده ينهمر الغيث •
الخليفة : أى غيث ؟
سلافة : غيث حبى •
الخليفة (فرحا) : اى مطلب تريدين ؟
سلافة : أن أراه قبل أن تقتله •
الخليفة : مطلب يسير (مناديا فى فرح) علي بمسرور

« يدخل مسرور شاهرا سيفه ويدق الارض بقدميه»

مسرور : أمر مولاى الخليفة •
الخليفة : على بعامر بن سعه الجهمى ، قبل أن تقطع راسه •
مسرور (وهو يدق الارض بقدميه منصرفا) : آمر مولاى •
(ينصرف)

سلافة (ذاهلة تنظر اليه) : أتصدق امرأة تحبك يا مولاى
الخليفة : وان لم أصدق من أحب ، فمن أصدق اذن ؟
سلافة : أحقيقة اذا أمرت الملوك أمرا نفذه القدر ؟
الخليفة : أجل .
سلافة : حتى ولو كان الوجود كله ؟
الخليفة : حتى ولو كان الوجود كله .
سلافة : ألا رجعة فيما أمرت ؟
الخليفة : ولو كان ما أمرت به هو عنقي .

« تغافل الخليفة وتمد أناملها المرتعشة الى عينيهـــا الجميلتين وتفقأهما فجأة »

سلافة (صارخة صرخة مدوية) : أي
الخليفة (مرتعبا ينظر الى فجوتين غائرتين في الوجه تسيل منها الدماء) يا الهي ماذا أرى ، ماذا فعلت ؟
سلافة (وهي تسقط على الارض تتوجع) : ألم تأمر بأن أراه قبل أن تقتله ؟
الخليفة (بأعلى صوته) : أجل . أجل ، أمرت بذلك .
سلافة (في صوت خافت وهي تتحسس بأناملها الـــدماء المنسابة من عينيها (: والان لن أراه .. فلن تقتله .

ســـــتار

حمار جحا

كان لجحا فيما مضى من الايام حمـــار من غير ذيل ، وكان جحا يحب هــــذا الحمـــار ويفضله على غيره من الحمر التى يقتنيها ، والتى سيقتنيها ، فقد كان جحا فى تلك الايام يحب اقتناء الحمير ، ويملك منها عددا كبيرا ، بيد أن حبه لهــــذا الحمار الذى لاذيل له ، كان عظيما يفوق كل وصف ، وكان جحا يتغنى بهذا الحب ، ويذكره فى كل مناسبة ، وكثـــيرا ما كان يصطحب حمــــاره هذا ، ويجلس معه على رأس الطريق الموصل للمدينة · ويروح ينظر اليه ، ويتحسس مكان ذيله المقطوع ويتغزل فيه · ويتغنى بحبه وحب هذا الحمار الذى بفضله وبفضل السر الذى يحمله ، أتاح الله لجحا الخير الكثير وقد لفت حب جحا لهذا الحمار نظر أهل المدينة، وأدهشـــهم وأثار فضولهم · ان يحب جحا هذا الحمار بالذات ، مع أنه يملك حمرا كثيرة غيره، تفوقه قوة وقدرة واحتمالا على المشاق وغير ذلك كله فلها ذيول جميلة تزينهـــــا ، ولذلك راحـــوا يتساءلون عن السر فى حب جحــــا لهذا الحمــــار بالذات· يتساءلون بينهم وبين أنفسهم حينا ، ويتساءلون بينهم وبين بعضهم حينا آخر، · ثم بينهم وبين جحا نفسه مرة أخرى ، ولكن عقولهم لم تهدهم الى شيء · وكذلك جحا لم يقــل لهم شيئا ، ولم يرح لهم بالا ، بل راح يمعن فى اثارتهم فيقص عليهم شتى القصص التى تثيرهم عن حبه لهــــذا الحمار ، وشغفه به ، واعزازه له · وكيف أنه لايهدأ ولا يسعد ولا ينام ، الا اذا رأى حماره هذا وجلس اليه طول النهار وأغلب الليل يلاعبه ، ويداعبه ، ويبثه فرحته التى تغمر

قلبه بامتلاكه له .. أما السر فى هذا الحب والباعث عليه والسبب فيه ، فكان جحا يخفيه عليهم ، ويقول لكل من يسأله « أن هذا السر هو الطلسم الذى شاء القدر أن يجعله وقفا على جحا وحماره . وقد عاهد جحا على ألا يذيع هذا السر . وحماره بطبيعة الحال لن يذيعه . الا اذا شاء الله أن تنطق الحمير وتتحدث الى الناس بما تخفيه الصدور .

وبذلك أثار جحا فضول أهل المدينة ، كما أثار سخطهم أيضا . فقد شغلهم أمر هذا السر شغلا عظيما . حتى أنهم أزمعوا فيما بينهم . أن يعرفوا هذا السر مهما كلفهم الامر .

وكان أن ذهبت جماعة من المدينة الى جحا ، وطلبت منه معرفة سر حبه لهذا الحمار الذى لاذيل له . لانه ان كان حقيقة كما فهموا ، انه باعث خير له . قطعوا هم ايضا ذيول حميرهم ليتيسر لهم ذلك الخير الذى تيسر لجحا . أما ان كان الحمار نفسه هو جالب الخير لمن يقتنيه . أسهم أهل المدينة جميعا فى شرائه . وأوقفوه على مدينتهم ، عساه يجلب لها الخير . ويدفع عنها هذا الكرب الذى تعيش فيه . ولكن جحا فطن الى مايرمون اليه ، فأمعن فى اثارتهم وراح يقص عليهم شتى القصص التى تفيض حبا منه لحماره . أما السر فى هذا الحب ، فهو كما قال لهم من قبل : « الطلسم الذى شاء القدر أن يجعله وقفا على جحا وحماره» وبذلك أثارهم جحامرة أخرى ثورة كبيرة . وغاظهم غيظا شديدا ، حتى أمست المدينة . وأصبحت فلا حديث لها الا جحا وحماره الذى لاذيل له ، ولما لم يجدوا حلا يريحهم من هذا العناء الشديد الذى أوقعهم فيه جحا . فكرت جماعة من أولى الرأى فى أمر يحل لها هذا الاشكال . وهو أن يسرقوا من جحا هذا الحمار ، ثم يخيروه فيما بعد بين الحمار نفسه ، وسره الذى يخفيه عنهم . وكان أن سرقوا الحمار من جحا ، واخفوه فى مكان بعيد ، ثم قالوا لجحا اذا أردت حمارك فقص علينا أمره. بيد أن جحا كان أكثر دهاء مما يظنون ، فلم يأبه بذلك ولم يحفل به . بل طرب له

طربا شديدا ، وراح يضحك ويمعن فى الضحك مسرورا كما كان يفعل قبل أن يسرق الحمار . وذهب الى نفس المكان الذى كان يجلس فيه الى حماره العزيز كل يوم . ويقول مبتهجا لكل من يسأله عن الحمار : «ان سرقة الحمار لاتعنيه ما دام يملك ذيله الذى فيه السر الاعظم ، وفيه أيضا الخـــير العميم الذى يريدون» وبذلك فوت عليهم جحا فرصتهم . ولمـــا لم يجدوا فائدة ترجى من وراء سرقة الحمار أعادوه اليه والحفيظة والموجدة تملآن قلوبهم .

وهكذا أحدثت هذه القصة فى المدينة لغطا كبيرا ، وكادت تؤدى الى مايشبه الفتنة فى المدينة . فقد انقسم النـــاس الى فريقين ، فريق يناصر جحا ويقول أنه صاحب الحمار ، وانه صاحب الحق فى ذيله ، ومن حقه أن يذيع سره أو لايذيعـــه، ومن حقه ايضا أن ينعم وحده بكل الخير الذى يجلبه له هذا الحمار ويحتفظ به لنفسه لا يشاركه فيه أحد ، ما دام أن الله أباح البيع . وأحل الشراء .. وأوقف الخير على من يشاء من عباده . وفريق آخر يقول : ان جحا شيخ من شيوخ المدينـــة له ما لاهلها ، وعليه ما عليهم ، فان أصاب القوم ضر فهو مصيبه وان أصابهم خير فهو مشترك فيه وما دام أن هذا الحمار كما يقول جحا جالب خير له . فلا بد أن تشترك المدينة فى هـــذا الخير . أما اذا أراد جحا أن يوقف هذا الخير عليه ، فعليه أن يخرج من المدينة ولا يكون من أبنائها .

وهكذا احتدم الخلاف بين الفريقين . وقضت المدينة أياما طويلة لاحديث لها الا جحا وحماره . وانعقدت الحلقات فى المساجد ، والخطب على المنابر وراحوا يقرعون الحجة بالحجة والبينة بالبينة . هذا يستبيح دم جحا ويستحل حمـــاره . وهذا يناصر جحا ويدفع عنه السوء . ولما احتدم الخلاف بين الفريقين وتفشت الفتنة . بلغ الامر الملك فاستدعى جحا اليه ولما مثل جحا بين يدى الملك تقدم خطوة ورجع أخرى ، ثم قبل يده الكريمة وقال على الفور :

ـ اسألني يامولاى عن كل شيء أجبك الا عن ذيل الحمار ٠
فقال الملك لجحا غاضبا :

ـ ولكنك تعلم أنني ما استدعيتك الا من أجل هذا ٠
ـ ولكني يا مولاى لا أستطيع أن أجيبك ٠
ـ انني آمرك ٠
ـ أمرك مطاع يامولاى الا في ذيل الحمار

فغضب الملك غضبا شديدا ٠ وأمر بقتل جحا ان لم يذع عليه سر هذا الحمار وقصة ذيله التي كادت تحدث الفتنة فى المدينة ولكن جحا أصر على موقفه ، وقال للملك مبتهجا دون أن تفارق الابتسامة شفتيه :

ـ اقتلني يامولاى ٠

وأدهش الملك أن جحا يفضل القتل على أن يذيع سر حماره وقال انه مجنون ٠

وأمر بزجه في السجن ثلاثة أيام حتى يثوب الى رشده ويرجع اليه صوابه ٠

وقضى جحا في السجن ثلاثة ايام ٠ وقضى الملك هذه الايام الثلاثة وهو يتحرق شوقا الى معرفة هذا السر الذى يضحى جحا من أجله بعنقه وأصر فيما بينه وبين نفسه على أن يعرف هذا السر مهما كلفه الامر ٠ حتى ولو كان ثمنه عنق جحا حقيقة ، وبعد الايام الثلاثة استدعى جحا اليه ، ولما مثل بين يديه ٠ ووجده ما زال عند رأيه ، استشاط الملك غضبا وغيظا وموجدة على جحا وحماره ٠ ولكنه كظم غيظه وقال لجحا ملاطفا:

ـ كيف ياجحا تضحى بعنقك من أجل ذيل حمار ؟
ـ انني أضحى بعنقى من أجل الملك ٠

فدهش الملك وجحظت عيناه وهو يقول :

ـ من أجلى أنا ؟
ـ أجل يامولاى ٠
ـ كيف ٠٠ وما علاقة الملك بهذا الحمار ياجحا ؟

فقال جحا والابتسامة التى لاتفارقه تتألق نورا على شفتيه:

ـ انني يامولاى ان قصصت عليك قصة ذيل الحمار ٠ ٠ ٠ فستصبح انت حمارا ٠

وعقدت المفاجأة لسان الملك ٠ وبهرت أنفاسه ٠ فنظر الى جحا مبهورا وقال :

ـ ماذا تقول ايها المجنون ؟

ـ أنا لم أقل شيئا يامولاى ، ولكن طلسم هذا الذيل ٠٠٠ وحافظ سره الاعظم هو الذى قال ٠

ـ قال انك لو قصصتها على الملك أصبح الملك حمارا ٠

ـ أجل يامولاى ٠

ـ وان قصصتها على غير الملك ؟

ـ أصبحت أنا ذلك الحمار ٠

فصاح الملك غاضبا :

ـ ومن أجل هذا لاتريد أن تقصها على احد ٠

فقال جحا ضاحكا :

ـ لانني يامولاى لا أريد أن أكون حمارا ٠

فكشف الملك عن غيظه، وقال صارخا ويده على مقبض سيفه :

ـ ولكنى آمرك

ـ بماذا يامولاى ؟

ـ بأن تقصها على غيرى والا قتلتك ٠

فضحك جحا وقال :

ـ انك بهذا القتل يامولاى تسدى الى حسنة كبيرة ٠

ـ اذن أنت تريد أن تموت ؟

ـ وهل يريد أحد أن يكون حمارا ٠٠ ومن غير ذيل ٠

وأسقط فى يد الملك وانتابته حيرة شديدة من هذا الذى يسمع ٠ ومن هذا الذى يقوله جحا ولا يتصوره العقل ،ولكنه بعد لحظات اهتدى الى شىء أراحه الى حد كبير ، وهو أن جحا غير جاد فيما يقول ٠ وانه قد انتحل للملك هـــذه الاكذوبة الكبرى حتى لايذيع سر هذا الحمار ٠ لانه من غير المعقـــول أن يصبح الانسان حمارا بمجرد أن تلقى عليه قصـــة من القصص ، وفطن جحا الى مايجول فى رأس الملك ، وأنه غـــير مصدق الى ما يسمع ، فنظر اليه مبتسما ثم قال له فجأة ولكن فى هدوء كبير :

ـ أتأذن لى يامولاى فى أن أقص عليك القصة ٠ ؟

فارتاع الملك وجحظت عيناه جحوظا كبيرا ، وسد أذنيه حتى لايسمع شيئا ٠ ثم بعد حين تحسس يديه ولسانه وعينيه ولما وجد نفسه انه مازال انسانا ، صاح فى جحا صيحة مدوية وهو يشيح بوجهه عنه :

ـ لاتقص على شيئا ٠ لاتقص على شيئا أطبق شفتيك والا هويت على عنقك بالسيف ٠

ثم التفت الملك هائجا وصاح فيمن حوله :

ـ ألقوا به فى غياهب السجن سبعة أيام كاملة ٠ وليتعذب عذابا شديدا ٠ ثم اقطعوا رقبته فى اليوم الثامن ٠ واحملوها على ظهر حماره ٠ وطوفوا بها فى انحاء المدينة ، جزاء له على ماأحدث فى البلاد من فتنة ٠

وهم جحا أن يقول للملك شيئا ، ولـكن الملك انصرف ثائرا هائجا كأنه الثور ٠ ومن ثم دلف الى جناحه يرغى ويزبد وقد تولاه رعب شديد ٠ وأمر أن لايقابل أحدا ٠ وأن لايقابله أحد ٠ وقضى تلك الايام لايغمض له جفن ، يفكر فى هذا الذى سمعه من جحا ٠ وفى حماره هذا الذى أحدث كل هذه الفتنة وسره الهائل الذى سيقلب الملك حمارا ٠ وما من شك فى أن جحا جاد غير عابث أو هازل ٠ لانه مامن أحد يتجرأ ويقول هذا للملك الا اذا كان مايقوله هو الحق ٠ وفكر الملك وأجهده التفكير ، أن أخشى مايخشاه أن يصبح حمارا فعلا ٠ وأن يكيد له جحا فيقص عليه القصة فى يوم من الايام ٠٠ وهو لو امتنع عن لقاء جحا حتى لايكيد له هذا الكيد العظيم ، أفيعجز جحا عن أن يتزيا بزى آخر ، ويقابل الملك ويلقى اليه بالقصة فيقع المحظور ؟ اذن هو يمتنع عن لقاء الناس جميعا حتى يخلص من هذا الشر ٠٠ ولكن أيمكن للملك أن يمتنع عن لقاء رعيتـه أو يمكن لانسان فى الوجود أن يعيش بغير الناس ٠٠ ؟ اذن فهو يقتل جحا ويخلص من هذا الاذى ٠٠ ولكن اذا قتل جحا فهل ستنتهى قصة هذا الحمار ؟ انه يقتل الحمار أيضا ٠٠٠ وبذلك ينتهى جحا وينتهى حماره ، وتنتهى بطبيعة الحال بانتهائها القصة نفسها ٠

واستصوب الملك هذا الرأى واطمأن اليه ، وشعر بهــذا الاطمئنان يغمره ويفيض عليه ويريح عقله المتعب راحة كبيرة بيد أن كل هذا سرعان ماتلاشى فجأة ٠ عندما قال الملك لنفسه ولكن القصة نفسها ليست فى جحا ، ولا هى ايضافى حماره وانما هى فى ذيل الحمار ، ان السر كل السر هو فى هــذا الذيل كما يقول جحا ٠ وذيل الحمار غير موجود ، وما من أحد فى الوجود يعرف مكانه غير جحا ٠ وجحا لن يفرط فيه ولن يقول على مكانه لاحد ٠ انه ولاشك يريد أن ينتقم لنفسه بعد موته ٠ وسينتقم له هذا الذى احتفظ جحا عنده بذيــل الحمار ٠ واذن فلن تنتهى القصة بموت جحا ولا بموت حماره وستظل قائمة بعد أن يموت جحا وينفق حماره ، واذن فالملك مهدد فى أى وقت بأن يغمض عينه ويفتحها فيجد نفسه حمارا

وأظلمت الدنيا فى وجه الملك ، وغم عليه ، وانتــابه دوار شديد ، وظل كذلك زمنا حتى سقط مغشيا عليه ، ولم تفارقه هذه الغشية التى حار فيها الاطباء ، كما حاروا فى نوع المرض العضال الذى أصيب به ٠

وأذيع فى المدينــــة أن الملــــك قد مرض ٠ ٠ ٠ وهب الناس فى المدينة يضرعون الى الله أن يشفى الملك ٠ ٠ ٠ ولكن الله لم يستجب لهذا الدعاء ٠ وظل الملك مريضا حتى ساء حاله واستبد به المرض ، وأشرف على الموت ، وأعلن فى المدينة أن الملك قد مرض مرضا خطيرا ٠ وليس من ســبيل الى شفائه الا ذيل حمار جحا ٠ واسرع الناس فى المدينــة يبحثون عن هذا الذيل فى كل مكان ٠ يبحثون عنه فى البيوت يدكون جدرانها دكا ٠ ويحفرون ارضها حفرا ٠ ويجوبون المزارع ويجففون الانهر والبحور ٠ ولما لم يجدوا له أثرا غاظهم ذلك غيظا شديدا وهبت جموعهم هائجة كالاسود الضــارية الى السجن الذى نزل به جحا والتفوا من حوله وحــاصروه حصارا شديدا ٠ مطالبين برأس جحا والتمثيل به جــزاء له على ما أصاب ملكهم من مكروه ٠

ونظر جحا الى جموعهم التى ترغى وتزبد وتطالب برأسه والى عيونهم الزائغة المجنونة ، وحرابهم المصوبة الى صدره ٠ وقال ضاحكا :

ــ أتريدون ذيل الحمار ؟

ــ اننا نريد شفاء الملك ياجحا .

ــ ليس من سبيل الى شفائه الا أن أقص عليه القصة .

ــ ولكنا لانريد لملكنا أن يصبح حمارا ياجحا .

ــ اذن أجمعوا أهل المدينة جميعا . نساء ورجالا وأطفالا واجلسوا الملك بينهم . ثم أقص عليه القصة . وبذلك لايصاب أحد منا بسوء . وتبقى لنا آدميتنا جميعا ، فلا نصبح حميرا بعد اليوم .

ــ ومن يضمن لنا هذا ياجحا ؟

فقال جحا :

ــ ذيل الحمار الذى سأمسك به فى يدى .

وما أن سمعوا بأن ذيل الحمار الذى أحدث فى المدينة كل هذه الفتنة سوف تراه عيونهم ، وان الملك لن يصيبه شر أو يناله أذى ، حتى هللوا وصفقوا وجمعوا جموعهم ، وخرج أهل المدينة جميعا . حتى الشيوخ والعجزة ، حتى الضرير والمقعد . فقد أذاع فيهم جحا أن كل من يتخلف عن سماع القصة ، فسيصبح هو ذلك الحمار . وجىء بالملك مريضا معتلاشاحب الوجه،وأجلسوه على سريره ووضعوه بينهم وما أن رأت الجماهير ذيل الحمار حتى خرت الى الله ساجدة شاكرة ، فقد أصدقهم جحا القول . كما ابتهج الملك وزايله المرض سريعا وجلس معتدلا فى سريره يغمره البشر . ومن ثم وقف قبالته جحا على ظهر حماره وفى يده ذيله . ولما هدأ صخب الجماهير وأصبح الناس وكأن على رؤوسهم الطير ابتسم جحا ، وراح يقص القصة فى هدوء . قال :

يقولون يامولاى أن قاضى القضاة كان يجوس ذات يوم خلال المدينة ، لينشر العدل بين الناس . ويثبت أقدام الحق ويقضى لكل ذى محتاج حاجته . ومر فى طريقه على خباز كان يصنع الخبز للناس . ورأى أمام التنور «وزه» قد انضجتها النار . واضفت عليها لونا ورديا جميلا يسيل له اللعاب . فنظر قاضى القضاة اليها بعينيه الكبيرتين اللتين تجيدان رؤية الاشياء . ولما تفحصها بعينه جيدا وعرفانها تسرالآكلين . تقدم من الخباز وهو يحوقل ويبسمل ويتلو آيات من الكتاب .

وسأله أن يبعث بهذه الاوزة الشهية الى البيت ، ففغر الخباز فاه . وقال خائفا مأخوذا وهو يتقدم خطوة ويرجع خطـــوة ويقبل يدى الشيخ الجليل :

ــ انها ياشيخ القضاة . لرجل من المدينة قد دعا عليهـــا جماعة من الاضياف .

فقال قاضي القضاة وهو يربت بيده الطاهرة على كتف الخباز:

ــ ان الخير يابني فيما اختاره الله . وقد جعل الله لكل شيء سببا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، وما تدرى أيضا أوزة بأى بطن تستقر .

فقال الخباز وهو لايزال يرتعد فزعا وخوفا في حضرة الشيخ:

ــ واذا ماسألنى عنها صاحبها ياشيخ القضاة فماذا أقول له؟

ــ قل له يابنى أنها طارت .

فقال الخباز دهشا جاحظ العين :

ــ وكيف تطير أوزة ياشيخ القضاة ، وهى مذبوحة قـــد أنضجتها النار ؟

فتبسم الشيخ ضاحكا وقال وهو يبسمل ويحوقل ويدس الاوزة تحت عباءته :

ــ ألا تدرى يابنى أن الله على كل شيء قدير .

وانصرف قاضى القضاة بالاوزة وجاء صاحبها الى الخبـــاز يطلب أوزته ، فقال له الخباز :

ان أوزتك يارجل قد طارت واذا أردتها فابحث عنهـــا فى احدى السموات السبع .

- فدهش الرجل مما يسمع وقال للخباز :

ــ وكيف تطير أوزة يارجل وقد ذبحتها بيدى ، وأدخلتها أنت النار بيديك ؟

فقال الخباز :

ــ وما العجب فى ذلك يارجل ؟ ألا تعلم بأن الله على كل شيء قدير !

وظن الرجل أن الخباز يسخر به . وانه قد طمع فى أوزته فسرقها منه . فثار وغضب وأمسك بالخباز ، وكان الخبـــاز أشد قوة من صاحبه . فأمسك به وراح يوسعه ضربا ، ومر عابر طريق وكان رجلا يهوديا . فتقدم من الاثنين ليفصـــل بينهما . فانهال عليه الخباز ضربا حتى فقأ له عينـــا . وعز

هذا على امرأة حامل كانت في الطريق فتقدمت لتشــهد على الخباز بأنه ضرب الرجل وفقأ عين صاحبه ، فاغتاظ الخبــاز غيظا شديدا وركلها بقدمه ركلة موجعة اجهضتها ، وتصادف أن مر شيخ على حماره ورأى بعيني رأسه كل هذا الذي حدث فأعلن أنه لن يكتم الشهادة فركض الخباز خلفه وأمســك بذيل حماره وجذبه اليه في قوة حتى قطعه ومن ثم انهــال بذيل الحمار على الشيخ فأوسعه ضربا ، وعلا صراخ النــاس وتجمع نفر من المدينة • وأمسكوا بالجميع وذهبــوا بهم الى قاضي القضاة ليفصل في الامر بينهم •

واستدعى قاضي القضاة صاحب الاوزة وسأله عن قضيته فقص عليه القصة • وكيف أن هذا الخباز المــاكر يدعي أن الحياة قد دبت في الاوزة من جديد • وانه رآها بعيني رأسه تخرج من التنور ، وتطير صاعدة الى السماء •

فقال له القاضي :

ـ ألا تعلم يارجل بأن الله على كل شيء قدير !

ـ أجل •

ـ وتعلم أن الله عز وجل قال في كتابه العزيز « واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطــير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا • ثم ادعهن يأتينك سعيا » • • •

فقال الرجل :

ـ اعلم ياشيخ القضاة •

فقال القاضي :

ـ ومن أجل انك تعلم حكمنا عليك بالسجن • • لانك لم تؤمن • ولانك ظلمت مؤمنا •

وما أن سمع صاحب الاوزة هذا حتى تنازل عن قضيتــه وخرج شاكرا للخباز أنه هو الاخر قد تنازل عن حقه •

ثم نظر القاضي الى الرجل الذي فقأ عينه وقال :

ـ أما وقد ثبت أن الخباز قد فقأ لك عينا • وأن عين رجل مؤمن ، بعيني رجل غير مؤمن • فقد حكمنا بأن يفقأ لك الخباز العين الثانية • لتفقأ انت له عينا واحدة •

فصاح الرجل خائفا :

ــ ابق لى عينى الثانية · ولن ترانى بعد اليوم ابدا ·

ثم انصرف يركض على عجل ، غير آسف على شىء

ثم تقدمت المرأة التى ركلها الخبـــاز فأجهضها ، فقصت شكواها على القاضى فاشفق عليه وقال :

ــ أما وقد ثبت يا امرأة أنهذا الخباز قدأفرغ ما فى بطنك وأن على الانسان أن يصلح ما أفسد · فقد حكمنا على الخبـاز بأن يخلو بك حتى يملأك ·

فصرخت المرأة صراخاشديدا وفرت هاربةمتنازلةعنشكواها

وما أن سمع صاحب الحمار الذى قطع ذيله هذا حتى لكز حماره لكزة قوية · وقال لحماره وهو يركض به هاربا :

ــ انج بنا ·· أزعر ·· أزعر ··

ثم أمسك بذيل حماره وراح يضرب الحمار به ·

وأقلع جحا عن الحديث· فنظراليهالملك شاحبامصفراوقال:

ــ وبعد ياجحا ؟

ــ فقال جحا :

ــ وبعد فقد انتهت القصة يامولاى ·

فتحسس الملك سريعا ، يديه ، ولسانه ، وعينيه ، ولما وجد نفسه أنه مازال كما هو · فرح فرحا شـــديدا وقال لجحا ساخرا :

ــ وماذافى هذه القصة ياجحاالتى أثرتنا بها كل هذهالثورة؟

فقال جحا ضاحكا ملء شدقيه وهو ينظر الى الجمـــاهير الغفيرة المحتشدة حول سرير الملك :

ــ فيها يامولاى انه لم يكن فى المدينة غير قاضى قضـــاة واحد · وهو الذى أصبح فيما بعد ملكا ·

الام جيزابيل



كنت اذ ذاك أقيم فى مدينة صغيرةفى الريف، وكنت أتردد على عيادة أحد الاطباء فى الاسكندرية ، وكنت بحكم المرض الذى أصابنى به القدر ، وأمر الطبيب الذى يعالجني، وكلاهما واحد فى مرارته ، فما أصاب القدر الا ليخطىء الطبيب ، وما أكثر مايخطىء هذا ليصيب ذاك • كنت بحكم ذلك أتردد على الاسكندرية ثلاث مرات فى الاسبوع ، وقد أرهقنى هذا كثيرا وحملنى مالا أطيق ، حتى ضاقت بى الحال ، وأظلمت الدنيا فى عينى ، وودت مخلصا لو اتخلص من هذه الحيـــاة التى نعيشها ، ولكن • ولست أدرى أهذا من سوء حظ الانســـان أم من توفيقه ، اننا نملك حق التصرف فى كل شىء ، الاالشىء الذى نملكه وهو حياتنا • حتى الذى ينتحر نفسه ، فهـــو لايملك هذا الحق الا اذا اعطى اليه ، وقلائل هم الذين تجود عليهم السماء بهذا الحق فتريحهم من عناء طويل ، وكما أن الحياة لاحيلة لنا فيها فكذلك المرض • وكذلك الطبيب ،الذى

هو عند المريض اله ، تواضع فعاش بين الناس •

وقدقرر الطبيب أن مدة علاجي ستزيد على ثلاثة أشهر، وعلى أن أتردد عليه ثلاث مرات في الاسبوع • وقد ضايقني هذا كثيرا والى حد كبير • لذلك فكرت في أن أستأجر لي مسكنا في الاسكندرية أقضي فيه المدة اللازمة لعلاجي ، وأجد فيه بعض الهدوء حتى لا أضايق الناس بمرضي ، أو أضايق نفسي بالناس اذا ما نزلت في فندق عام ، ولكن الطبيب وكانت تربطني به صلة قديمة أشار علي بأن أنزل عند الام جيزابيل التي يعرفها من زمن بعيد والتي عرفت بعطفها على نزلائها القلائل ، ورعايتها لهم وحدبها عليهم • وانني سوف أجد عند هذه الام الرءوم • ما أنشده من راحة وعناية وعطف • وقد اتصل الرجل بها تليفونيا وأوصاها خيرا بي ، لانني في حاجة الى هذا الخير منها ثم زاد بأن أعطاني بطاقة اليها ، دون عليها عنوانها، ثم بعض عبارات رقيقة أخرى • فشكرت له هذا الصنيع ، وانصرفت الى شارع معين في الرمل ، حيث نزل الام جيزيل ، وكان الوقت ليلا ، والطقس مكفهرا ، والعاصفة ينبعث زئيرها في الليل ، كما ينبعث زئير الاسود في الصحراء •• حتى ليخيل اليك أن الطبيعة قد جنت في تلك الليلة • ودلفت مكفكفا من السيارة التي أقلتني الى هناك ، ورحت أتلمس بقدمي الهزيلتين طريق المصعد • حيث الدور الرابع كما قال لي العنوان ، وما أن وقف بي المصعد حتى وجدت أمامي مباشرة بابا كبيرا مغلقا، وضعت على جانبه لافتة نحاسية صغيرة تحمل اسم الام جيزابيل •• فمددت يدي المريضة وضغطت على زر صغير كان بجانب اللافتة تماما ، فانفتح الباب رويدا ، على بهو صغير أنيق يكتنفه الصمت ، ويكتنفه أيضا ضوء شاحب ضئيل ينبعث من أباجورة صغيرة وضعت في أحد الاركان، فوق رأس تمثال من البرونز يمثل امرأة عارية ، فكانت الاباجورة الصفراء على رأسها أشبه بتاج من الذهب ، على رأس ملكة من الزنوج ، وكان الداء الذي أصابني قد عاودني فجأة، فشحب لوني ، وارتعش جسمي المتعب ، وراحت الحمى تأكل فيه ، كما تأكل النار في الشيء الهش • فألقيت بالحقيبة التي في يدي ، وارتميت على أول مقعد قابلني ، لاهث الانفاس ، وما أن اغمضت عيني

حتى غبت عن كل شيء ، كما هي العادة كلما عاودني الداء ٠ ولم أدر ما حدث بعد ذلك ، ولكنى فتحت عينى الملتهبتين بعد حين فوجدتني مسجى على فراش وثير ، وأمامي سيدة عجوز تنظر الى بعينى أم ٠ وقد أطبقت أناملها فى رفق على معصم يدى ٠ ووضعت يدها الثانية على جبهتي، ومن ثم راحت تنظر الى شيء ما تبينت فيما بعد أنه ساعة صغيرة كانت فى يدها ٠ فعاودت النظر اليها ثانية ٠ وحاولت أن أشكرها ، ولما عجزت عن تحريك شفتي ، نظرت اليها وشكرت لها فى صمت هذا الجميل ، وكأنها أحست بما يعتمل فى عيني ، وما توشوش به نظراتي اليها ، فانفرجت شفتاها عن ابتســـامة جميلة أضفت على وجهها كـــله اشراقة منورة ، وقالت وهي تربت بيدها على رأسي :

ـ اطمئن ، انك بخير ٠

ـ شكرا ٠

ـ فقط تأخذ ملعقة من هذا الدواء ٠

ـ أي دواء ؟

ـ الذى أشار به الطبيب ، فقد استدعيته ، وهـــو الذى طمأنني كثيرا ، فقط أشار بان تأخذ ملعقة من هذا الدواء عندما تستيقظ ٠

قالت ذلك، ثم مدت ذراعها الى كتفي وأنهضتني ، ثم جلست بجوارى بعد أن أسندت كتفي الى صدرها فى حنان كبير ، وأعطتني الدواء ، وما أن فعلت حتى طفرت الدموع من عيني وأنا انسان وحيد فى هذه الدنيا ، لا أب ، ولا أم ، ولا زوجة ولا أحد يعطف على ٠ لذلك فالحسنة الصغيرة كبيرة جدا في عيني يستروحها قلبي ويستشعرها فؤادى ، وتفيض على جوارحي فلا انساها ٠ لانها تنقلني الى شيء جديد كنت أجهله وأجهل أن له مكانا في نفوس الناس

وكما أن ابن السبيل لا تسعده قطعة النقود، بقدر ماتسعده رؤية اليد التي تمتد بها كذلك أسعدني أنني عرفت الام جيزابيل أكثر مما أسعدني الخير الكثير الذى تلقيته على يديها ، لذلك ما أن مرت أيام على اقامتي فى نزلها ، حتى غدونا وكأننا متعـارفان من زمن بعيد وكنت بحكم المرض لا أغـادر النزل الا الى الطبيب ثم أعود ثانية ، وكانت هى لاتخرج أبدا ، ولا تغادر بيتها الا

فى القليل النادر · وكانت كل لذتها ، أو كل حياتهـــا ، أن تستيقظ مبكرة جدا ، فتشرف على شئون نزلائهـا ، وكانوا قلائل ، فالغرف الخمس التى يتكون منها النزل ، يقطن ثلاثا منها بصفة دائمة، ثلاثة أشخاص جميعهم يشتركون فى السن التى تقدمت بهم ، ومتاعب الايام التى جمعت بينهم ، فالسيد العجوز هيرمان ، وهو فرنسى الاصل ، فقد زوجه وبناته الثلاث فى الحرب العالمية الاخيرة، اذ قذفت احدى الغواصات الالمانية السفينة التى كانت تقلهم الى مصر بطوربيد أودى بها الى قاع البحر ، لذلك فهو صامت دائما ، لايكلم أحدا ، ولا يكلمه أحد ولا تراه ان رأيته الا ساهما واجما يأتى مع الليل كل يوم الى غرفته ، ويغلقها عليه ، ثم يجلس الى زجاجة من الخمر ، حتى اذا ما أقبل الصبح ارتدى معطفه ، وهو من الفرو الثقيل ·· وقبعته السوداء الكبيرة ، وتناول عصاه الضخمه ، وذهب الى الشاطىء وجلس على حافته ، ومن ثم راح من خلف منظـاره الاسود السميك ، ينظر الى البحر ، ويتأمل زرقته فى هدوء حتى اذا أقبل الليل عاد الى المنزل ، واغلق غرفته عليه وجلس الى الزجاجة ·

وتقطن الغرفة الثانية ، السيدة «جيهان هانم» وهى تركية الاصل ، فى الحلقة السادسة من عمرها ، لا تفتح باب غرفتها أبدا ، الا مرة واحدة كل صباح ، لتسأل هل ورد اليها خطاب من استانبول ، ومع ذلك تقول الام جيزابيل ، أن لها ثلاث سنوات ، ولم يرد هذا الخطاب بعد · أما الغرفة الثالثة فقد كان يقطنها أيضا وبصفة دائمة ، ضابط روسى عجوز ، عاصر جميع الحروب وابلى بلاء حسنا فى حرب القرم حتى فقـــد ساقه وعينه اليمنى ، وهو لايخرج من غرفته أبدا ، ولا عمل له طوال اليوم سوى قراءة انباء العالم فى الصحف ، وجمع قصاصات هذه الانباء ، وتجليدها تجليدا أنيقا ·

ويقابل هذه الغرف الثلاث ، غرفتان أخريان ، احداهمـا فسيحة رحبة ، وان كان أحد لم يدخلها أو ير ما بداخلها وقد أسدلت الستر الغالية على نافذتيهاوبابها ، وهذههى غرفة الام جيزابيل ثم غرفةصغيرةمتواضعةهى التى أتيح لى أن أقطنها ولا يفصلها عن غرفة الام جيزابيل سوى ممر صغير ، يوصل الى البابين

وفى نهاية الممر مقعد وثير من الجلد، تجلس اليه الام جيزابيل طوال النهار وأغلب الليل ،منكفئة على ابرتها فى هدوء عجيب وكانت ماهرة فى هذه الصناعة الى حد كبير ، حتى أن جميع ستر البيت ومفارشه ، من صنع يديها ، كما حدثتني بذلك فيما بعد ، وكانت هى الاخرى تحب العزلة ، وتميل دائما اليها فتجلس الى ابرتها هذه الساعات الطوال،والطوال جدا، دون أن تحرك شفة أو ترفع رأسها . وكنت أختلس النظر اليهـا من باب غرفتي . وهى فى جلستها هذه ، والاباجورة الصغيرة ترسل ضوءها الهادىء على وجهها الابيض الصامت الذى ما زالت بـه مسحة من جمال قديم تثير فضولك ، وتجعلك ترجع الى الماضى البعيد ، الى أربعين سنة مثلا ، أيام أن كان هذا الوجـه فى عنفوان فتنته وجماله .. كان وجهها فى مجموعه أشـبه بمصباح جميل دقيق الصنع ، ولكنه منطفيء ، ترى زجاجه الشفاف ، وقد علق به بعض الغبار الذى يطبعه الضوء القوى على الزجاج عندما يتوهج النور فى قلبه . وكما أن هذا الغبار هو الذى يدل على الضـوء الذى كان . كذلك تكون بعض التجعدات فى الوجه الجميل ، وكذلك يكون بعض السواد على الشفاه ، فهو لايشير الى القبح كما هى العادة ، وانما يشير الى أن هنا كانت جذوة تتقد من أربعين عاما . وكذلك أيضـا يكون الشعر الجعد الذى تحوله الايام الى كتلة من الثلج .. تظل ترسل برودتها على جبين يرتعش ، كان فيما مضى يشع بنوره الدفء فى العيون .

كنت أنظر الى هذا كله وأتأمله فى صمت ، ثم انظـر الى عينيها الجميلتين ، وما ترسلان من نظـرات شاحبة تتركز من حين الى آخر على صورة صغيرة فى اطار أنيق ، ثبتت على الحائط الذى يقابل المقعد الذى تجلس اليه ، كانت الصورة لفتى جميل فى عنفوان الشباب ونضارة الصبـا ... كانت هذه النظرة التى تتركز على الصورة من حين الى حـين ، ثم لاترتد عنها الا وفى العين بعض الدموع، هى التى تهز أعصابى هزا عنيفا وتثيرنى الى حد كبير ، فالنظرة دائما ساهمة واجمة حزينة كأنها نظرة الوداع الاخير . وكثيرا ما كنت أرقب الام جيزابيل ، فأراها تنظر الى الصورة وتتأملها حتى لكأنها تسر

اليها شيئا بعينها • وتظل كذلك طوال جلستهـــا ، حتى اذا ماحان موعد نومها جمعت خيطها وابرتها وأطفأت الاباجـورة ونهضت الى الصورة وانتزعتها من الحائط وتأملتهـــا حتى لكأنها لم ترها من قبل ، ثم تطبع عليها قبلة طويلة صامتة • ثم تضعها في رفق في حقيبة الخيط ، وتنصرف بها الى غرفتها حتى اذا ماكان الصباح عادت الى خيطها ومقعدها بعد أن تكون قد ثبتت الصورة في مكانها

وهكـــذا كانت تفعــــل كــــل يـــوم حتى أنني فكرت ذات مرة أن أســـألها عن صاحب هذه الصـــورة • • ولكنى لم أجرؤ ، وظللت كذلك الى أن تشجعت مرة ، وسألتها متجاهلا كل شيء ، وهي تدخل على غرفتي ذات صباح وقلت :

ــ لقد استيقظت مبكرا هذا الصباح وخرجت الى الممر • • فلم اجد الصورة الصغيرة أمام مقعدك كالعادة •

فنظرت الى وافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة وقالت :

ــ وما الذى يهمك فى الامر ؟

فشعرت ببعض الحرج ولكنى قلت :

ــ انها مجرد ملاحظة •

فقالت وهى تبتسم ابتسامة من تمر بخاطره ذكرى جميلة :

ــ انها صورة ابنى روبير • وقد تعـــودت منـــذ أن مـــاته أن أحتفظ بها معى دائما •

ولذلك فأنت لاتراها فى مكانها الا اذا رأيتنى معها •

ثم جرنا هذا الحديث القصير الى أحـــاديث قصـــيرة أخرى عرفت منها أشياء كثيرة عن الام جيزابيل ، وعن ابنها الـــذى فقدته ، وكيف أنه كان وحيدها فى الدنيا وذخيرتها فى الحياة وكيف كانت الامال التى تعقدها عليه ، والخـــير الذى كانت ترجوه منه ، ولكن الموت أبى الا أن يسطو على شبابه عنـــوة ويختطفه من أحضانها اختطافا ، وهو لما يزل بعد فى نضارة الصبا وعنفوان الشباب •

قالت لى الام جيزابيل هذا ، ثم أرادت أن تقول لى شـــيئا آخر ، ولكن الدموع خنقتها فأقلعت عن الحديث ، وظلت من حين الى آخر تذرف بعض الدموع فى صمت ، كمـــا تختلس النظر الى الصورة في صمت ايضا ، فأشفقت عليها ، وتألمت كثيرا لهذه الامومة التى تيتمت منذ ثلاثين عاما أو تزيد وظلت

آلامي هذه تزداد يوما بعد يوم. ولا سيما كلما رأيتها مصادفة أو غير مصادفة تنظر الى الصورة ، الى أن مرضت الام جيزابيل ذات يوم أثر نوبة برد حادة أصابتها كالعادة وسألتعنها الخادم ولم أرها في الممر جالسة الى ابرتها كالعادة وسألت عنها الخادم الصغيرة فأخبرتني انها ملازمة الفراش ، فأرسلت لها تحيتي مع الخادم . لان الام جيزابيل كانت لاتسمح لاحد أيا كان بأن يدخل غرفتها ، غير أنه حدث في المساء ، وكانت الخادم قد انصرفت لتبيت في دارها حيث تعودت ذلك . وخلا المنزل من كل شيء . وران عليه صمت مطبق موحش لايشوبه سوى دقات الساعة المعلقة في البهو . ان داخلني شعور بأن الام جيزابيل قد تكون في حاجة الى شيء فعلا . فذهبت الى غرفتها ووقفت خلف بابها وناديت ، وما أن سمعت صوتي حتى أذنت لي بفتح الباب . وكانت مفاجأة أن تأذن لي بذلك . ففتحت الباب وما أن رأت وجهي حتى طلبت مني في صوت خفيض مرتعش أن أصنع لها كوبا من الشاي . فقفلت راجعا وصنعته لها سريعا . وقدمته اليها وهي في الفراش مع قرص من الاسبرين كان على مائدة صغيرة بجانب السرير .

وكانت هذه أول مرة أرى فيها غرفتها . لذلك أدهشني جدا ما رأيت فقد كانت الغرفة في مجموعها منسقة تنسيقا جميلا رائعا يلفت النظر ، اذ كل مافيها يدعو الى البهجة والروعة معا ، حتى ليخيل اليك أنها غرفة عروس في ليلة زفافها ، فالسرير الكبير تحف به الطنافس الغالية والستر الحريرية الثمينة ، كما تزينه عدة ثريات صغيرة وكبيرة ذات ألوان متعددة، والصوان الكبير تجمله عدة تماثيل رائعة من البرونز تمثل كيوبيد الصغير يطلق سهامه وكذلك المرآة الكبيرة المجلوة التي وضعت بجانب السرير وصفت عليها أدوات الزينة الفاخرة المتعددة الالوان والاصناف . وكان هذا كله بطبيعة الحال يدعو الى شيء من الدهشة . لذلك رحت في فضول كبير أتطلع اليه والى غيره من محتويات المخدع الجميل . وبينا أنا كذلك لفت نظري شيء غريب آخر . فقد رأيت صورة غريبة في اطار رائع دقيق الصنع من خشب الابانوس ، يزين الغطاء خفيف جدا من الحرير الاخضر الذي تلتمع تحته بعض الثريات

الصغيرة ، فتضفي عليه لونا غريبا . ويمسك هذه الصورة الكبيرة الى الحائط مخلب طائر كبير نشر جناحيه على الصورة وكأنه يحتضنها . ثم مال عنقه الطويل عليها ، فتدلى من ثغره مصباح أزرق دقيق ، راح يرسل ضوءه القوي على الصورة فيحيلها الى مايشبه الشيء الذي يتوهج تحت الشمس ونظرت الى الصورة ودققت في معالمها فلم أر شيئا في أول الامر .. فعدت ودققت فيها مرة أخرى، ثم مرة ثالثة ورابعة حتى وضحت معالمها شيئا فشيئا ، ورأيت صورة روبير بوجهه الفاتن الجميل وشعره الناعم المتهدل على فوديه ، مسجى على فراش أبيض . وأمامه فتاة رائعة الحسن ، وقفت حافية القدمين عارية الجسم الا من شعرها الطويل المرسل على نحـــرها وكتفيها ، وثوب خفيف للرقص ، تزينه عدة قرنفلات حول الخصر ، وتجملـــه وردتان كبيرتان على الصدر، وقد مدت يدها الى روبير فانعقدت اليدان تحت منديل أبيض ، وقد وقف بين الاثنـين قسيس عجوز مرسل اللحية . ينظر الى الاثنين نظرات حزينة متهافتة وكأنه يتلو شيئا .

نظرت الى هذا كله وتأملته طويلا في صمت ودهشة عقدت لساني . وظللت كذلك مأخوذا أنظر الى الصورة التي أمامي الى أن تحركت بجواري في الفراش الام جيزابيل وطلبت مني ان أسند رأسها المتعب الى الوسادة ، ففعلت . ولما استراحت قليلا نظرت الي وشكرتني في صوت محمـــوم يرتعش ، ثم قالت وهي تنظر الى عيني المثبتتين على الصورة :

ــ فيم تفكر ؟

ــ في هذا الشيء الغريب الذي أراه .

فقالت وهي تريح رأسها مرة أخرى على الوسادة :

ــ ليس في هذه الدنيا شيء غريب الا وجودنا فيها .

وخشيت أن يتطرق بنا مثل هذا الحديث كما هي العادة فيبعدنا عن الصورة التي مازالت عيني عليها فقلت :

ــ أقصد هذه الصورة الغريبة في وضعها .

ــ أبدا لم يكن فيها شيء غريب . انها صورة روبير وهو على فراش الموت .

قالت هذا وصمتت قليلا ، ثم بعد أن استردت أنفاســـها

المتعبة ، تمتمت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ ألم أقل لك أن لروبير قصة ؟

وكنت لا أعرف ان لروبير قصة ، غير أن الموت فاجأه وهو في ريعان الشباب ، لذلك التفت اليها وقلت :

ـ وهل أطمع في أن يكون لروبير شقيق ثان ، فتقص الام على ابنها المريض قصة ابنها الذى مات ٠

فمدت الام جيزابيل يدها المرتعشة التي تلهبها الحمى الى يدى ، وضغطت عليها في حنان كبير ٠٠ ثم قالت ويدها لاتزال في يدى ، ونظراتها على الصورة وكأنها تراها لاول مرة :

ـ كان روبير اذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره ، وكان طالبا في الجامعة ، ينشد العلم والمعرفة كغيره من الطلاب ، ولكن ذكاءه المفرط اللماح كان يميزه عن غيره ، كما كان يميزه ايضا جماله وفتنته الرائعة التى لم تتوافر لغيره من الشباب الذين هم في مثل سنه ، وكان ينحدر من أسرة عريقة في الريف ٠ انقرضت جميعا أو كادت ، ولم يبق منها سوى روبير يحمل اسمها ، ويحفظ مجدها ٠ ولذلك فأنت لاتراه الا رجلا دائما قد فات سنه بزمن بعيد ، ينفرد بنفسه دائما ، حتى اذاما حملها ما لاتطيق ٠ ويطيق شبابها الثائر ، تركها وانفرد بكتاب يقرؤه أو درس يستذكره ، أو محاضرة يجلس يستمع اليها في صمت ومثل روبير كان لابد أن يكون حديث الطلاب في الجامعة ٠٠ الطلبة يتحدثون عنه وعن ذكائه المفرط الذى كان يدهشهم كثيرا ، والطالبات يتحدثن عن جماله الرائع ٠٠ وفتنته هذه التي تطالعك في الصورة كنوارة الزهرة عندما تغمرها انفاس الربيع فتتفتح عن شيء جميل يبهجنا ، وكانت هي الى ما بعد التحاقها في الجامعة بعام لم تره ، ولم تسمع عنه شيئا ٠٠٠ اللهم الا بعض الاحاديث العابرة ٠ التي كانت تحس قلوب أترابها تهمس بها ، أو ترى عيونهن تتحدث عنها ، ومع ذلك لم تفكر يوما في أن تقطع ذلك الممر القصير الذى يفصل بين كليتى العلوم والحقوق لتراه ٠ الى أن انقضى العام الدراسى ، واختيرت هى بالذات دون فتيات الجامعة على كثرتهن لتمثل دور ـ سالومى ـ التى ترقص عارية أمام الملك هيرود ، لتقدم رأس يوحنا على طبق من أطباق الملك كما جاء في بعض النصوص

وذلك في الحفلة الساهرة التي اعتادت الجامعة أن تقيمهـا في نهاية كل عام دراسي • وأقيمت الحفلة ونجحت سالومي نجاحا رائعا في رقصتها ، حتى ألهبت آلاف الاكف التي راحت تصفق لها • غير أن شيئا ما ألهاها عن هذا النجاح كله ، وألهاها أيضا عن ذلك الدوي الذي كان ينبعث من الاكف كالرعد اعجـابا؛ وتقديرا لها •

ذلك أن يدا تقدمت لها وهي على المسرح وشدت على يدها بحرارة •• وما أن رأت وجه صاحب تلك اليد التي تضغط على يدها حتى وقفت مبهورة تهتف من أعماقها دون ريث أو أناة قائلة : « أأنت فتى كلية العلوم » فأغضى الفتى حياء ، وتمتم وهو يسحب يده من يدها في رفق يشبه الادب :

« أجل •• روبير اندريه » •

ولم تدر الفتاة ماذا حدث لها بعد ذلك ، ولكن الشيء الذي تدريه ، وتدريه جيدا جدا • لانها عاشت فيه بعد ذلك طوال حياتها ، هو انها أحبت روبير ، وان روبير أحبها • وان ذكرى حفلة الجامعة ، ورقصة سالومي ، والثوب الذي رآها أول ما رآها ترقص فيه • كل ذلك كان كتاب حبهما الخالد الذي حفظا صفحاته صفحة صفحة ، حتى انتهى بهما الـكتاب الى اعلان خطبتهما ، وان كانا قد أرجآ العقد والزفاف الى ما بعد عام حتى تنتهي دراستهما في الجامعة وانقضى العام فعلا •

وانقضى سريعا كما كانا ينتظران ، وأتيح النجاح للاثنين فتخرجت هي في كلية الحقوق، كما تخرج هو في كلية العلوم وكان روبير أسعد ما يكون بذلك كله ، بالعام الذي انقضى ، والنجاح الذي أتى ، والزواج الذي سيكون •

غير أنه ذات ليلة وكان ذلك قبل الزفاف بأيام معدودات ، وكان روبير لايزال يقطن النزل الذي كان يقطنه أيام الدراسة والفتاة تقطن غرفتها المتواضعة التي استأجرتها في حي الطلبة منذ أن التحقت بالجامعة • حدث أن دق جرس غرفتها عنـد منتصف الليل، وانساب رنينه في أذنيها مزعجا على غير العادة فهبت من فراشها مذعورة ، وما أن فتحت الباب ، حتى رأته أمامها شيخا عجوزا قد انسابت دموعه على لحيته البيضـاء المسترسلة حتى عششت عليها الدموع كمـا تعشش أنداء

الليل على خيوط العناكب ، وترسم عليها تلك الخيوط المائية المتعددة • وما أن رآها الشيخ حتى مد لها يده المرتعشة •• وأمسك بكتفها وكأنه يريد أن يسندها اليه ، ثم أخرج ورقة صغيرة من جيب صديريته السوداء المبللة • ولما قرأ العنوان • وتأكد من اسم الفتاة ، تمتم بشفتيه المقرورتين وقال :

ـ ان روبير يموت ، وهو يريد أن يراك •

وتعلقت نظرات الفتاة بالشيخ ، كما يتعلق الانسان بربه، وسألته أن يقول شيئا آخر ، وأشفق الشيخ على الفتاة ، ثم عاد وأشفق على نفسه ، وهو يلهث خلف فتاة صغيرة تركض في الليل حافية القدمين ، ممزقة الثياب ، تصرخ وتعول •

أقبلت الفتاة على غرفة روبير فرأته مسجى على الفراش • ومن حوله ثلاثة من الاطباء أقبلوا سريعا لاسعافه في الليل ، فارتمت عليه وهمت أن تحتضنه •• ولكن أحد الاطباء حملها في رفق الى غرفة مجاورة •• ثم أفهمها الحقيقة ، وهى أن روبير أصيب فجأة بانفجار فى المخ •

ونظرت الفتاة الصغيرة الى الطبيب وسألته ، ولكن فى هدوء عجيب :

ـ اذن سيموت ؟

فقال الطبيب والالم يكاد يمزق صدره :

ـ أجل بعد ساعات •

فجففت الفتاة دموعها ، وتسللت خلسة من النزل ، دون أن يراها أحد • ولكنها لم تمكث غير بعيد حتى عادت ، ولكن فى وضع غريب أثار دهشة الاطباء ، والنزلاء جميعا الذين التفوا حول سرير المريض الذى يموت •• فقد عادت الفتاة وهى فى أبهى زينة لها • عارية الجسم الا من ثوب خفيف للرقص • هو الذى كانت ترقص فيه سالومى للملك لتقدم له رأس يوحنا على طبق من أطباقه ، ثم تقدمت من السرير وتناولت يد المريض • وطلبت من القسيس الذى أحضرته معها أن يعقد لها عليه ، فقد كانت أعز أمانى روبير أن يعقد عليها وأن يراها ليلة الزفاف فى ثوب الرقص الذى رآها أول مارآها فيه •• وكان أن عقدت عليه ، وكان أيضا أن ظلت ثلاث ساعات كاملة ترقص له أمام السرير ، وهو مفتح العينين ،

ينظر اليها ٠٠ وينظر ٠٠ وينظر ، الى أن أغمض عينيه ٠

وما أن بلغت الام جيزابيل هذا الحد من الحديث ، حتى كانت الدموع قد غمرت وجهها ، فصمتت وأقلعت عن الحديث. ولست أدرى لماذا بعد هذا الحديث ، أحسست أن شيئا ما أصبح يربطني بالام جيزابيل ٠ وان خيطا رفيعا لايكاد يرى، يعقد بيننا ، كما يعقد البؤس أحيانا بخيطه الرفيع بين صنفين من الناس ، تشابهت حياتهما ، فقد شعرت بأن اشفاقى عليها وألمى لها ، قد تحولا الى حب كبير ، حب يجعل من حقى أن أصنع معها كل ماأريد أنا ، لاكل ماتريد هي ، لذلك لم أصغ اليها عندما طلبت منى أن انصرف الى غرفتي لاستريح ومكثت في غرفتها الى منتصف الليل وصنعت لها كوبا آخر من الشاى وأعطيتها قرصا ثانيا من الاسبرين ، كما ملأت لها الكيس الجلد بالماء الساخن ووضعته عند قدميها ٠ ثم لما هدأت نفسها شيئا ، وتلاشت عن وجهها تلك الخطوط السوداء التي كانت قد ارتسمت عليه أثناء الحديث ٠٠ وأحسست بأن جسدها المتعب، قد استراح الى الدفء، سحبت عليها الغطاء وانصرفت الى غرفتي ، وأنا غير مبتئس أو حزين ٠ فما وجدت مثل الشقاء الحقيقى ، ينظف النفس ويطهرها ، ويحيلها الى ذلك الهدوء الروحى الذى نستشعره عندما نكون في المعبد نصلى ونتعبد ٠

بيد أنه حدث عند الفجر — وكنت لم أنم بعد — أن أحسست حركة في غرفة الام جيزابيل ، فظننت انها في حاجة الى شيء كأن تصنع كوبا آخر من الشاى أو تغير الماء الساخن فتسللت من الفراش سريعا ، وما أن أقبلت على باب غرفتها ، ودفعته دون استئذان ، حتى رأيت شيئا غريبا لم أكن لاتصور أبدا أنني سأراه ٠

فقد رأيت الام جيزابيل حافية القدمين عارية الجسم الا من ثوب خفيف للرقص تزينه عدة قرنفلات حول الخصر وتجمله وردتان كبيرتان على الصدر ٠٠ وكانت ترقص ٠

ميرفت هانم



من المضايقات التى تثقل على حياتى وتسبب لى أحيانا متاعب عديدة ، مرض ضعف الذاكرة الذى أصبت به أخيرا فالموعد الذى أحرص عليه ، وأدونه فى كل شىء ، فى الاجندة وعلى علبة السجاير ، وفى بطاقة أضعها فى مكان بارز من حافظة نقودى ، هو الموعد الذى لا أفى به ، ولا أذكره الا بعد تاريخه بيومين ان لم يكن أكثر، وهذا يسبب لى آلاما ، وضياع منافع كثيرة • ولكن تعزيتى فى ذلك هى أن غيرى ممن أصيبوا بهذا الداء • هم أشد منى مرضا به ، وأكثر متاعب وآلاما ، لهم ولغيرهم من الناس فكثيرا ما أكون فى الطريق ثم يرانى شخص ما ، فيهرع الى ويشد على يدى ويصافحنى فى حرارة وشوق وهو يتفرس فى وجهى • ثم فجأة يسحب يده سريعا وهو يقول :

متأسف ، حسبتك أحمد افندى ••• والذى يغيظ فى ذلك هو أن يكون اسمك فعلا احمد افندى ، كما هو الحال معى ،

والذى يغيظك أكثر هو تفكيرك فى أحمد افندى هذا سميك وشبيهك ، وأذكر ذات مرة انني كنت في الطريق ، فاذا بسيارة تقف أمامى ويهبط منها رجل وقور ، أسرع الى متلهفا ... وصافحني في شوق ، ولكنه ما أن فتح عينيه جيدا ، ونظر الى وجهى من خلف منظاره السميك ، حتى سحب يده من يدى وهو يقول فى خجل :

ــ متأسف حسبتك احمد افندى .

وأثارني هذا وضايقني . فقلت له على الفور مغتاظا :

ــ أنا احمد افندى .

فازداد خجل الرجل وقال وهو ينظر فى وجهى مرة ثانية:

ــ معذرة قصدت احمد افندى آخر ، وانصرف فاشفقت عليه من هذا المرض .

... ومنذ أيام كنت أسير في الممر التجارى، وكان الزحام على أشده ، فاذا بسيدة بارعة الحسن ، رائعة الجمال ، تقبل على كما يقبل شذى العطر متضوعا من بعيد، وهلت على مشرقة الوجه متهللة المحيا ، ومدت الى يدا يزينها الذهب والماس الثمين ، وشدت على يدى في رفق وحنان كاد يذوب له قلبى وصافحتنى فى حرارة مشبوبة ، فبلعت ريقى ، وانتظرت حتى تسحب يدها من يدى وهى تقول : متأسفة حسبتك أحمد افندى .. ولكنها لم تفعل ، ولم تقل بل تركت يدى وتأبطت ذراعى ، وسارت بجانبى وسط الزحام مرحة كما لو كنا صديقين حميمين أو زوجين مؤتلفين . فارتبكت ارتباكا شديدا ونظرت الى وجهها الفاتن وجمالها الذى بهرنى وشعرت بحسرة كبيرة لاننى لم أكن أحمد افندى حقيقة وقلت فى نفسى ماذا يضر لو تركتها (على عماها) الى أن يقضى الله بيننا أمرا ولكنى عدت فاستصوبت أن ألفت نظرها فى أدب الى أننى لست احمد افندى . ورجحت عندى هذه الفكرة الاخيرة ، وهممت أن ألفت نظرها الى الحقيقة ولكن بسمة حلوة أرسلتها فجأة فومضت فى قلبى وأثارته جعلتنى أحس بمعنى الجمال وفتنة الانوثة وصخب الشباب وحرارته المتدفقة فزممت شفتى سريعا وقلت لنفسى : فالآمد فى عمر هذا النعيم خطوات وكأنها أحست بما يجول فى خاطرى فالتفتت الى ضاحكة

وقالت وهي تنظر الى وجهي وتتأمله كأنها تتحسسه بعينيها الجميلتين : «ازيك ياأحمد» ، ولم أدر حتى الان على وجه التحقيق هل رددت عليها هذه التحية أم لا ، لان الفرحة التى أحسستها عندماذكرت اسمي وذكرته مجردا كانت‌قد غمرتني وفاضت على حتى أنستني كل ماعداها • بيد أن هذه الفرحة سرعان ماتلاشت فجأة عندما تذكرت احمد افندي الاخر • وقلت لنفسي : ومن يدري لعلها تقصده ، وأثار هذا الاحساس في نفسي ثورة كبيرة فالتفت اليها وهممت أن أقول لها شيئا بيد انها كانت قد سبقتني قائلة، وما زال السرور ملء اهابها:

ـ متى عدت من السفر ؟

فأسقط في يدي وتلعثمت قليلا بيد أني تذكرت فجـأة سفري الى الاسكندرية وعودتي من أيام ، فقلت على الفور :

ـ عدت من ثلاثة أيام •

فقالت ضاحكة نفس الضحكة التي مازال وميضها يشع نورا في عيني :

ـ أقصد متى عدت من أوربا ؟

وهنا حط طائري وهدأت نفسي، وعلت وجهي تلك الاشراقة التى تغمرنا عندما تبعث الينا السماء بخير عظيم، فقد كنت فى أوربا فعلا • ولذلك تأبطت أنا ذراعها وقلت وأنا أتحسسها بأصابعي وكأنني أتحسس قلبي الذى بين جنبي :

ـ عدت منذ عام •

ـ وكم مكثت هناك ؟

ـ سبع سنوات •

فقالت وكأنها تأسف على شيء :

ـ سبع سنوات ومن قبلها عشر لم أرك •

وكنا قد قطعنا الممر ، وخرجنا الى شارع عـدلي ففتحت حقيبتها وأخرجت مفتاحا صغيرا ثم وقفت أمام سيارة فخمة كبيرة ، وقفت الى جانب الطريق كما تقف الدنيا الى جـانب انسان ، وقالت بعد أن فتحت بابها واستقرت أمام عجـلة القيادة ••

ـ لولا اني «معزومة» على الغداء لما تركتك ، فمتى‌ستحضر الى وكأنها قرأت شيئا في عيني فعقبت ضاحكة وهي تعـابث

يدى بأصابعها الرقيقة :

ــ لعلك لم تعرفنى بعد ، وفى هذا ما يضايقك وانا أحب أن أريحك ولكنى أحب ايضا أن أتعبك قليلا من أجلى ، ولذلك فأنا أرجىء ماتريد الى أن تزورنى فى بيتى ·

وفتحت حقيبتها مرة ثانية واخرجت «أجندة» صغيرة بلون الذهب ثم قلما ثمينا من الذهب الخالص وكتبت لى عنوانها على ورقة صغيرة ثم رقم تليفونها ثم نمرة أخرى أفهمتنى انها سرية ، ثم تواعدنا على اللقاء فى بيتها مساء اليوم التالى ·· وانطلقت بسيارتها الفخمة تلوح لى بيدها الجميلة حتى غابت فى زحمة الناس ، كما يغيب النور المتألق فى زحمة الظـــلام فانصرفت تغمرنى فرحة لاعهد لى بها ، وتفيض على ســعادة خالصة أشعرتنى بمعنى الحياة، وجعلتنى أحس بأننى انسان آخر يعيش ويطرب ، ويضحك ، ويريد من الحياة كل شىء ، وعجبت من نفسى ومن الناس ولماذا لانعيش سعداء دائما ، ونطرح عن أنفسنا ذلك الشقاء ، وتلك المحن ، ما دامت فى الحياة هذه المصادفات الجميلة ، وما دامت السماء تلقى الينا فى الطريق بمثل هذه الكنوز الغالية التى تحيل حياتنا الى سعادة دائمة وهناء مقيم ، وشعرت برغبة شـــــديدة فى أن اعيش فى ذلك اليوم ، فضـحكت وتريضت ، وزرت بعض الاصدقاء ، وذهبت الى السينما ، واشتريت بعض الكتب ، ولما لم يبق شىء ذهبت الى بيتى فرحـا مسرورا ، وأويت الى فراشى خفيفا رشيقا ، كما يأوى العصفور الى عشه بين الخمائل بيد أننى ماكدت ألقى برأسى على الوسادة وأستعيد صـورة ذلك النهار الجميل ، وتتمثل لعينى فتنة تلك الانوثة وروعة ذلك الجمال ، حتى شعرت بخيبة قاسية ، واكتنفنى تفكير ثقيل ، انقلب الى قلق وضيق شديدين ، حتى صرت لا أكاد أسترد انفاسى الا بصعوبة ، فقد قفز الى ذهنى فجأة « احمد افندى» ــ لعنة الله عليه ــ وقلت : لابد أن يكون هـو الذى قصدته ، والا فكيف تعرفنى هذه الحسناء، وتستقبلنى بتلك التحية وهذه الحفاوة البالغة ، ثم تدعونى الى بيتها وانا لم اعرفها ولم أرها من قبل ··· حقيقة هى نادتنى باحمد ·· ولكن هو الاخر اسمه احمد ، وحقيقة هى سالتنى عن رحلتى

الى أوربا ، والسنوات التى قضيتها هناك ، ولـــكن هل أنا وحدى الذى ذهب الى أوربا ؟ ... هناك مئات من النـــاس ذهبوا الى أوربا وقضوا سنى دراساتهم هناك ، فلماذا لايكون هو أحدهم ... ولكن هل هي من ضعف الذاكرة بحيث لم تستطع أن تفرق بينى وبينه ؟ ... ولم لا ؟ ... أنا نفسى مصاب بهذا الداء اللعين ، والرجل الذى هبط من السـيارة مصاب به أيضا ، والرجل الذى قابلنى ذات يوم فى التراب وعانقنى وقبلنى ، ثم قال لى فى النهاية : متأسف حسـبتك صديقى هو ايضا مريض ، وفوق هذا كله ، لماذا لايكون ذلك الوغد المسمى «احمد افندى» يشبهنى تماما ، وبذلك يلتمس لها العذر ولغيرها من الناس ... وعلى هذا قضيت ليـــلة طويلة مسهدة لم اتنبه الى طولها المروع الا عند مانظرت الى وجهى فى المرآة وانا أحلق ذقنى ورأيت اصفراره والشحوب الذى ران عليه ، وكذلك ايضا قضيت اليوم ، وكان أشـــد سخفا وطولا من ليله الذى مضى ، كان يوما أشـبه بجثة ميت عزيز بقى تشييعها حتى يحضر الاهل من أقاصى البـــلاد .. ولما أوفت الساعة على السادسة مساء ، وهو المـــوعد الذى حددته للزيارة فى منزلها ، شعرت بكرب شديد لاننى فكرت فى عدم الذهاب ، خشية أن تكون قد استردت ذاكرتها ، أو يكون «احمد افندى» الحقيقى قد سبقنى اليها، وبذلك يتحرج موقفى ، وأنا بطبعى رجل خجول حيى تؤذينى حتى الهمسة غير المقصودة ، وأكربنى أكثر من هذا كله تفكيرى المبلبل الذى لم يقطع برأى ... هل اذهب أم لا؟ ... ورحت أذرع الطرقات كأننى دمية يحركها طفل صغير ، ولكن الشيء الذى دهشت له والذى هو فى كياننا جميعا ولم نفطن اليه ، هو كيف اننا فى مثل هذه اللحظات نغالط انفسنا مغالطة كبرى ، اذ وجـدت نفسى فجأة وعلى غير قصد فى طريق الهرم ، أقف أمام فيـــلا فخمة ، وأدقق النظر فى اللافتة النحاسية المثبتة على بابهـا الجميل ، وأقرأ بعينى هذا الاسم : «فيلا ميرفت» .

وطرقت الباب ، أو على الاصح لمست الزر الكهربائى .. فانفرج باب الحديقة الكبير عن خادم نوبية جميلة ، تعـرف كيف تستقبل الناس وتحييهم ، وما أن قطعت خطوات فى

ممر الحديقة ، وبلغت ذلك التمثال الذى يمثـــل «فينوس» عارية ، والماء يتساقط رذاذا على جسدها من نافورة لاترى •
حتى هرعت الى «ميرفت هانم» واستقبلتنى فى ثوب للسهرة لم أر أحكم منه فى ابراز مفاتن الجسد والكشف عن كنوزه الغالية ، وحيتنى فى نفس الشوق الزائد ، وصافحتنى فى نفس الحرارة الملتهبة وزادت فبالغت فى الكرم ، بأن قدمت لى خدها الاسيل ، لارشف منه قبلة أو قبلات ان شئت ، ثم دلفت بى الى الداخل فرحة لمقدمى وقد أحسست ذلك من فرحة أصابعها الجميلة الضاغطة على ذراعى ونحن نصعد معا ذلك الدرج المرمرى ، الموصل الى البهو اليابانى الذى يمثل فى أناقة رائعة ركن الامبراطور ، وما أن بلغناه حتى اجلستنى عـلى مقعد وثير وجلست بجانبى مرحبة ، تحدثنى حديثا جميلا عذبا ، كان أهمه فرحتها التى لاحد لها بتلك المصادفة الجميلة التى جمعت بيننا •
وهممت أن أقول لها شيئا هاما يتوقف عليه مصيرى معها لولا ان الخادم النوبية الجميلة أقبلت علينا وقالت لها شيئا بالفرنسية ، نهضت على أثره متهللة وهى تقول :
ـ لحظات •• استقبل فيها ضيوفك
فقلت فى دهشة :
ـ ضيوفى أنا ؟
فانثنت ضاحكة تربت على كتفى فى حنان جم وهى تقول :
ـ ألا أقل من حفلة ساهرة أقيمها فى بيتى لمناسبة لقائك
ثم انصرفت ، وبقيت فى مكانى لاهثا ، فقد تأكدت تماما من اننى بعد لحظات سوف أطرد شر طردة ، عندما تكتشف الحقيقة وتعود اليها ذاكرتها وتعرف اننى غير «احمد افندى» الذى تقصده ، وان كنت أحسست بالاشفاق عليها من المرض الوبيل الذى تعانيه ، كما شعرت بكراهية لاحد لها ، لهـذا «الاحمد افندى» ووددت لو أراه لاقتله ، ولذلك جلست فى مكانى أرقب من بعيد كل سيارة تقف أمام الحديقة ، وكـل ضيف يهبط منها ، وكلما رأيت شخصا يماثلنى قصرا أو طولا حسبته « أحمد افندى » ••
وغاض الدم من وجهى ، وتدهورت أنفاسى ، الى أن أقبـل المدعوون جميعا وكانوا من علية القوم ونجوم المجتمع ، فقد

رأيت من بينهم بعض الكبراء والعظماء ، وبعض نجوم السينما والمسرح وكبار أهل الفن ، كما رأيت رئيس وزراء سابقا وعددا من الوزراء ، وأشهد أنها كانت حفلة رائعة ، لم تشهد عيناى ما يماثلها بهاء وفتنة وثراء ضخما اللهم الا فى الخيال أو فى بطون الكتب • وقد امتد الحفل الى وقت متأخر من الليل بين مرح وطرب • الى أن لعبت الخمر برؤوسنا جميعا واختلط الحابل بالنابل ومكثنا كذلك حتى أعلن ختام الحفلة برقصة شرقية للداعية ، واستطاعت فيها أن تستلب عقولنا جميعا ، وان تلهو بعيوننا التى تعلقت بجسدها العارى ، وهو يتلوى كأفعى كبيرة ، يتجمع جسدها حينا فيصبح كالسكرة وينفرد فجأة كأنه السيف ، تغدو وتروح فلا ترى لها قدما ، وانما ترى صدرا يروح وظهرا يجىء ، وثديا ينطلق كأنه السهم وردفا يترنح كأنه الطير المهفهف بجناحيه ونحن جميعا كالدمى ، لايختلج لنا طرف ولا يرف لنا هدب الى أن ثقلت علينا النعمة، وتعبت نفوسنا من كثرة السرور، فأنهت رقصتها الرائعة •

ثم أخذ العقد ينفرط وانصرف المدعوون شاكرين لها هذا الفضل الكبير ، ومددت يدى مع أيديهم لأصافحها وأشكرها ، ولكنها استبقتنى هامسة فى أذنى أن أنتظر • ولما انصرفوا جميعا وبقيت وحدى معها فى البيت جلست قليلا لتستريح ثم راحت معى تجوس خلال قصرها الفخم وترينى غرفه واحدة بعد أخرى • وأثاثه الفاخر قطعة قطعة ، كما أطلعتنى على بعض أسرارها وتحفها فرأيت فيما رأيت صندوق جواهرها الثمينة ، التى قدرت قيمتها بحوالى عشرة آلاف جنيه كما اطلعتنى على ثوب ثمين للرقص غير الذى رقصت لنا به محلى بالذهب الخالص وزانته عسدة ثريات من الماس الثمين أهداه اليها أحد ملوك الشرق عندما رقصت أمامه فى احدى المناسبات كما اهدى اليها رئيس احدى الدول العربية قرطا شرقيا كبيرا يمثل كفا جميلة طعمت أصابعها بالزمرد والياقوت وحليت أناملها بحبات اللؤلؤ وهو كبير جدا بحيث ينسدل على جانبى الجيد ، ومعه «صفا» من الذهب يمثل غدة أهلة ونجوم ، تغطى الصدر كله ، ويهبط بهلال كبير تزينه ثلاث نجوم من اللؤلؤ وقالت لى أن ثمنه مع القرط ثلاثة آلاف جنيه

ثم اطلعتني على أشياء أخرى كثيرةلم اكن أتصور انها في حوزة امرأة من النساء ثم قادتني بعد ذلك الى البارو أجلستني تحت صورة جميلة في اطار ثمين لامرأة ترقص عارية للنيل ليـــلة زفافها اليه ، كتبت تحتها كلمة «القربان»ثم قالت وهي تنظر الى وتتناول زجاجةمن خمر معينة، قالتانها تفضلها علىغيرها:

ـ لنشرب معا نخب هذه الليلة ٠

وجلست بجانبي تناولني كأسا ، وتتناول غيرها ، وأنارجل لاأحب الخمر ، ولا أميل اليها كثيرا ، ولذلك لعبت بعقلىسريعا ونقلتني فجأة الى عوالم أخرى ورحت من خلال الضباب الذى غشى عيني أتطلع الى جمالها الساحر وأنوثتها الدافئة وتحرك في كياني انسان آخر لاعهد لى به بيد انني تذكرت فجـــأة احمد افندى ، فأظلمت الدنيا في عيني وهرب سريعـــا ذلك الانسان وبقيت وحدي حائرا أسأل نفسى عدة اسئلة فلاأظفر بجواب واحد ٠ وضايقني هذا جدا وأردت أن أضع له حــدا وشجعتني الخمر وأشعرتني بقوة هائلة تدفعني دفعا الى أن أوجه بعض أسئلة وليكن ما يكون وكأنها فطنت الى ما يجول بنفسى فقالت ساهمة تدغدغ بشفتيها ثنايا الكأس :

ـ فيم تفكر ؟

فقلت على الفور :

ـ في أمرك معى ٠ أريد أن أعـــــرف من أنت ، ومن انا بالنسبة اليك ٠

ـ وماذا تفيد المعرفة ٠

ـ أن يعرف الانسان نفسه على الاقل ٠

فاكتنفت وجهها كآبة وقالت ساهمة تنظر الى :

ـ أخشى أن انا صدقتك القول ، أن أفقدك هذه الســـــعادة وأحرمك من هذا الهناء

ـ كيف ؟

ـ هكذا النفس تنعم بالخيال وتعيش فيه ، وتشقى بالحقيقة وتهرب منها ٠

قالت ذلك وصمتت لحظات جالت خلالها في عينيها بعض الدموع وسقطت احداها خلسة على زجاج الكأس وانسابت على جداره وكأن هذا المنظر أعجبها فتأملته طويلا وتفرست

فيه ثم أفرغت سريعا مافى الكأس في جوفها مرة واحـــدة وقالت على الفور :

ـ نسيت أن أسألك كيف حال الست الكبيرة ؟

ونطقت اسم أمي في جلال مهيب فأدهشني أنها تعرفهـــا وان كان هذا قد سرني بعض الشيء ، ولما أخبرتها بأنها ماتت اكفهر وجهها وهي تترحم عليها ··· وحين سألتها ·· كيف عرفت أمي تركتني وانصرفت تتمايل من كثرة الخمـــر التي تجرعتها ولم تلبث حتى عادت ، واستلقت بجانبي على المقعد كأخت عطوف · وأسندت رأســـها الجميل الى كتفي ، ثم راحت تريني في يدها صورة فوتوغرافية صغيرة ، رأيت فيها رسم أمي جالسة على مقعد وثير ، وانا بجانبها ومن خلفنا فتاة تحمل على رأسهاأخي الصغير ورحت أتأمل الصورةوهي تتأملها معي وتشير بأصبعها الى رسم أمي وتقول : أليست هذه هي الوالدة ··· وهذا هو أنت ··· وهذا هو آخر العنقود ··· ثم بلعت ريقها وأردفت : وهذه هي : أنا

ـ انت ··· أنت من ؟

فقالت وهي تربت بيدها على كتفي وتريد أن تضحك :

ـ انا مرزوقة ·

ثم انتصبت واقفة ، وقالت وهي تصب من الزجاجة خمرا وتفرغها في جوفها :

ـ أنسيت مرزوقة ··· مرزوقة التي هربت ذات يوم مع «محمد افندي» كاتب الصحة ، وقيل انها ماتت ·

· وهمت أن تقول شيئا آخر ، وأحسست بالكلمات تتزاحـــم على شفتيها وتريد أن تنطلق ، ولكن الخادم النوبية الجميلة كانت قد أقبلت علينا متجهمة الوجه ، وأنهتاليها سريعا بأن السائق قد اعد العربة ، فصافحتني مودعة على أن نلتقي في الغد ، ولما مددت لها يدي أحسست بشيء دافيء يغمرها ، ولم أفطن الى انها الدموع الا بعد أن خرجت ·

وهنا صمت محدثي لحظات ، أطرق خلالها حينا ، ثم رفع رأسه الثقيل وعينيه المغرورقتين وقال بصوت خافت لايكاديبين:

ـ وكانت مرزوقة بالنسبة لي ··· بيد أنه لم يـكمل لان الدموع كانت قد غلبته وفاضت على شفتيه فأغرقتهما ، كمـا أغرقت معهما ما كان يريد ان يقول ·

الشيخ على



بالرغم من أن لى أكثر من أربعين عاما قضيتها فى وزارة المعارف .. التحقت بها طالبا ، ثم مدرسا للغة العربية ، ثم مفتشا لها بعد ذلك . فاننى مع هذا العمر الطويل ، لاأستطيع أن أذكر عاما واحدا مر على فيها بخير ، ولا سيما فى السنوات الاخيرة ، وفى موسم الامتحانات بالذات ، ومايجره هذا الموسم من ويلات لا حد لها ولا قبل لى باحتمالها . فالوزارة فى كل عام تتفضل غير مشكورة فتنتدبنى للاشراف على الامتحانات فى بلد ناء ، ليس من سبيل الى الوصول اليه غير المتاعب التى ترهق النفس ولا يحتملها الجسد . وانا رجل بطبعى الريفى أكره السفر . ولا أحب الانتقال . ولا يضايقنى شىء مثلما تضايقنى رؤية القطار الذى ينبعث صفيره المزعج الى أذنى كنواح الثعالب . ولولا لقمة العيش لما ركبت قطارا فى حياتى ولا ارتحلت عن قريتى يوما . وسبب ذلك هو حياتى الخاصة التى

رتبتها على وتيرة واحدة أو بمعنى أصح وأصرح • رتبتهـــا لى المرأة التى تزوجتنى من ثلاثين عاما ، ايام أن كنت طالبا فى السنة الثانية فى تجهيزية دار العلوم • والتى كانت تكبرنى بخمس سنوات ، فاتخذت من تباين هذه السن ، ومن ضخامة جسدها وطوله وعرضه الذى يفوقنى بكثير ، وسيلة الى فرض ارادتها على • وقد اســـــتطاعت زوجتى بارك الله فيها وأنزل الرحمة على قلبها الغليظ • ان تروضنى كما تروض الام ابنها على شىء معين •.وان تضع لى نظاما جعلتنى لا أحيد عنه مهمـا امتد الزمن واختلفت الايام •

فالبيت الذى نقطنه ــ وكان هذا من فضل الله على ــ يقع بجوار المدرسة التى أعمل فيها ، فأنا أخرج من البيت مـــع الصباح الى المدرسة ، وأعود من المدرسة مع العصر الى البيت ، ثم أخرج بعد ذلك ــ اذا ما سمحت الظروف بالخروج ــ لاصلى المغرب والعشاء فى مسجد السيدة ، لانه أقرب المساجد الى البيت ، ثم أشرب فنجانا من القهوة فى قهوة المحمدى • ثم أعود بعد ذلك الى البيت • وغير هذا فأنا لا أعرف شـــأنا آخر من شئون الحياة • ولا من شئون بيتى أيضا• فزوجتى هى صاحبة الامر والنهى فى كل شىء ، وهى الحاكم المطلق فى البيت •أما أنا فما على الا أن أقبض مرتبى أول كل شـــهر ، واحتفظ به أمانة فى جيبى الى أن أعود الى البيت فأسلمه اليها كاملا غـير منقوص • حتى السبعة القروش والمليمات الثلاثة التى يعطيها لى الصراف فوق الاوراق الصحيحة ، أعطيها اياها •• لا تنقص قرشا ولا تقل مليما • وما زلت أذكر جيدا ذلك اليوم المشؤوم الذى أعطيتها فيه الظرف وبداخله المرتب وكان أول الشهـــر كما هى العادة ، ولما فضته وجدت به زيادة • ورقة مالية من فئة الخمسة والعشرين قرشا ، كنت قد ادخرتها من مصروفى اليوم الذى تعطينيه • وكنت من سوء الحظ قد أخفيتهـــا فى الظرف الذى وضعت فيه المرتب دون أن أفطن الى ذلك •

وحاولت أن اقنعها بهذه الحقيقة فلم تقتنـــع ، وظنت أننى أتناول مرتبا يزيد على الرقم الذى تأخذه ، واننى أخفى عنهـــا ذلك ، وثارت ثائرتها ، والويل لى اذا ثارت يوما •وراحت تكيل

الى الاتهامات بغير حساب ··· اتهمتني بالكذب ·· واتهمتني بالخيانة ·· واتهمتني أيضا بعدم صلاحيتي كزوج ، أقل واجباته أن يكون صادقا مع زوجته وشريكة حياته · وكادت تجمع ملابسها وتعود الى القرية ، لولا أنها ذهبت في اليوم الثاني بنفسها الى ادارة المدرسة ، ولانها لا تعرف القراءة ، اصطحبت معها جارة لها اشتهرت في الحي — بفك الخط — ولم تهدأ ثائرتها الا عندما أقنعها السكرتير وأطلعها على كشف المرتبات ، وقرأت صاحبتها أمام اسم الشيخ علي سالم الدلجموني « مبلغ وقدره : ٣٥ جنيه ، و ٧ قروش ، ٣ مليمات » ·· أما البارة فمنقوط كما يقولون في حسابات الدوبيا ·

وبذلك هدأت الست زكية ، وانشرح فؤادها ، وان كانت قد رجعت الى مصروفي اليومي وعملت فيه بحكمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عندما صنعت له زوجه حلوى ذات يوم ، ولما سألها عن مصدرها ، أفهمته بأنها كانت تدخر في كل يومين حفنة من الدقيق حتى كان هذا الذي صنعت · فأمر عمر بانقاص هذا القدر من الراتب كل يومين ما دام زائدا على الحاجة وأعاده الى بيت المال · وهذا ما فعلته معي زوجتي فقد أنقصت القروش العشرة التي تعطيها لي يوميا لمصروفي الخاص الى ثمانية فقط · وحاولت أن أقنعها بعكس ذلك ، وكيف أنني رتبت حياتي اليومية على هذه القروش العشرة ، وانها اذا أنقصتها فستسبب لي بذلك ارتباكا ماليا مؤكدا ، ولكنها لم تقتنع ونفذت رغبتها · وقد اتعبني هذا كثيرا ونغص على حياتي ، لانني كنت قد رتبت هذا المصروف اليومي على نظام معين :

علبة سجاير ماركة الفيل بستة قروش ·

مسح الحذاء ··· قرش

كوب عرقسوس ··· قرش

فنجان سكر زيادة في قهوة المحمدي ·· قرش

صحيفة ··· بقرش

ولذلك عندما نقصت القروش العشرة الى ثمانية ، أتعبني جدا أن أوازن بين الايراد والمنصرف · ولم أستطع ذلك الا بعد

ان استغنيت عن الصحيفة ••• واكتفيت بقراءتها في غـرفة الناظر في أوقات الفسحة • وكذلك مسح الحذاء ••• فبعدأن كنت أمسحه كل يوم ، جعلته كل بضعة أيام ••• أما قهـوة المحمدي فقد قل ترددي عليها ، وأصبحت لا أذهب اليها الا كل مساء خميس ، حيث كنت أشرب فنجان القهوة مضافا اليـــه مسحة من عنبر الشيخ الخزرجي مدرس الحساب الذى اتخذ من قهوة المحمدى محلا مختارا له ••

لهذا كان موسم الامتحانات كما قدمت ، يرهقني ارهاقـــا شديدا ، ويسبب لي متاعب لاحد لها ، لانه يضطرني الى السفر والسفر يضطرني الى تغيير هذه الحياة الرتيبة ، ويضـــطرني أيضا ، وهذا هو المهم ، الى كثرة النفقات التى كانت زوجتي لا تقرها ولا تعترف بها الا بعد جهد دونه حفظ الفية ابن مالك • أو شرح معلقة زهير • ومع أنى كنت طوال مدة السفر ، أعدلها كشوفا يومية أثبت فيها جميع نفقاتي من الصباح الى المساء ، الا أن زوجتي كانت لا تصدق عليها الا بعد عراك طويل ، تذرف عيناها خلاله الدموع الغزار ، تحسرا على « بختها المائل » ، وحظها العاثر الذى أوقعها في زوج مبذر لا يرعى للمال حرمة ، ولا يعمل للقرش حسابا • ولا يحترم مشيئة الزوجة •

وما زلت أذكر ذلك الحادث الذى تورطت فيه تورطا شديدا فقد انتدبت ذات مرة للاشراف على الامتحانات في بلدة كفـــر صقر • وكان الجو حارا والعمل مرهقا الى حد كبير • ولذلك لما خرجت من اللجنة بعد المجهود الكبير الذى بذلته أردت أن أروح عن نفسي بعض الشيء ، فأطوف ببعض شوارع المدينـــة وشـــعرت أثنـــاء ســــيري بأنني جـــائع ، ومررت مصادفة بمطعم اشتهر هناك بجودة صنع الكـــوارع والثريد المجهز بالخل والثوم ، وكنت أشتهي هذه الاكلة منذ زمن غير قليل • وترامت الى أنفي من بعيد رائحة الثوم النفاذة فسـال لعابي وتلمظت شفتاي ، فوقفت أفكر ولكني لم أسترسل في ذلك خشية أن يحول التفكير في بعض الامـــور ، بيني وبين الاقدام لذلك انفلت سريعـــا • ودلفت الى المطعم ، وطلبت في سرعة ــ حتى لا أتراجع ــ جميع ما أشتهي دفعة واحـــدة • نصف رأس ضاني ••• كوارع عجالي بالتربية ••• « فتة »

بالخل والثوم · وما أن جاء كل ذلك أمـــامي ·· حتى ألقيت بكتاب النحو الواضح الذى كان فى يدى ، جانبا ، ثم نزعت العمامة عن رأسى وألقيت بها عليه ·· ثم شمرت عن ساعدى ، وفجأة غبت عن دنياى فلم أفطن الى نفسى الا بعد أن امتلأ بطنى وشرعت فى دفع الثمن فاذا به نصف جنيه الا بضعة قروش ، وعندها أسقط فى يدى ، وذهبت الى اللوكاندة ، ومكثت الى أن صليت الفجر ، اعصر ذهنى واستجمع شتات أفكارى ··· اذ كيف أثبت هذا المبلغ فى الكشف اليومى ·· وماذا أكتب أمامه؟ وماذا أقول لزوجتى عنه ·· وأخيرا بعد مجهود عقلى يفوق طاقة البشر ، أثبت الاتى :

عشرة قروش · غداء ، خضار سادة وواحد ارز ·
خمسة قروش عشاء « فول وطعمية « قطعة من الجبن » ·
قرشان للقهوة
خمسة قروش سجاير
قرشان لمسح الحذاء وثمن الجريدة ·
ثم أثبت الـ ٢٦ قرشا الباقية ·· وكتبت أمامها « منظورة»

ولما عدت من السفر ورحت أقرأ عليها كشوف النفقـــات اليومية ··· وجئت عند كلمة منظورة ، خفـــق قلبى خفقانا شديدا ، وكأنها لاحظت على ذلك فسألتنى سريعا عن هـــذه المنظورة وما هى ، فأفهمتها بأنها قطعة من الزجـــاج تنعكس عليها صورة جميع الطلبة أثناء الامتحان · فيرى فيها المشرف على اللجنة وهو فى مكانه ، الذى يغش من زميله ، والذى يجيب الاجابة الصحيحة فصدقت وقد أطربنى ذلك جدا ·· بيد أن هذه الفرحة زالت سريعا عندما أفهمتنى أن هذا يجب أن يكون على حساب الوزارة ، ولكى أنجو بنفسى وافقتها على هذا القول وزدت عليه أننى سوف أحصل على ثمنها مع بدل السفر ·ولما صرفت هذا البدل وأعطيته اياها ، سألتنى عن ثمن المنظورة ، فأفهمتها أننى صرفته وعليها خصمه من راتبى اليومى ·· وقد كان ·· وحرمت أياما من الســـجاير ماركة الفيل وكـــوب العرقسوس ومسح الحذاء والجلوس على قهوة المحمدى ·

وقد أقنعنى ذلك الحادث بأن النفس فعلا امارة بالسوء وأن

من يصغي الى عواء بطنه لا يجني غير المتـــاعب • وان الرجل العاقل هو الذى لا يتبع شهواته ، وان لقمة أغمسها في الملح خير ألف مرة من لحمة الرأس والكوارع العجالى •• و « الفتة » ذات الخل والثوم •• التى يعقبها الحرمان الطويل ، والعراك الدائم مع زوجتى

وقد آمنت بذلك وعملت به عندما سافرت هـــذا العام الى أسوان للاشراف على اللجنة هناك ، اذ مكثت خمسة عشر يوما حتى انتهى التصحيح ، لم اذق فيها غير الفول فى الصـــباح وطبق الخضار السادة في الظهر •••أما فى الليل فكنت أكتفى بقطعة صغيرة من الجبن ونصف رطل من الخيار ــ وكان من فضل الله يوجد بكثرة فى أسوان فى تلك الايـــام ــ وبذلك سويت كشوفى اليوميه من غير متاعب ووفق ما تشتهى زوجتى •• بيد أن هذا كله قد ترك أثره الكبير • فعدم التغذيةالكافية مضافا الى ذلك تقدم السن ، والعمل الشاق الذى قمت به أثناء الامتحانات • والجهد المضنى الذى يبذله الممتحن مع طلبة هذه الايام •• كل هذا ترك أثره فى صـــحتى دون أن أفطن •• ففجأة ، وقبل أن أعود الى القاهرة بيومين ، خارت قواى وهزل جسدى وشحب لونى شحوبا غريبا ، وأحسست بدوار دائم يلازمنى حتى أصبحت أشبه بالمريض الذى يشكو داء عضـــالا لا يعرفه • وزاد الطين بلة • هذا المجهود الذى بذلته فى العودة ومتاعب القطار ، وطول المسافة من أسوان الى القاهرة ، ومـــع ذلك فقد احتملت هذا كله على الـــرغم منى وجلست فى قلب القطار أراجع كشوف الحساب كشفا كشفا • وأجمعها حتى لا يحدث لى ما حدث مع زكية فى المرة السابقة • وقد وفقنى الله توفيقا كبيرا ، اذ وجدت الكشوف جميعها مطـــابقة للواقع الذى ترضى عنه زوجتى وتقره فرحة راضية • بيـــد أنه فجـــأة حدث حادث • لا أدرى حتى يومنا هذا كيف حـــــدث • فقد أخرجت ما بقى فى جيبى من نقود لاراجع رقمها على مجمـــــوع ما أنفقته أثناء السفر من واقع الكشوف ، فاذا بى أجد النقود التى فى جيبى تنقص جنيهين •• فتشت كل شىء شال العمامة •• خوصة الطربوش • حمالة السروال •• ثنايا الجورب •

قلب الحذاء . الجبة .. القفطـــان . الجيب السرى الذى فى السروال والذى أخفى فيه بعض القروش عن زوجتى فلم أجد شيئا وا أسفاه .

وأخيرا أدركت أن الواقعة قد وقعت وان عصــــفور خادم اللوكاندة قد امتدت يده الى جيبى وانتزعت منه هذا المبلغ ،ولم أفزع لذلك فزعى للنبأ المزعج اذا ما رويته لزكية . اذ كيف ستصدق .. ؟

ووصل القطار الى محطة القاهرة في السابعة مساء وهبطت منه محموما بحق أجر قدمي جرا ، وكأننى أنتزعهما من الارض وترتعش يدى فترتعش معها تلك الحقيبة التى أحملها وبداخلها القبقاب والجلباب والطاقية ، وبعض كتب النحو الواضـــح والدروس النحوية . ويممت وجهى شـــطر البيت وبودى أن ألقى بجسدى على الارض ان لم أجد الفراش الذى استلقى عليه، ووقفت لاهثا أمام الباب وتشجعت وطرقته كالعادة . وما أن فتحت لى زكية ورأتنى حتى تهلل وجههـــا وأشرق محيــاها واستقبلتنى فرحة مسرورة . كما تستقبل المرأة رجلها الغائب، أو كما يستقبل الظمآن النهر الذى يروى غلتــه والماء الذى يتبرد فيه ، فقد كانت الخمسة عشر يوما قد زادتها شوقا ، ثم تركتني وذهبت الى الداخل وأيقظت الاولاد ليجلسوا معي حتى تعد لى العشاء ، ثم أسرعت الى المطبخ وتخيرت دجاجـــة سمينة وذبحتها وبينما كانت الدجاجة تهيأ للنضج على النار كانت هى فى الحمام تستحم وتصب الماء على جسدها فرحـــة طروبا ، وتدندن بصوت جميل . أغنية معروفة .

ولست أدرى لماذا ضايقنى كثيرا فرحها هـــذا بعودتى ، واحتفاؤها بى هذا الاحتفاء الزائد . ودون وعي مني رحت فى حسرة، بالغة أتحسس جسدى الخائر وقواى المتعبة ، وفجـأة أحسست برغبة شديدة فى النوم بيد أنها كانت قد خرجت من الحمام ترفل فى ثوب قشيب . وزانت رأسها بمنديل حلت أطرافه بالترتر (وخرج النجف) وحبات الخرز التى انتظمت على الجبين فزادته بهجة واشراقا وأسرعت طروبا فأعـــدت العشاء وأطربنى منظر الدجاجة السمينة ورائحـــة الادام التى

تتصاعد منها • ثم رحت ألتهمها في بشر وابتهاج ولكني فجأة تذكرت المبلغ الذى سرق منى فانقبض صدرى ولاحت دلائل الحزن والخوف على وجهى ، وكأنها لاحظت على ذلك فسألتنى عما يشغلنى ، فنظرت اليها ووقعت عيني على منديلها المطرز وثوبها الجديد فانقبض صدرى • بيد أني أكدت لها أن لاشيء مطلقا ولكنها لم تصدق ، وللمرأة حاسة سادسة تشم بها ما يعتمل في قلب الرجل ، فأعادت السؤال فأكدت لها أن لاشيء فتركتني وغابت حينا ، ثم عادت وقد ارتدت ثوبا آخر هو الذى ترتديه فى المخدع ثم جلست بجوارى تسألنىعن الرحلةوكيف كانت وخشيت أن يتطرق بنا الحديث الى الحساب ، فتركتها وانصرفت الى المخدع متخاذلا أجر قدمي جرا بطيئا.وبينما أنا أنزع ثيابى رويدا لاهث الانفاس ترامى الى أذني صوت ضحكة عريضة أرسلتها زوجتي وهو تغلق باب الشرفة أثر حديث قصير بينها وبين أم رستم التى تقطن أمامنا والتى أرسلت نكتة طريفة عن عودة الزوج بعد غياب طويل • ولست أدرى لماذا ترامت الى أذنى أنغام تلك الضحكةمزعجة بغيضة أشبه بالقطار الذى يرسل صفيرا كنواح الثعالب • ولذلك رحت أفكر وأفكر طويلا فى حل موفق ينقذنى من كل هذا التـورط وكان أن هدانى الله تعالى الذى يأخذ بأيدي الضعفاء فى أحرج المواقف الى حل موفق يخلصنى منها ومن النقود التى ضاعت معا • ويريحني من مراجعة كشف الحساب أيضا •

وانتظرت حتى أقبلت فرحة ترفل فى ثوبها القشيب وما أن بدأت تداعبني وتحدثنى عن أساها طول غيبتى ، حتى طلبت منها أن تحضر الحقيبة التى كانت معى فى السفر ، فأحضرتها وأخرجت منها بعض حاجياتى : كالقبقاب • وشال العمامة ، والسواك وعلبة الورنيش ، وما الى ذلك • ثم بدأت تخرج بعض كتب النحو التى كنت أحتاج الى مراجعتها أثناء الامتحانات • وتريثت قليلا حتى تخيرت من بينها كتابا غلف تغليفا أنيقا • وقلت لها : متخابثا وأنا أشير الى الكتاب •

ـ بين صفحات هذا الكتاب ورقة مالية من فئة الجنيهات الخمسة صرفتها لى الوزارة مكافأة لى عن ساعات العمل

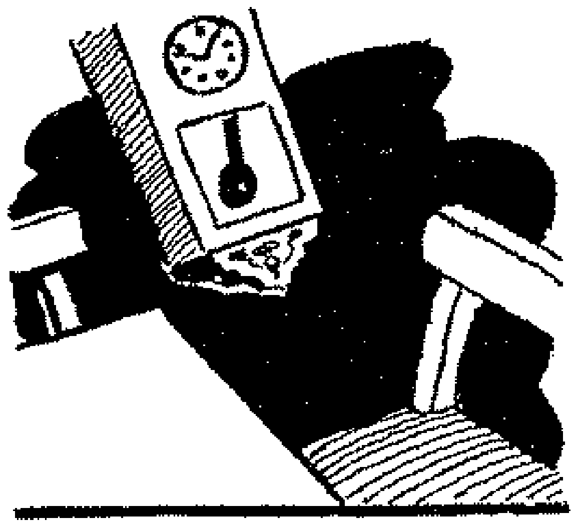
الزائدة ، وهي هدية مني اليك ·

وما أن قلت لها ذلك حتى أشرق وجهها فجأة كمـــا شرق حلقها بعبارات الفرحة التى تغمر القلب وتفيض على فؤاد من يحب المال ، وراحت تشكرني بعبارات متدافعة سقطت معهــا ـ اللبانة ـ التى كانت تطرقعها بصوت منغم جميل · ومن ثم راحت فى نشوة غامرة تقلب صفحات الكتـــاب وتفر ورقاته سريعا · ثم تعود فتقلبها مرة أخرى ، وتفرها ثانية ثم أعادت الكرة ثالثة ورابعة وخامسة · وأنا أكتم فرحة خبيثة فى قلبى ولما لم تجد شيئا نظرت الى واجفة ، فنظرت اليهــا مذعورا ورحت أقلب معها صفحات الكتاب فى خوف ظاهر ، واضطرابه ملحوظ ، عرفت كيف أجيد تمثيلها ثم تناولت غيره من الكتب امعانا فى التخابث حتى فتشت الحقيبة جميعها ، ولما أيقنت زكية من ضياع هذا الكنز الثمين الذى كان سيهبط عليها من السماء ، اكفهر وجهها ولمعت عيناها · وراحت أنفاسها تتلاحق كأنفاس الخائف المضطرب · وفجأة انفجرت باكيــةـ تنتحب وتندب حظها ، و « بختها » ونصيبها الاسود ، وأنا من خلفها أشكو الى الله هذا الظلم · وكـــذلك ظللت بها الى أن قلبت فرحتها الى بكاء ودموع · وانتهزت هذا الظرف المواتى ودموعها التى تسيل على خديها غزيرة لا تنقطع وأسرعت الى الفـــراش وسحبت الغطاء على وجهى وأنا أكتم ضحكة عريضة يريد ان يرسلها القلب لنجاح هذه الخطة التى وفقنى القدر اليها دون أن أحتسب · ورويدا استغرقت فى النوم اللذيذ الهادىء الذى كنت أنشده لجسدى المتعب وقواى الخائرة ·

بيد ان هذا ، وا أسفاه ، لم يدم طويلا ··· فقد استيقظت على يد زوجتى ترفع الغطاء عن وجهى ، ثم تهزنى فى رفـــق منادية بصوت حنون ، فيه عذوبة أخافتنى جدا وقالت : وهى تدس فى يدى شيئا

ـ شيخ على ·· شيخ على ·· شيخ على ·· قم · لقد وجدت الجنيهات الخمسة ··

همس الصمت



كانت (الفيلا) الجميلة المقامة على ضفاف النيل . جالسة على العشب المخضوضر وسط الحديقة المترامية تتيسه عجبا بطلعتها الفاتنة . ولونها الاحمر الجميل . الذى يحلو له كل يوم عند الاصيل أن يتطاول على الشفق وينظر الى حمسرته مبتسما . ثم يعود فيرد الطرف ضاحكا من الضوء الغارق فى بحر العقيق .

ولكن الفيلا . كانت فى هذه الليلة غيرها فى كل الليالى التى مضت . فقد كانت تكتنفها الوحدة ، ويعلوها شحوب جثم على نوافذها المغلقة وأبوابها الموصدة ، حتى شجرة الورد القائمة أمام مدرجها المرمرى المطعم . كانت هى الاخرى صامتة كاسفه . لم تطارحها كالعادة نسمات الاصيل العابرة غرامها أو تبثها هواها . ولم يرنح غصنها المياد ، الهواءالخفيف . الذى كان ينطلق مع المساء اليها ويروح كل ليلة يشرح لوردها الاحمر قصة حبه الدامى .

وهكذا كان الصمت هذه الليلة يكتنف كل شيء ، ويشوبه كل شيء داخل الدار وخارجها ولم يفطن الىهذه الفترة الزمنية الجميلة الا (المائدة) الكبيرة الفخمة ، القائمة وسط البهـو الفسيح في قلب الدار • فهي التي فطنت الى هذا فحسرتعن وجهها الجميل اللامع النقاب الاخضر وتطلعت الى (البوفيه) الطويل العريض الضخم• الواقف أمامها • وكأنه في ضخامته تمثال من تماثيل الالهة وقالت له هامسة •

ـ الم تفطن الى شيء أيها الاخ الكبير الضخم •

فقال وهو ينظر اليها ، ويصعد نفسا حارا ، لفح ما بجـوفه من آنية صفت كلها من ذهب وفضة •

ـ « أجل لقد فطنت الى أشياء • وأود أن أسر اليك أشياء

ـ « أجل لقد فطنت الى أشياء • وأود أن أسر اليك أشيـاء

تحصى أنفاس الزمن بعين واحدة (وتنفس الصعداء) لشـد مايؤذينى أيتها الاخت صوتها هذا الذى لم يتبدل » •

وسمعت الساعة الكبيرة المعلقة في قلب البهو المظلم هذا الهمس فقالت على الفور ، ولكن بنغم متقطع لايكاد يبين •

ـ لكم وددت أيها الرفاق أن أريحكم ، وأريح نفسى منهذا العناء فأشارككم يوما الحديث بل وأحدثكم لحظة عما يضيـق به صدرى بيد ان الرجاء لم يتحقق ولم تقطع بعد يد تلـك الزنجية اللعينة التى كلما أفرغت مابجوفى عادت وجرعته الى غصصا •

وكانت نسمة عابرة مارة فوقفت تصغى الى هذا الهمس ، وحلالها أن تستمع الى الحديث كله • فأسرعت متسـللة من فرجة كانت بأعلى نافذة لم يحكم رتاجها ! وذهبت الى الساعة ونفثت صقيعها فى قلبها الذى اختلفت دقاته فى الحال ، وما هى الا لحظة حتى جمد الزيت فى أوصالها وحتى كانتصامتة تشاركهما الهمس • وهنا علت وجه البوفيه ابتسامة عـذبة شاركته فيها المائدة الكبيرة التى قالت على الفور فرحة :

ـ الان وقد أحال الصمت والليل والنسيم كل شيء الى صالحنا فهل لك أن تحدثنى فلكم أنا مشوقة الى حديثكالعذب أيها الرفيق •

وهم هو أن يتحدث ولكنه عاد فآثر الجمود ، فقالت وقد حسرت عن وجهها كله فبدت (قشرته) مشرقة بسامة .

ــ هه . ماذا تريد أن تقول .

فقال وقد راعته طلعتها اللامعة المتألقة بيد انه عاد فاغفى .

ــ أريد أن أقول أن لاشيء عندي اليوم يقال .

ــ يالك من عملاق أبله . لايعبث الا اذا استيقظ .

ــ لانه لايجد الا اذا نام أليس كذلك ياصديقتي المحبوبة ؟

ــ لم أكن صديقتك في يوم ما . فأنت أبدا لاتشاركنـــا لهو دنيانا .

ــ أنا ؟

ــ أجل .

ــ اتعرفين لماذا .

ــ لماذا

ــ لان لهو هذا الزمن معناه الفناء ، وانا لاأريد ان أموت .

ــ وهل انا هي التي تريد أن تموت ؟

ــ لاأقول ذلك ، وانما أقول انه يبدولي أنك تودين مشاركة انسان هذا العصر الذي يعتز بحياته موته وفنائه .

ــ أنا لاأفهم فلسفتك هذه الخرقاء .

ــ وكذلك انسان هذا الزمن ، لايفهم كيف يموت ليحيـــا ولكنه يفهم كيف يحيا ليموت .

ــ افصح أرجوك . فما عقلي بأمنا الارض التي تعرف كل شيء . انا لاأفهم كيف يموت الانسان وهي حي ويحياوهوميت

ــ هذا الانسان الذي قدر لنا أن نعيش في بيته ، ونتعلم الهوان على يديه هو كذلك .

ــ كيف .

ــ صاحبة هذه الدار . تحب غير زوجها وتعمل جاهـــدة لتظفر بذلك الرجل القصير الذي يصادق زوجها . ويتردد على داره . ولو قدر وظفرت به (وهي لابد ظافرة) فستموت كأنسانة وتعيش كامرأة . أما ذلك العشيق ، والذي هـــو الرجل القصير . فسيعيش كمخلوق ويموت كرجل .

ــ (هازة رأسها) وبعد .

ـ وصاحب هذه الدار • حبه للمقامرة وغرامه بجمع المال ليلقي به في تلك البالوعة الخضراء ألهاه عن بيته • أثناه عن أسرته • كذلك ماتت الاسرة وعاش البيت •

ـ كدت أفهم •

ـ (مستطردا) أما الابنة الكبرى ، فقد ألهاها التفكير في الزواج عن المستقبل وعن الصواب فصادقت أكثر من واحد وأحبت أكثر من واحد وأخلصت لاكثر من واحد ومع ذلك لم تجد واحدا لان كل واحد لم يكن هو الواحد •

ـ مسكينة ، وما الذى صنعته ؟

ـ الذى صنعته انها رمت بآخر سهم ، فألقت بشباك الغرام الكاذب لتصطاد رجلا • فصادها رجل •

ـ وما الذى حدث •

ـ خرجت من الحظيرة قبل أن تدخلها ، وبذلك ماتت قبل أن تعيش بزمن بعيد •

ـ تظن انني كذلك ؟

ـ قلت يبدو لى

ـ دليلك •

ـ دليلي انك عدت فأشفقت على تلك الساق التى جرحها ظفرك ليلة الامس •

ـ أنا أشفقت عليها •

ـ أجل • كان يجب أن يكون جرحا لايبرأ ، فساق لاترعى الذمار • ولا تحفظ الجوار يجب أن تبتر •

ـ لقد فعلت مافى طاقتى •

فقالت الساعة جادة :

ـ الواقع انى سررت جدا لمنظر تلك النقطة الحمراء وهى تسيل على العاج الخالص •

وهنا انبرى مقعد جميل • ولكنه عرف بالغباء والجهل بين أقرانه الملتفين حول المائدة وقال لزميل بجانبه :

ـ ما قصة تلك الساق أيها الرفيق ؟

فقال له فى همس لايكاد يسمع :

ـ أما زلت عند غبائك ايها الصديق ؟

ـ ترى انني أود أن أتخلص منه • ألا تعرف أن الغباء نعمة

ـ ان أمنا العزيزة • ايها الغبى الناعم • أنعت بالامس ساقا مرمرية متألقة تعبث بالسيفان المتدلية في قلبها ساعة الغداء وتبحث عن ساق معينة بالذات وظلت تبحث الى أن عثرت عليها أمامها • وكانت ساق ذلك الرجل القصير ، الذى كان ضيف الشرف بالامس ، ومن ثم راحت تعابثها وتغازلها وتبثها نار الغرام على مرأى ومسمع منا جميعا •

ـ حقا اننى لغبى • كيف لم أفطن الى شيء من هذا ، وبعد فما الذى حدث أيها الصديق •• قل تحدث •

ـ حدث أن أمنا العزيزة لم تقبل بالطبع هذا العبث فاقامت ـ مسمارا ـ كان في قدمها وجرحت به تلك الساق الطائشة الرعناء ••

فقال المقعد الغبى :

ـ يالها من أم بارة بنا ، وباصلها • ولكن فل لمن كانت تلك الساق العابثة الهازلة •

ـ لصاحبة الدار • ايها الاخ الغبى •

ـ لصاحبة الدار • وزوجها أين كان ياأبله ؟

ـ بجوارها • لايأكل الا اذا أكلت• ولا يشرب الا اذا شربت

***

وهنا فتح أحد الابواب • وأطل منه مقعد كهل وقور •• تحفه طهارة الشيخوخة وقداستها ، وما أن أبصروا به حتى استقبلوه في تجلة واحترام وماأن أبصر بهم حتى حياهم قائلا .

ـ مساء الخير أيها الرفاق الاعزاء •

فرد الجميع فى نفس واحد :

ـ مساء الخير ياأبانا الشيخ الذى هو خير من انجبت أمنا

فقال المقعد الشيخ : وقد اتخذ له مكانا أمام الساعة •• وبين البوفيه والمائدة •

ـ فيما كان حديثكم أيها الرفاق ؟

فلم يجب البوفيه • وكذلك لم تنطلق الساعة ، ولكن المائدة قالت له دامعة •

ـ تعلم ياأبانا كم أنا محزونة على حياتي فى هذه الدار • وكم أنا متبرمة بها وكم شكوت لك مرات •

ـ أعلم ـ أعلم يابنيتي .

ـ وتعلم أيضا أننا لما لم نجد لا أنا ولا أنت منفذا عاهدتك على أن أقف حياتي على محاربة هذا الصنف من الناس ، وقد كنت بارة بالعهد وفية بالوعد ـ لم آل جهدا ـ ولم أدخر وسعا ومع ذلك يتهمني هذا الرفيق ـ تشير الى البوفيه ـ انني أريد مشاركة انسان هذا العصر الظلام والتأخر الذي يتخبط فيه ـ وينعم به ـ أيرضيك هذا أيها الاب ؟ .

وهنا تأثر المقعد الغبي وهمس في أذن زميله قائلا :

ـ ان أمنا تبكي .

ـ صه ياغبي .

وقال المقعد الشيخ في وقار

ـ لاتغضبي أيتها الإم البارة ـ والاخت الحنون ويجب أن نلتمس لهذا الرفيق العزيز العذر في ثورته

فقالت الساعة وهي تنظر الى جبين المقعدالشيخ وقد تغضن:

ـ لم تكن بالثورة التي تظن .

ـ ولتكن بالتي أظن فما الذي حدث ؟

فقالت المائدة . ذاهلة مشدوهة

ـ ماذا تقول ياأبي . أنه يرميني بأشنع تهمة ، يرميني بأنني كالانسان أو على الاقل أحب الانسان واحب مشاركته في غيه . ومعاذ الله ياأبي أن أكون كذلك .

وهمت الساعة أن ترد . ولكن البوفيه خرج عن صمته وقال محتدا في غضب :

ـ أنا لم أقل

فقالت المائدة وهي تتحفز

ـ بل قلت

وكاد الخلاف يحتدم لولا أن المقعد الشيخ بدأ يتحدث

ـ الواقع يارفاق انني أنا الآخر أصبحت ضيق الذرع جدا بالحياة في هذه الدار ولذلك فانا احمد الظروف التي أتاحت لاسرة آخر الزمان هذه ان تذهب الليلة الى السينما وتخلي البيت وبذلك أتاح لنا القدر ساعات الصمت هذه لنستيقظ فيها ولنتشاور في أمر جد خطير ، فانا أربأ بكم معشر الجماد وكلكم من أصل طيب فرعه في السماء الطاهرة ، وأصله في

أمنا الارض المباركة · أربأ بكم ان تقبلوا هذا الوضع المهين فأخشى ما أخشاه أن تلوثكم أوضار الانسان وتضربكم أو على الاقل يغركم النور الذى يتزين به ليخفي الظلام الذى فى قلبه لذلك قررت وحدى ، ومعذرة اذا اتخذت من الانسان هذه الصفة البغيضة الى نفسى وقلت ــ وحدى ــ :

أقول قررت دون الرجوع اليكم أيها الرفاق أن أتخذ أمرا خطيرا هذه الليلة ، سيخلصنا من هذا العذاب وسيريحنا من هذه الحياة النجسة الملعونة وانى أشكر العناية التى أتاحت لى أمس امتلاك هذه الفرصة الذهبية التى ستكون بمثـــابة حجر ضخم ألقى به فى مستنقع هذه الدار ·

وهنا قالت المائدة والساعة فى نفس واحد :

ــ احقا ماتقول ياأبى ؟

وقال البوفيه باهتمام ·

وكيف ذلك ياخير من ولدته أمه ·

ــ بالامس أيها الرفاق كان الرجل القصير على موعد مـــع (الزوجة) فى هذه الدار وهو كما تعلمون لايحسن التعبـــير ولم يحذق فن الحديث لذلك كتب رسالة طويلة عريضـــة افرغ فيها كل مافى قلبه من عبارات الغرام ، وتباريح الهوى ليعطيها اليها ، ولتستوعبها على مهل ، حيث أن الوقت قصير والظرف خطير ·· والعين لاتغفل ولما جاء الغبى كان من سوء حظه ، أو من سوء حظها هى أن صاحب الدار فى الدار ·

وكان المقعد الغبى يصغى باهتمام فقال لزميله هامسا :

ــ صاحب الدار الذى هو زوجها وصديقه ·

ــ صه ياغبى ·

وواصل المقعد الشيخ حديثه :

ــ وكان أن استقبل المضيف ضيفه وأكرم وفادته وجلس معه يقدم له اللفائف والمرطبات وكان من حسن حظنا أيهـــا الرفاق أن جلس الرجل القصير على قلب أبيكم فغافلتـــــه وانتهزت وهو يخرج علبة لفائفه الذهبية من جيبه واختلست الرسالة ودسستها فى جنبى ، ومن ثم خبأتها فى مكان مكين

فقال البوفيه على الفور :

ــ أين هى ··· أمعك ·

ـ هاهي معى . وما زالت في مـكانها من جنبى ، والان سيأتى الزوج وسيأتى الليلة مبكرا على غير عادته ، وسيأتى أيضا قبل أن تأتى زوجته ، وعندئذ سأجذبه جذبا الى ... وسأشد نظراته شدا حتى تقع على الرسالة .

وهنا صاحت الساعة فرحة :

ـ انك ياأبانا ...

ولكنها لم تتمم . لان النسمة التى كانت قـد وقفت من زمن بعيد . تصغى الى (همس الصمت) صاحت قائلة :

ـ صه . صه فقد حضر الزوج

وهنا عاد الجميع الى ماكانوا عليه حتى الساعة عـادت تواصل دقاتها .

ولكن ترى هل وقع الطلاق الذى عنه يتحدثون .

أما الساعة فتجزم به .

وأما البوفيه فيسخر منه .

وأما المقعد الشيخ فكل الذى يؤكده . هو أن الرسـالة فضتها أنامل الزوج .

عندما نحب النساء



عندما جاءه بريد الصباح ، وفض تلك الرسائل العديدة ، وجد من بينها رسالة مستعجلة تحتم عليه ضرورة السفر فورا الى الاسكندرية ، لينجز بعض أعماله الهامة ، ويتصل بالمحامي قبل أن تنظر غدا القضية التي رفعتها الحكومة على الشركة التي يديرها ... وفكر في الامر طويلا وتدبره .. ان زوجتـــه مريضة منذ يومين ، وهي تشكو صـــداعا حادا لا قبـــل لها باحتماله فكيف يسافر ويتركها وحيدة في الدار على هذه الحال لانه هو نفسه المريض لا هي ، لانه يستطيع ان يتصـــور كـــل شيء ويحتمل كل شيء الا أن يرى زوجته الحبيبة يوما منحرفة المزاج ، فهي عنده اكثر من امرأة ، وأكثر من زوجة منحها الله كل هذه الفتنة ، ومنحها كل هذا الجمال الذى هو متعة كل نفس وحديث كل عين ، فكيف يتركها وحدها مريضة ويغيب لا عن البيت فحسب وانما عن المدينة بأسرها ، قبل أن تسترد صحتها ، ويرجع الى وجهها ذلك الاشراق ، الذى يملأ البيت

نورا والقلب ابتهاجا •

واقبلت الخادم تحمل بين يديها قدحا من الشاى ، فنظـــر اليها وقال :

ــ ألم تستيقظ سيدتك بعد ؟

ــ استيقظت ولكنها ما زالت فى الفراش تعالج صـــداع الامس •

وهمت الخادم بأن تقول شيئا آخر ولكنه كان قد تركهــا وانصرف الى الغرفة التى تنام فيها زوجه فالفاها ما زالت فى الفراش ، وعلى وجهها الجميل سحابة خفيفة تكاد تأتى عـلى معالم حسنه وبهائه ، فاقترب منها وربت على رأسها المستلقى على الوسادة مكدودا مهدل الخصلات كجناحى طائر متعب ،فلم تلتفت اليه ولم تصغ الى ما يقول ، بيد أنه لما أخبرها خبـــر الرسالة التى وصلت اليه ورغبته فى ارجاء السفر من أجلها ، فتحت عينيها وانفرجت أساريرها رويدا ، وعلت ثغرها الشاحب ابتسامة حلوة أضفت شيئا من النور على الوجه كله، ثم غادرت الفراش ، وما هى الا لحظة أو لحظات حتى استعاد جسـدها نشاطه الخفيف الرشيق ، ووجهها قد استرد بسمته واشراقته اللتين كان زوجها يتمناهما كأنها لم تكن مريضة من قبل ،وكان شيئا من الصداع البغيض الثقيل لم يمر بهذا الرأس الجميـــل ويلازمه حينا ، فاندهش لهذا التغيير المفاجىء ، ولاسيما عندما ألحت عليه فى ضرورة السفر لانجاز أعماله التى هى عندهــا أهم من هذا المرض الذى اصطنعته اصطناعا ، فقد قيل لها أنه من الخير لها هذا التمارض أحيانا ان هى أرادت الحرص على نماء هذا النور الوليد الذى ينبثق الان رويدا بين أحشائها •

أفهمته ذلك ثم انثنت ضاحكة وهى تناوله حقيبة السـفر التى أعدتها له بيــــديها وتعقب : ــ ألست معى فى ضرورة المحافظة على نماء ذلك النور ــ ثم اقتربت منه والتقطت من ثغره قبلة طائرة ، وانصرفت الى النافذة المطلة على الطـــريق لتودعه حتى يتوارى ، ورفع لها يده فى الطريق وحياها تحية حارة من قلبه الذى يحبها •• ومن ثم انصرف وهو أسعد مايكون بهذا الطائر الجميل الذى يطل عليه من عشه الجميل

بيد أن شيئا عارضا جعله يرد يده سريعا ويواصل سيره مغمض العينين مبهور الانفاس . تلك هي النافذة المفتوحة التي تطل من البيت المجاور على النافذة المقابلة التي تقف فيها زوجه .. ان هذه النافذة تسبب له دائما الحيرة والقلق . وكثيرا ما جعلته يفكر تفكيرا فيه الكثير من العنف . وفيه أيضا الكثير من الضيق المرير الذى لا تحتمله النفس ، انها كثيرا ما تفتح في أوقات معينة من الليل أو النهار . ولو أن الامر وقف عند هذا الحد لما عناه في قليل أو كثير . ولكنها تفتح دائما في نفس الاوقات التي يكون هو فيها خارج الدار ، وهي تفتح فتحا غير عادى بأن تتقابل «دلفها» عند فرجة مستورة يسدل خلفها ستار سميك بحيث يرى الواقف خلفها الناس ولا يرونه . والغريب أيضا أن هذه النافذة بالذات هي التي تطل مباشرة على نافذة مخدع زوجته التي يحلو لها دائما أن تقف فيها . فهل هناك علاقة بين النافذتين .. ؟ وهل هناك صلة بين « زينات » وبين هذا الشاب العزب الذى يشتغل معيدا في كلية الحقوق ؟

وشعر فجأة بشيء كأنه الضيق يضغط رويدا رويدا على أنفاسه حتى ليكاد يخنقها . ولولا أنه كان قد بلغ القطار وجلس في استرخاء الى مقعده الوثير . لتوقف عن السير أو جلس في الطريق . ولما استراح شيئا .. أخرج علبة لفائفه وأشعل واحدة ومن ثم راح يتعمق بعينيه دخانها المتصاعد رويدا في التواء .. انه التقى بهذا الشاب وتعرف عليه وهو يركب معه الترام كل صباح . واستطاع أن يعرف من قسماته الفارع ووجهه الجميل وشعره المرسل المعنى به كثيرا ونظراته التي كان يلقيها على بعض النساء في الطريق ، بأنه نفر من الذين يباهون بالتحلل من أسار التقاليد الموروثة ، وقد آلمه هذا أكثر من مرة ، وأثار حفيظته ، ولما داخله في أمره بعض الشك أو خشي في المستقبل أن يداخله بعض الشك . سأل زوجه لماذا هي تكثر دائما من الوقوف في هذه النافذة بالذات فأجابته بأنها الوحيدة التي تطل على الشارع ، ومع أن هذا الجواب غير مقنع الا أنه أقنع نفسه به اقناعا .. ولكن أيجوز

له أن يقتنع بهذا الذى يداخله فيه الشك ؟ وهل يجوز للزوج أن يقنع نفسه على حساب شرفه وكرامته .. ولكن أى شرفه وأى كرامة .. بل أن جنون هذا الذى يحدث نفسه به ؟ أمن الممكن أن تخونه « زينات » ؟ أمن الممكن أن تكـون زوجتـه كذلك ؟ .. وجحظت عيناه واربدت سحنته وشعر بشىء من الضيق يضغط على أنفاسه رويدا حتى ليكاد يخنقها ، بيد أن دوى صفير القطار أيقظه فجأة من هذه الهواجس السوداء التى نفاها فى سرعة عن زوجته الحبيبة ، واعتدل فى جلسته وبدأ يستعد لمطالعة الصحيفة التى فى يده كما بدأ القطار يتحـرك ويغادر المحطة غير أنه حدث فجأة وعلى غير انتظار ما جعله يرتعد فى مكانه فرقا وينتفض جزعا وينظر مأخوذا كمن مسه طائف، فقد لمح مصادفة ذلك الشاب العزب الذى يشتغل معيـدا فى كلية الحقوق يقف على رصيف المحطة ويختلس النظر اليـه اختلاسا وان كان يتظاهر بتوديع أحد المسافرين . وما أن رآه حتى بادله النظرات . ولكن القطار كان قد غادر المحطـة وانساب كالثعبان الطائش وسط المزارع المترامية ... وغاظه من القطار هذا الجنون . لماذا لم يتمهل حتى كان على الاقـل استطاع أن يقفز منه ثم لماذا اختار هذا القطار السريع بالذات الذى يقوم من القاهرة ولا يقف الا فى الاسكندرية . ثم هو لماذا لم ير هذا الشاب قبل أن يتحرك القطار . ولكن هب أن شيئا من ذلك قد حدث وأرجأ سفره فماذا كان يحدث ؟ طبعـا لا شىء . لان الاحداث متوقفة على هذا السفر والا لما جاء هـذا الشاب الماكر ليتأكد من سفره بنفسه حتى تتم المؤامرة وترتكب الجريمة المدبرة ..

ولكن أى مؤامرة هذه التى يتحـدث عنها وأى جريمـة سترتكب ؟ أأصبح من المقطوع به فعلا أن هنـاك مؤامرة وأن هناك جريمة .. وأن هناك علاقة بين « زينات » وهذا الشاب ... وانفرجت شفتاه عن ابتسامة مريرة ، وانحدرت من عينه دمعة راحت تتدحرج على وجهه المضطرب الشاحب حتى بلغت شفتيه الباردتين فاستقرت عليهما ... ان هذا كله كان يجب أن يقطع به من زمن بعيد .. من شهور .. من سنوات .. من

اليوم الذى تزوج فيه هذه المرأة الجميلة التى أحبها من كل قلبه . وهو الان يحبها من كل قلبه ايضا . فتصرفاتها حياله كانت تثير الريبة دائما .. حبها له كل هذا الحب الجنونى .. عطفها هذا الذى تغدقه عليه بغير حساب . والعاطفة المشبوبة التى تخلقها له خلقا وهى بين ذراعيه .. كل هذه الاشياء كان يجب أن يفهم أنها مفتعلة . وأنها انما تخلقهـــا له خلقـــا . وتصطنعها له اصطناعا لكى تبعد عنه الريبة والشـــك .. ثم جمالها هذا الرائع الفارط الذى تحرص على أن تجعله دائما فى أوج بهائه وسحره وفتنته .. وانوثتها .. أنوثتها المتفجرة الملتهبة التى تكاد تتطاير حمما كلما لاذت بصدره أو استكانت بين ذراعيه . وهو الكثير السفر والتنقل والابتعاد عنها .أليس كل هذا كان يدعو الى التفكير والتبصر .. الى الرويه فى حياة هذه الزوجة الجميلة المثلثة أنوثة وشبابا اذا ما انشغل عنها زوجها بأعماله الواسعة .. لقد قيل له يوما ان الزوجة الجميلة كالزهرة البكر .. كلتاهما يثير أريجها النحل . فهل فكر فى هذا . هل جعله يوما موضع اهتمامه ؟ أبدا انه لم يفكر فيـــه سوى الان .. هذه الساعة . هذه اللحظة . وارتدت سحنتـــه ولمعت عيناه وجحظت جحوظا كبيرا وهو ينظر مغتاظا الى هذا القطار الذى ينأى به فى جنون عن القاهرة وود لو ارتطم رأسه هذا الكبير الاسود بصخرة وتحطم . اذن لعاد فورا الى القاهرة فى قطار اخر .. فى سيارة .. على قدميه .. ولكن أهو من الغباء الى هذا الحد .. من البلاهة والغفلة بحيث لم يفطن الى صوت النحل وهو يحوم على الزهرة الجميلة ، الا اليوم .. اليوم وهو ينهى اليها نبأ السفر ، لم يفطن الى مكرها وهى تدفعه دفعا الى السفر لكى يبتعد عن البيت .. وهى تتمارض لكى تبعد عنه الشك .. حقا ان المرأة كالحرباء تتلون دائمــا باللون الذى تريد .. ولكن من الذى أخبر هذا الشاب الخبيث بالذهاب الى المحطة ليتجسس عليه ويتأكد من سفره ، وهو لم يخبر واحدا بهذا السفر الا هى ولحظة السفر بالذات ؟ وفكـر طويلا حتى أجهده التفكير ، وفجأة لطم رأسه المحموم بيساره لطمة قوية كادت تحطمه .. انه أبله .. انه مجنون .. انها

وهى تعد له الحقيبة فرحة منتشية خرجت لحظة الى البهـو وأسرت شيئا الى الخادم التى انصرفت مباشرة الى الخارج ، ولما عادت بعد لحظات نظرت الى سيدتها مبتسمة وكأنها قالت لها شيئا يعنيها .. حتى الخادم تعبث به وتسخر منه ، وتعرف من أمره ما لم يكن يعرف ، وانفرجت أسـاريره عن ابتسامة صفراء شاحبة ، وأرسل بصره الى الفضاء ، والمروج الخضر التى يطويها القطار سريعا كما يطوى القدر حياته الان ..

ولكن ما الذى يضيره فى هذا .. أهو أول زوج تخـونه النساء ؟ أهو أول رجل أعماه جمال امرأة ؟ ان الامر لا يتطلب منه أكثر من كلمة واحدة يلقيها عليها .. يصفعها بها صفعا .. يطلقها ، فهى لا تستحق أن يقتلها .. انه من العار أن تلوث يده بدماء دنسة .. فقط كان يجب أن يكون ذلك من زمن بعيد .. من شهور .. من سنوات .. من اليوم الذى تزوجها فيه .. ولكنه كان يحبها .. كان يعبدها وهو ما زال يحبها ويعبدها ، انها المصباح الذى ينير له الطريق .. انها النبراس الذى يهتدى به فى ظلمة الليل الموحشة .. ولكن أيمكن لهذه العيون النجل أن ترى غير وجهه .. ؟ أيمكن لهذا الصـدر الحنون ، الذى كثيرا ما لاذ به كلما أراد ان يستشعر سعـادة الدنيا وبهجتها ، ان تلوثه أحضان رجل آخر .. ؟ أيمكن لهذا الجسد الفتى المشبوب الممتلىء حرارة وقوة وحياة ، والذى يفيض عذوبة وطهرا ويتألق نورا كأنه القمر .. أيمكن لكل هذا أن يغرقه الاثم فى بحره الملوث .. ؟ أن يجترفه الدنس الى مستنقعه الآسن .. ؟ وغير ذلك كله أيمكن أن يكون ذلك الجنين الذى بين أحشائها الان من ... وشعر بشىء كأنه الضيق يضغط رويدا على أنفاسه حتى ليكاد يخنقها .. وتفجرت الدموع من عينيه وراحت تنساب على وجهه المضطرب حتى بلغت شفتيـه الباردتين وراحت تتجمع عليها .. ولكن فجأة وقف القطـار فاسترد أنفاسه سريعا وانتصب واقفا ليرى تلك العناية التى حطمت رأس القطار وأوقفته ، ولكنه لم ير غير نفسه يقف حائرا على رصيف محطة الاسكندرية ، ينظر ذات اليمين وذات الشمال وحانت منه التفاتة فرأى قطارا آخر يتأهب الى العودة فهم بأن

يلحق به ، وأسرع لكى يتخطى الرصيف اليه ، ولكن الشركة التي يديرها ، وصاحب الرسالة المستعجلة التى وصلت اليه صباح اليوم كان قد تقدم منه وصافحه فى حرارة وشوق فماذا يقول له ؟ وفيم مجيئه اذا كان سيعود الان .. أيقول له الحقيقة .. أيقول له أن زوجه الان تخونه مع رجل آخر .. ؟ أيقول له أن « زينات » الان فى أحضان ذلك الشاب الذى يشتغل معيدا فى كلية الحقوق .. واربدت سحنته ولمعت عيناه وجحظت جحوظا مخيفاوراحت تقذف شيئا كأنه اللهب من تحت المنظار الاسود السميك الذى وضعه على عينيه وهو يسير فى الطريق غير منتبه الى حديث الرجل الذى يقص عليه أمر قضية الغد التى عليها يتوقف مصير الشركة وجميع من يعملون فيها .

وظل كذلك غير منتبه الى شيء مما يدور حوله حتى اقبل المساء فوجد يده من تلقاء نفسها ترفع سماعة التليفون ليخاطب « زينات » فى القاهرة . ليقول لها شيئا ليرى أهى فى البيت أم هى الان فى نزهة آثمة مع من تحب ، ورفع السماعة وتحدث واضطربت الخادم اضطرابا كبيرا عندما عرفت ان سيدها هو الذى يتحدث ولما سألها عن سيدتها زاد اضطرابها وقالت متلعثمة أنها هنا . فطلب منها أن تستدعيها وسمع الخادم تضع السماعة بنفس الاضطراب الذى تخاطبه به .. ووقف حينا متدهور الانفاس . ثم سمع صوتا خافتا ضئيلا يجيبه فى التليفون ويقول نعم أنا « زينات » . وجاهد نفسه حتى يبتسم وهو يقول :

ــ كيف صحتك ...

ــ ما زلت مريضة .... !

يا للرجل من خبث المرأة ... انها تتمارض لكى تبعد عنه الشكوك التى تساوره ولكنه سيكون أشد منها مكرا وخبثا . وسيفضح أمرها .. وغلف صوته بنبرات الحزن العميق وهو يقول :

ــ سأحضر فورا لاكون بجوارك وليكن مصير القضية ما يكون .

وإذا بالحية الرقطاء المتمارضة تنقلب الى امرأة صحيحة فياضة الحياة والشباب والقوة وتقول في اصرار :

ـ لا ... لا تجيء ... انجز أعمالك أولا ، انني بعافيه ، فقط صداع يزول سريعا .

ثم عقبت قائلة وهي تصب أنغام ضحكة عذبة في أذنيه .

ـ وما دمت أنت بخير فأنا كذلك ... !

وأفهمها متخابثا بأنه سيمكث خمسة أيام لا ثلاثة كما كان ينتظر ، ثم وضع السماعة التي تكاد تتحطم بين أنامله الباردة القابضة عليها في مزارة وعنف . ومن ثم راح يسير على غير هدى غير منتبه لما يدور حوله حتى انقضى الليل وأقبل النهار وانقضى أغلبه أيضا وهو لايدري من أمر نفسه شيئا ، ولامن أمر القضية التي نظرت شيئا ، وكل الذي يدريه أنه وجد نفسه يلقي بجسده القلق في قطار الغروب الذاهب الى القاهرة وما ان بلغ محطة مصر وجد نفسه أيضا يلقى بجسده القلق في احدى السيارات ، ويتمتم بصوت لايكاد يبين : «حدائق القبة»

وهبط من السيارة أمام الشارع . لا أمام البيت كما هي العادة .. ومن ثم راح يسير متباطئا كمن يسير بقدميه الى نهايته .. يتصبب العرق البارد من كل جارحة فيه . وتختلج شفتاه اختلاجا متواصلا وهي تلفظ أنفاسه الملتهبة كأنها النار تنقذف أمامه ... بيد انه فجأة وقف مأخوذا يلقى ببصره الى بعيد .. فقد رأى مخدع زوجته مضاء ، واستطاع أن يرى خلال الاسجاف الخفيفة المسدلة على زجاج النافذة المفتوحة الضوء الاحمر ينبعث منه متوهجا ... يالله انها النافذة الوحيدة المضاءة في الحي . وأرسل البصر وهو كليل واستطاع أن يرى من خلال الاسجاف الثريا الكبيرة قد أضاءت بمصابيحها الحمراء الثمانية ... تماما كأن الايام ترجع بهذا المخدع الى لياليه المنقضيات الى شهر العسل الذى قضاه مع زينات في هذا المخدع الوردي وكأنه قضاه مع كتاب خالد يطالع على مهل صفحاته الرائعات صفحة صفحة ، وهذه الثريا الحمراء ترسل ضوءها القاني على صفحات الكتاب الجميل فتحيلها مرة الى نور متوهج ومرة الى نار حمراء ... ولكن أفي هذا المكان الطاهر تسفك

الدماء ... أفي هذه البقعة الطاهرة يرتكب الاثم ؟ أفي الحرم المقدس يتخذ الكلب فراشه الوثير ... ولـــكن ماذا ... ؟ واربدت سحنته اربدادا مخيفا ، ولمعت عيناه لمعانا خاطفا وهم بان ينقل قدمه ولكن قواه خانته ،وأعصابه الخائرة غدرت به،وكاد يسقط لولا أنه القى بجسده المتهالك على الحائط الذى يسير بجواره وأسند رأسه الملتهب عليه . ووقف على هذه الحـال لحظات ، استطاع بعدها أن ينقل قدميه نقلا ثقيلا متباطئـــا بيد انه فجأة وقبل أن يبلغ البيت بأمتار ، رأى الخادم تتسلل منه وتسير مسرعة فى الظلام ، وما أن رآها حتى ارتعـــدت فرائصه ... كيف سيلقاها عند ماتعود الان .. وكيف كان يلقاها قبل الان .. بل كيف كانت هذه الخادم الماكرة الخبيثة تجيد فن التمثيل الى هذا الحد فتوليه كل هذا الاحترام .. ولكن أين هى ذاهبة الان . وفى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ وحانت منه التفاتة فرأى الجندى يقترب منه فخشى ان يرتاب فى أمره . لذلك دلف مسرعا الى البيت وراح يصعد الســدرج يتحسس الخطا حتى لا يحس به أحد . ولما بلغ الباب وجده مغلقا . فأخرج المفتاح الذى يحمله وفتحه فى حرص شديدوهم بأن يتقدم خطوة الى الداخل . ولكنه سرعان ما ارتد كمن رمى بسهم أصماه . فقد سمع صوت رجل فى مخدع زوجته .. وأنصت ولكنه لم يميزمنه شيئافقد كان الصوت يصل الى أذنيه غير متصل . فامتقع لونه وتقلصت شعرات رأسه . وبدت من تحت طربوشه الذى سقط فجأة كأنها الحراب المشهورة . كما تصلبت أنامل يده اليمنى وهى تتحسس المسدس وتقبض عليه فى عنف . وهم بأن يدفع الباب دفعا ويقتحم الخدر اقتحامـا عنيفا . بيد أن صوت الرجل عاد من جديد ينبعث الى أذنيه من المخدع . فارتد منهار القوى وعز عليه ذلك فأسرع الى قواه المنهارة ولم شتاتها سريعا . وهم بالاقتراب من الباب مرةأخرى ولكنه يسمع فجأة الخادم تعود وتصعد مهرولة على الدرج .وهو لا يدرى لماذا يزوعه شبح هذه الخادم الان . ولماذا ترتعـــد فرائصه من مجرد تصور رؤيتها وخشى أن تخونه قواه ان هـــو

رآها ، فأسرع بالاختفاء حتى تمر ٠
وراح من جديد يتحسس مسدسه وكأنه يعقد عليه أكبر الآمال ٠٠
وأقبلت الخادم مهرولة ٠ واقتحمت الباب مهرولة أيضا ٠ ودلفت الى الداخل مسرعة تحمل شيئا في يديها ٠ ورآها تتجه مباشرة ناحية المخدع ٠ فهم بأن يتسلل خلفها ويسبقها اليه ٠ ولكن فجأة انفتح باب المخدع من الداخل ٠ وخرج منه الرجل الذى كان فيه ٠ وما أن رأته الخادم حتى تعلقت به وقالت ذاهلة :
ــ كيف الحال يا دكتور ٠٠٠٠؟
فقال الطبيب وهو يسقط متراخيا على المقعد الذى قابله ٠
ــ قضى الامر ٠ وماتت سيدتك ٠

الثعبان الأبيض



لم تكن لتظن أن هذا كله سيحدث في يوم واحـد ، وأن نظرة عابرة تلقيها عفوا المصادفة على شيء ما ، ستذيب صمامات الماضي وتجعل الذكريات تتدفق أحزانا على مـذبح الحاضر الذي هو أشد مرارة من الماضي • لقد استيقظت هذا الصباح مبكرة كعادتها منذ خمسة عشر عاما اعتادت أن تستيقظ فيها مبكرة ، فألقت نظرة عابرة على غرفتها البيضاء ، مأواهـا وملاذها منذ هذا العمر ، منذ الخمسة عشر عاما التي قضتها ممرضة ثم رئيسة للمرضات في هذا المستشفى البعيد النائي الذي قام على طريق الصحراء ليطب جراحات الناس ويخفف آلامهم • ان الغرفة كما هي ، كل مافيها يتألق بياضا ، السرير الصغير الذي تنام عليه ، المقعد الوثير الذي بجانبه ، المشجب الذي تعلق عليه ملابسها ، الدولاب الصغير الذي تحفظ فيـه ثيابها ، حتى القميص الذي تنام فيه ، انه أيضا ناصع البياض

حتى لكأن هذه الغرفة البيضاء التي أعدها لها المستشفى لم تكن في الارض ولم تكن لانسانة من البشر ، وانما هي برج في السماء أعد لملاك طاهر من الملائكة ، وكأن هذا أطربها هذا الصباح على غير العادة وانتشى له قلبها وفرح به جسدها البكر الذي لم تدنسه شهوة من الشهوات • أو نزوة من النزوات • لذلك نهضت من فراشها الوثير الابيض خفيفة رشيقة تخب في قميصها الابيض الفضفاض كأنها عصفور جميل سـعيد بهذا الصباح الذي هب نسيمه رخاء من نافذة الغرفة المطـلة على حديقة المستشفى الكبيرة وراحت أمام مرآة دولابها الصغير ترتدي ملابسها بيد انها فجأة رأت زائرا دخيلا عليها ، تسلل الى غرفتها خلسة هذا الصباح فأثارها ثورة كبيرة • وتسلل اليها ضئيلا صغيرا حتى لايكاد يرى أبيض ناصع البيـاض حتى لايميز عن شيء في الغرفة •

ووقفت حينا ذاهلة تتأمل هذا الشيء الضئيـل الابيض الذي لايكاد يرى والذي كأنه حجر ضخم ألقى في جـدول حياتها الرقراق المنساب انسيابا هادئا فأثار أمـواجه ولوث ماءه ، وظلت كذلك حينا لاتعرف أطال هو أم قصر ، وانمـا تعرف أنها حركت ذراعها في هدوء ومدت يدهـا في رفق ولمست بأناملها المضطربة تلك — الشعرة البيضـاء — التي تسللت الى رأسها خلسة واستقرت بين طيات شعرها الفاحم المتدلية خصلاته كأنها أمواج الليل على كتفين بلون العـاج وعنق مشرئب كأنه فلق الصبح ، ونظرت الى الشعرة البيضاء طويلا وهي تتحسسها بأناملها المرتعشة ورأتها بين جـدائل الشعر الفاحم متمددة كالكسر المستطيل في آنية جميلة فهمت بأن تنتزعها انتزاعا ، ولكن هل يفيد ذلك شيئا •• ؟ وهل يمنع قتل هذا الثعبان من ثعابين أخرى تتسلل الى رأسـها خلسة في النهار أو في الليل ••• وهل هذا يحـول دون الاعتراف بالواقع المرير ؟ ولكن اهكذا سريعا مـرت الايام وتعاقبت السنون وقطعت من العمر أربعين عاما ، منها خمسة عشر في هذا المستشفى لم تغب عنه يوما أو تبرح غرفتهـا ليلة • وشعرت بشيء كأنه الضيق يكاد يطبق على أنفاسـها

فتراخت ذراعاها وأرسلت نفسها حارا طويلا طمس المرآة في عينيها وحجب عنها ذلك الكسر الذى أحدثه الزمن فى الآنية الجميلة فحولت وجهها ، وكأنها أحست بحاجة الى شيء من الهواء فذهبت الى النافذة ساهمة وارتفقتها ، ومن ثم راحت ترى صورا تتلاحق أمامها . رأت طفولتها الحزينة التى قدر لها أن تذوق اليتم بشقيه ... ذاقته يوم أن بحثت عن رجل بين الرجال لتقول له ... ابى ... فيقول لها . ابنتى فلم تجده أبدا بين الرجال وانما وجدته هناك بين المقابر عندما ذهبت يوما مع أمها لتزورا قبر الزوج الذى ثكلته الام والاب الذى فقدته الابنة ... وذاقته مرة أخرى يوم أن دخلت الدار فلم تجد أمها كالعادة تقدم لها الخبز الذى تأكله، وانما وجدت شيخا غريبا عنها ، هو جارهم فى المنزل يقدم لها عزاءه وهى لم تكن قد عرفت العزاء بعد . ويحنو عليها فيضمها الى أبنائه لان يد الله لم تغفل بعض الناس فى أشد الاوقات حرجا ..

وسعدت الفتاة فى كنف هذا الجار وعوضها الله خيرا عما فقدت فقد احب ابن الشيخ الفتاة وكان يماثلها سنا ، وعطف عليها وأنزلها من قلبه منزلة حسنة ... ولامر يجل عن الفهم شاء الله أن يجعل هذا الحب مباركا حقا طيبا حقا، وارف الظل موفور الثمار حتى ذاقت الدار ومن فيها طعمه لذيذا حلوا ، وحتى غدت الفتاة فى بيت الشيخ كأنها مصدر النعيم فيــــه والخير له . وكان لابد للفتاة من أن تحب هذا الفتى وتهبه قلبها ... انه هو الذى كفكف بحبه عبراتها وهدهد آلامهــا وبدل خوفها أمنا وعسرها يسرا ويتمها حنانا وهناء وأملا . وهو الذى جعل قلبها يتفتح أول مايتفتح على حب لم تستشعره من قبل ، ولم تكن لتعرف قبل أن تتذوق حلاوته أن فى الحياة شيئا اسمه الحب . وان فى الدنيا شيئا اسمه الغرام لذلك أعطته حياتها ودنياها ووسدت هذا الحب قلبهـــــا ومن ثم جلست عن قرب ترعاه وتغذيه وترقب نماءه ، ولذلك عندما فقدته كانت فجيعتها فيه قاسية لاتحتمل . ومصيبتهـا فى فقده عنيفة فادحة لم يقو عليها قلبها البكر الذى كأنه اناء انقلب بما فيه من هناء وسعادة . وهى لم تفقده ميتا كما تعـــودنا

فقد الناس أمواتا، ولم تفقده مريضا لاأمل في برئه أو شفائه ولم تفقده ايضا بعيدا نائيا فرقت الايام بينهما كما تعودت الايام أن تفرق بين الناس وتضرب بينهم بتلك الحجب الكثاف الثقال التي لاقبل لنا بها • وانما فقدته لما هو أقسى من ذلك كله • فقدته زوجا لغيرها وبعلا لامرأة أخرى من النساء ، فقد بعث القدر يوما في طريق سعادتهما بهذه المرأة الاخرى التي أخذته عنوة واقتدارا بقوة مالها • وفرط جمالها ، وفرق بين التي خلقت وفي فمها ملعقة من الذهب لاتأكل بها الا ذهبها وهذه التي لم تعرف شفتاها غير أنات اللوعة وزفرات الجوع وكانت الصدمة أعنف من أن تحتملها الفتاة أو يصبر عليها قلبها الذي لم يكن يعرف قسوة الجراح فعرف اقساها وأمضها فتركت القرية في ليلة حالكة الســواد وراحت تضرب في الطريق على غير هدى لاتملك غير طرف كليل مخضل ترسله حينا الى السماء وحينا الى الفضاء الممتد حتى حطت بها الرحال في هذا المستشفى البعيد ومن ثم راحت تبحث عن كل جريح تضمد جراحه وكل باك تكفكف عبراته لانها أعلم بقســوة الجراح وحرقة الدموع ، وهكذا ظلت منذ ذلك الزمن البعيد الذي لم تكن لتظن أنه بلغ الخمسة عشر عاما سوى هــذا الصباح الذي رأت فيه ذلك الشيء الابيض الكريه ، وما ان ذكرت الشعرة البيضاء حتى أنهلت دموعها وراحت تسيل دافئة على خدها الشاحب ، فغمرت وجهها كله وفاضت عليه ومكثت كذلك حتى سمعت فجأة صوتا انثويا رقيقا يناديها من خلفها فاستيقظت وعرفت انها كانت تبكي ومدت أناملها التي علمتها الايام كيف تجيد تجفيف الدموع ومسحت على عينيها ثم اصغت الى احدى المرضات من خلفها تقول :

ــ ان حالة مستعجلة أدخلت على غرفة العمليات ، فقــد صدمت احدى السيارات في الطريق سيدة وأصابتها عدة اصابات بالغة • •

وما أن سمعت ذلك حتى ارتدت الى نفسها سريعا وانصرفت تجفف دموعها الباقية، ومرت في طريقها باحدى الغرف فألفت ثلاثة من الاطباء يستعدون للدخول معها فلم تلتفت اليهم ،

وانما دلفت الى الغرفة فرأت أمامها سيدة يلوح عليها انها من أسرة كبيرة ملقاة كالخرقة البالية المبتلة غارقة فى الدماء التى تسيل من الساق والذراعين والتى تتدفق بغزارة من الانف والجبين الذى أحدثت به الاصابة كسرا أفقيا عميق الغور · فانخلع قلبها لهذا المنظر البشع الذى تراه وأسرعت بتضميد بعض هذه الجراح · وما أن مسحت على الوجه الذى طمسته الدماء حتى ارتدت جزعة مرتاعة فاغرة فاها كأنها ترى هولا كبيرا أو شيئا لم تكن لتتصور انها ستراه ·

··· انه وجه صاحبة الملعقة الذهب ··· انها زوجـــة ـ محمود ـ ··· انها ··· وزمت على شفتيها ، ومسحت على عينيها · ولما عاودت النظر ووجدتها حقيقة ، وقفت ترقب فى رفق الدماء وهى تسيل من الوجه الذى اختلس منها دنياها واستلب منها حياتها عنوة واقتدارا · وفجأة شعرت بشى كأنه الدوار يكتنف جسدها فأغمضت عينيها ولكن لترى سحبا كثيفة وغيوما سوداء هى ذكرياتها الحزينة التى ادخرتها طوال العمر · ورأت نفس الصور التى رأتها من لحظـات وهى فى النافذة بيد انها رأتها هذه المرة أشد سوادا عن ذى قبل ·· ان مبعث هذا كله هو هذا الوجه الذى أرسل به القدر اليها هذا اليوم لتضمد هى جراحه وتخفف آلامه ··· ولكن ··· وزمت مرة أخرى على شفتيها واطرقت الى الارض اطراقـة طويلة وتمتمت : أجل أرسل به القدر الى ··· ولكن ··· ولكن ماذا ·· ؟ انك مازلت تحبين محمود وما زال هو أيضا يحبك لانك تحبينه ···ان الذى حال بينكما هو هذه الصخرة التى تحطم عليها حبكما · والتى مازالت قوية تغالب كل شىء حتى هذه الجراح ، فما ضر وقد بعث بها القدر اليك أن ··· وفغرت فاها وزأرت عيناها واستندت الى الحائط مرتعـدة الفرائض لتمتم بشفتين مقرورتين ··· مستحيل ··· وما وجه الاستحالة فى ذلك ··· انك لن تفعلى أكثر من أن تتمى عملا بدأه القدر وعليك أنت اتمامه ··· ان هذه الموسى التى أمامك ان مرت على هذا الشريان انقضى كل شىء ··· خلا لك وجه محمود ··· ولكن ··· ولكن ماذا؟ أنت لاتحبين محمودا؟

اذن ... أنا ... وانفجرت دموعها وانسابت غزيرة بكماء على وجه شاحب وشفتين مقروزتين ، وهمت بأن تجفف هذه الدموع بيد أن أنة جريحة انبعثت الى أذنيها فأيقظتها فجأة وجعلتها تفتح عينيها ولكن على موسى صغيرة بيضاء كانت على مائدة صغيرة ... وحركت يدها شيئا ونظرت الى الموسى التى أمامها ، ثم مدت أناملها اليها وما أن تناولتهـــا ومسكت يد الجريحة المغمى عليها وهمت بأن تجهزعلى الشريان حتى سمعت فجأة هاتفا يهتف فى إعماقها قائلا : ان محمود مازال يحبهـا أيضا ... أجل ... ان محمود مازال يحبها .

والتفتت مذعورة لترى ذلك الهاتف ، ولكنها لم تجد الا الموسى فى يدها والشريان أمامها وشعرة بيضاء تروح وتجىء أمام عينيها .

ولكن ... ولكن ماذا ... وفجأة أقبل الاطباء الثـــلاثة وما هى الا لحظات حتى كانت معهم منهمكة فى اسعاف المصابة دون أن تفطن الى شىء او تحس بما يدور حولها حتى خارت قواها فأسندت رأسها الى الحائط ووقفت لحظات تعالج انفاسها المضطربة فسمعت الطبيب يقول لزميله هامسا :

— لابد من أن ننقل اليها دما الان والا فستموت

فقال الطبيب الثانى ولكن فى شىء من الالم :

— ومن أين لنا هذا الان ، ومن أين نجــد نوع الدم الذى يلائم دمها ؟

فقال الطبيب الأول وعلائم اليأس مرتسمة على وجهه :

— انها اذن ستموت .

وسمعت هى ذلك وهمت بأن تغادر الغرفة ولكن قـواها عادت فخانتها فأغمضت عينيها وعاودها وهى بجانب الباب ذلك الدوار الذى يكتنف جسدها فاطرقت الى الارض ، بيد أنها لم تلبث طويلا حتى سمعت ذلك الهاتف يهتف فى أعماقها قائلا ... ان محمود مازال يحبها ... فجحظت عيناهـــــا وارتعدت فرائصها ودون أن تدرى تقدمت من الاطباء الثلاثة الذين ارتسم اليأس على وجوههم وتمتمت بصوت لايكاديبين موجة حديثها الى الطبيب الاول :

ـ من حسن الحظ يادكتور انني ممن يصلح دمهـــم لاى شخص آخر .

وما هي الا دقائق حتى كانت مضجعة على مائدة مقـــابلة لمائدة المصابة ويد الطبيب تدور بآلة تنقل الدم من عروقها قطرة قطرة ، لتلقيه في عروق المصابة قطرة قطرة ، وكانت مقلبة بوجهها اليها تنقل عينيها بين الالة الدائرة الدقاقة وهي تنقل بين دقة وأخرى كتلة معينة من الدم في مجرى من المطاط بين ابرتي معدن ، تنتهيان عند جسد ... جسد من ... وأغمضت عينيها وزمت شفتيها وانتابتها تلك الاطراقة الطويلة وظلت كذلك لاتفطن الى شيء أو تحس بشيء الا عندما هـــز الطبيب الاول يدها شاكرا لها هذا الفضل الكبير الذي أنقذت به سيدة مجهولة من الموت . ففتحت عينيها شاحبة الوجـــه وردت اليه هذا الشكر في عبارات متلعثمة وهي تحاول اخفاء دمعة حائرة كانت تجول في عينيها الحزينتين ، وهمت بـأن تقول للطبيب شيئا لتنصرف ، بيد أن عينيها وقعتا على موسى صغيرة كانت ملقاة على الارض بجانب حذاء الطبيب فتناولتها وانصرفت وما أن بلغت غرفتها وألقت بجسدها المتعب المنهوك على ذلك الفراش الوثير الابيض حتى غابت عن كل شيء ، عن الموسى التي في يدها ، والمرأة ـ المجهولة ـ التي أنقذتها .. والوجه الحبيب الذي اطبقت جفونها عليه ، والشعرة البيضاء التي كانت تروح وتجيء أمام عينيها .

وفي الصباح لم تغادر غرفتها كالعادة ، ولم ترتد تلـك الثياب البيضاء الناصعة التي تخب فيها كأنها الطائر الابيض الجميل ، وسأل عنها الطبيب الاول وسأل عنها كذلك بعض المرضى الذين تعودوا كل صباح ان يرفرف عليهم قلب هذا الملاك الطاهر ويضمد بيده الرحيمة جراحهم ويهدهد آلامهم .

وذهبت احدى الممرضات الى غرفتها وطرقت الباب ، ولما لم تأذن لها بالدخول كالعادة دفعته في قوة فانفتح ولكن على جثة في ثياب بيضاء ، كانت في وسط الغرفة غارقة في لجة من الدماء ولم يثر هذا الانتحار دهشة الاطباء ، بقدر ما أثارت دهشتهم هذه الموسى التي كانت بجانب الشريان المقطوع . والتي التف عليها شيء دقيق لايكاد يرى حتى لكأنه في التوائه الثعبان الغارق في الدماء ، وفي دقته الشعرة الرقيقة البيضاء .

صالح الأمن



كاد يذهل عندما أقبل عليه أبو المعاطى شيخ الخفراء شاحب الوجه مضطرب الاعصاب وقال له في صوت خافت يرتعش :

ــ جناب البيه المأمور ... وسعادة معاون البوليس ... والبيه معاون الادارة حضروا فجأة في «الطرومبيل» .

ونزل النبأ على العمدة نزول الصاعقة ، الحكام الثــلاثة هنا ... في البلد .. على الباب :

وراح يبحث عن ــ العمامة ــ فى اليمين و ــ البلغــة ــ فى الشمال ، ويضع قدمه فى هذه ورأسه في تلك ، وأسرع مهرولا وخلفه أبو المعاطى ، وهو يلف شال العمامة ــ المزهر ــ على رأسه . وما أن رأى المأمور ومن معه أمام غرفة « التليفون » حتى صرخ :

ــ سعادة المأمور ..

وسرعان ماانطلق الخبر في القرية فتجمع الناس ، واعتلت النسوة السطوح ورحن يرقبن دار العمدة ويحيين السنتطومه

زوجته التي كانت هي الاخرى على سطح دارها ترى وتسمع وتكتم فرحتها ، ألم تكن هي زوجة العمدة الذى يجلس البيه المأمور في داره .

ولما استقر بهم الحال وأفهم المأمور العمدة انه انما جاء ليشرف بنفسه على حالة التموين التي ساءت في القرية ويشرف على الامن أيضا ويعرف من أهمل ومن لم يهمل . ليحاسب كل على عمله ، اطمأن العمدة الى حد ما ، ولكنه شغل بما هو عنده أهم من ذلك كله ٠٠ان أن الساعة الان الحادية عشرة صباحا وسيمكث جناب البيه المأمور في القرية على الاقل ثلاث ساعات وسيحل موعد الغذاء وانه لشرف عظيم أن يتناول جناب البيه المأمور الغذاء في داره . وسوف يكون ذلك حتى ولو أدى الامر أن يقسم عليه بالطلاق . ولكن ما الذى في القرية على سبعتها يليق بمقام البيه المأمور ٠٠ ؟ فطير مشلتت ٠٠ عسل نحل وقشدة ٠٠ أرز معمر ٠٠ بط ٠٠ كل هذه أشياء لا تتناسب أبدا مع مقام جناب البيه المأمور ٠٠ وسعادة معاون البوليس والبيه معاون الادارة ٠٠ ان فطومة لو لم تبح الديك الرومي اذن لستر الان وشرفه اليوم .

ودخل الدار وراح يتشاور مع الست فطومة في هذا الامر الهام . وأفهمته فطومة بأنه ليس عندها سوى ثلاث دجاجات هي التي تصلح ولكنها لا تكفى ولا تستطيع أن تفرط فيها بحال فهي التي تبيض كل يوم دون سائر الدجاجات وخسارة فادحة أن تذبح الدجاجة التي تبيض .ومصيبة أفدح أن لايجد العمدة في هذه اللحظة ما يتناسب ومقام سعادة البيه المأمور ٠٠وفكر وأجهده التفكير . وخرج من الدار وهو يعصر جبهته عصرا بيده لعله يهتدى الى حل . وضاقت الدنيا في وجهه وراح يسب ويلعن . وبينما هو كذلك اذا به يلمح فجأة خروفا يسير وحده الهوينا على القناة المجاورة للبيت وما أن رآه حتى واتته في الحال فكرة صائبة ٠٠ فكرة تخلصه من هذا الضيق ٠٠ بل تجعل عنقه يمتد شبرا على الاقل ٠٠ ولكن العاقبة ٠٠ ؟ هو لا يفكر في العاقبة الان ٠٠ ونظر الى الخروف ولمعت عيناه ٠٠ وأربدت سحنته وتلفت ذات اليمين مرة وذات الشمال مرات -

ولما لم يجد عينا ترى ولا أذنا تسمع ألقى بعباءته السوداء فوق الخروف ومن ثم حمله وقفل به راجعا الى الدار • وقبل أن تقول له زوجه شيئا كان قد أتى بالسكين وأجهز عليه ثم ترك للست فطومة أمر تهيأته وانصرف هو الى ــ المندرة ــ ليتباحث مع المأمور في شئون الضبط والتموين .

ومرت لحظات لم تطل كثيرا ثم ظهرت في الافق أم غسلى العجوز تتعثر في خطــــواتها لقصر نظرها تبحث عن دنياها الضائعة وثروتها المفقودة .:. وراحت تبحث في كل مكان وفي كل حارة وكل زقاق وفي كل رقعة من أرض القرية حتى خارت قواها ومع ذلك لم تجد له أثرا • وتجسمت لها شبح النكبة التي حلت بها فراحت تولول وتلطم خديها • ان لها سنوات تخدم الناس في البندر عند الشيخ عبد الصمد موظف الاوقاف حينا • وتوفيق افندي باشكاتب المساحة أحيانا وطورا وهي المرأة العجوز تجمع القطن وتنقي الارز حتى كلت قواها وكادت تفقد بصرها ومع ذلك لم تستطع أن تدخر من حيساتها ومن جهادها الطويل الشاق سوى مبلغ زهيد هو الذي اشترت به هذا الخروف الذي عقدت عليه كل آمالها اذا ما كبر وباعته بثمن أكثر • انها كانت تمكث الاسبوع بطوله تكاد تبيت على الطوى لكي تجمع خمسة قروش تشترى بها حفنة من الحنطة لا لتأكلها وهي الجائعة بل ليأكلها الخروف • وكانت كلمـــا تذكرت ذلك زاد نحيبها وأعولت وولولت وتابعت ســــيرها كالمجنونة تجوب الازقة والطرقات وتسأل هذا وتتقصى من هذه كل ذلك والناس يمرون بها كراما أحيانا وغير كرام حينا الى أن قيض الله لها غلاما صغيرا كان على القناة ساعة ان اختطف خروفها اختطافا فقال لها الحقيقة •

وما أن عرفت العجـــوز ذلك حتى أسرعت تركض الى دار العمدة وهالها أنها رأتها تموج بالناس فسألت فقيل لها أن العمدة عنده أضياف أعزاء • وهنا تعالت دقات قلبها لانهـــا توجست خيفة وهمت بأن تخترق السدود والقيود المضروبة حول دار العمدة ولكنها عجزت فزاد خوفها وتعالى نحيبها ومر

بها مصادفة أبو المعاطى فاستبشرت الخير على يديه ، وأسرعت نحوه وتعلقت به وأسرت اليه خبرها فما كان منه الا أن لطمها على وجهها لطمة قوية لا تحتملها امرأة عجوز فسقطت عـــلى الارض مغمى عليها . وظلت كذلك الى حين . ثم لمـــا أفاقت راحت تفكر وهى تجفف دموعها . لمن تشتكى العمدة ومن فى القرية أو غيرها يستطيع ان يصعد أمامه ويأخذ بحقهـا الذى اغتصبه اغتصابا .. ؟؟

وطرأت عليها فكرة صائبة .. أن بينها وبين نقطة البوليس مسيرة ربع ساعة فقط فلماذا لا تذهب الى حضرة ـ الملاحظ ـ وترتمى عند قدميه وتبثه شكواها وهو وحده الذى يستطيع أن يقف أمام العمدة ويأخذ لها حقها كاملا غير منقوص . وما إن اقتنعت بذلك حتى راحت تضرب فى طريق النقطة تجفف دموعها حينا وحينا تتحسس عصاها السنط الطـــويلة التى تتوكأ عليها .

وكان الضابط شابا حديث السن وحديث العهد بالعمـــل أيضا . لذلك كان لا يزال طيب القلب طاهر الخلق لم تلوثه بعد قاذورات المجتمع ولا سفالات البيئة . ولذلك تملكتـــه الدهشة عندما أبلغته أم على شكواها . ولولا الحقيقة التى كانت تطالعه من خلال دموعها لما صدق دعوها . ولما أقنعته بصحـــة ما تقول وشهد شاهد كان معها وهو لغلام الصغير الذى رأى الحادث بعينيه فثارت ثائرته وغضب غضبا شديدا وراح الالم يحز فى نفسه اذ كيف يمكن ان يحدث هذا فى القرية أو فى غيرها من القرى أو حتى فى الدنيا كلها . ان مثل هذا العمدة لو كان حقا فعل هذا لوجب الزج به فى السجون .

ولذلك أسرع من فوره وحرر مذكرة الحـادث وأثبتها فى محضره . ثم شفعها بهذه العبارة التقليدية : « انتقلت الى مقر الحادثة للتحقيق واثبات الحالة » . ثم امتطى صهو جواده ومن خلفه أحد الجنود . ومن ثم أم على تركض لاهثة خلفهما الى آن بلغ الركب القرية وأقبل على دار العمدة .

ولشد ما كانت دهشة حضرة الضابط عندما دلف الى المندرة

فوجد سعادة البك المأمور وحضرة معاون البوليس وحضرة معاون الادارة ومعهم العمدة حول المائدة التي كانت رائحة الشواء اللذيذ تتصاعد منها • وشرائح الضأن متراصة عليها •

وحسب التقاليد أدى حضرة الضابط التحية العسكرية لسعادة البك المأمور وحسب التقاليد أيضا أمر المأمور حضرة الضابط بالجلوس على المائدة ومشاركتهم الطعام • وأطاع الضابط النشيط الامر الصادر اليه وجلس ليأكل •

وبعد الغذاء مال الضابط على حضرة معاون البوليس وأسر اليه أشياء • ثم مال حضرة معاون البوليس على حضرة الضابط وأسر اليه أشياء •

وفي المساء كانت أم علي تتوكأ على عصاها السنط الطويلة في طريقها الى سجن المركز ريثما تعرض في الغد على سعادة البك المأمور بعد أن حرر لها حضرة ضابط النقطة محضر جنحة بتهمة البلاغ الكاذب ضد حضرة عمدة الناحية الساهر على صالح الامن •

مسكرة (١)



كانت النفوس فى تلك الليلة التى يتحدث عنهـــا التاريخ ساهمة واجمة يكتنفها الهلع ويلم بها الذعر ويدنو منها الخوف ويسرع اليها الجزع فريح الصحراء تهب مغبرة مكفهرة خانقة تعشى العيون وتغشى القلوب ويزعج نواحها الآذان · والبوم ينعق نعيقا مخيفا رهيبا موحشا فيملأ النفوس والقلـــوب والآذان رعبا وفزعا ، وأهل قريش بين ذلك كله يسيرون وقد شخصت أبصارهم ووقرت آذانهم وانعقدت ألسنـــتهم فهم كالصم البكم العمى الذين لا يفقهون · لقد أنذروا بأن محمدا على الجبل جاء ليحاربهم وأنه ينتظر حتى ينجلى هذا الليل البهيم ويسفر عن صبح مشرق ونور مبين · لان محمدا لايحارب أعداءه غدرا ولا يأخذهم قسوا أو ختلا · وما هى الا ساعات قـــلائل

(١) أخذت فكرة هذه القصة من كتاب « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين

حتى ينجلي هذا الليل البهيم ويسفر الصبح عن اشراق ونور وينقض محمد وجيشه على قريش .

وتنظر « سلافة بنت سعيد بن سهم » الى هذا كله فيأخذها الروع الذى أخذ أهل قريش وتسمع الى هذا كله فيتملكها الجزع الذى تملك أهل قريش. ولكنها تختلف عنهم جميعا بقلبها المغلق الذى عرفت كيف تحكم اغلاقه فلا يتسرب اليه اليأس أو ينفذ اليه الخوف . وكيف تيأس سلافة أو يأخذها خوف أو هول ولو كان باعثه محمدا ؟ ! .. ان جمالها الرائع الساحر الذى تتحدث به قريش جميعا علمها أن لا تيأس أو تخفض جناحا .. انها أجمل نساء قريش طرا وأرفعهن بهذا الجمال شأنا وانبههن ذكرا وأقدرهن به على دفع الرجال الى غمرات الموت . لا يكلفها هذا الا لفتة من جيد أو بسمة من ثغر أو رنوة من طرف أو حفنة من مالها الوافر تلقى بها فى يد من تريد . بيد أن اليأس كاد يأخذها عندما انفض سامرها فى تلك الليلة وخرجت من دارها مخمورة تترنح فرأت قومها وما هم فيه من قلق وخوف فانطلقت صرختها مدوية فى قلب الصمت الموحش فهتكت ستره ومزقت حجبه وظلت تصرخ حتى بلغت صرخاتها آذان أهل قريش جميعا فتجمعوا حولها ينظرون ما تقول لهم « أم الصقرين » فبهذا كانت تنادى وقالوا : ستجد لنا القرشية مخرجا من هذا الهول الذى سيطبق علينا بعد حين . ولكن سلافة — وكانت أشدهم كفرا وشركا وحقدا على محمد وغيظا منه وموجدة عليه — خيبت سريعا هذه الامال . اذ تنمرت فجأة لقومها واعتلت حجرا كبيرا وصرخت فيهم ثلاثا وهى تضع كفيها على جناحى الصقرين مصعب وصفوان .

يا آل قريش : حرمت عليكم الخمر ن لم تقاتلوا محمدا ...

يا آل قريش : حرمت عليكم المضاجع ان لم تقاتلوا محمدا ..

يا آل قريش : حرمت عليكم سلافة ان لم تقاتلوا محمدا ..

صرخت بذلك ثلاثا ثم عادت فرددتها ثلاثا أخر . فغاظها أن صرخاتها هذه المدوية لم تجد آذانا تسمع ولا قلوبا تعى ، فأخذها السعار الذى تعود أن يأخذها كلما ذكر اسم محمد فاربدت سحنتها اربدادا مخيفا رهيبا ودفعت بابنيها القويين

فى غلظة وعنف وامتشقت حساما باترا كان فى يد واحدمنهما وصرخت صرخة لا تصدر الا عن قلب عرف كيف يختزن الحقد اختزانا ويحتفظ بالموجدة ويحرض عــلى البغض وقالت وهى تغادر قومها : ستحارب النساء محمدا ان لم تحـــاربوه أنتم يا رجال ٠

وعندئذ فقط أفاق القوم من سباتهم يزمجرون كالاســـود ويهدرون كالموج ومن ثم اندفعوا خلفها فى الصحراء كالوحوش الضارية تنهب الظلام نهبالتظفر بفريستها، وما أن بلغوا الجبل حتى كانت حرب ضروس بين الجيشين فرحت بها سلافة فرحا لايقدر وسعدت بها سعادة لم تستشعرها نفسها منـــذ زمن بعيد ٠

وظلت وسط جيشها تروح وتجىء تكر وتفر ٠ تدبر وتقبل ترى النصر على هيئة السراب فيتهلل وجهها وترى الهزيمة حقا فيأخذها الهول الذى يأخذها كلما ذكر اسم محمد الى أن وقفت فجأة شاخصة ذاهلة لا تطرف ، تنظر بعينين جاحظتين الى سهم ينطلق مزغردا فى الفضاء ٠٠ وما أن يبلغ صدر ابنها الكبير مصعب حتى يشقه شقا ويستقر بنصليه فى قلبـــه ، فتسرع اليه ذاهلة واجفة قد أخذها الخوف أخذا وأطبق عليها الرعب اطباقا ٠ وتسأله وهى تنتزع السهم من موضع القلب: يا بنى ! من أصابك ؟

فيقول الصقر لكبير وهو يجود بأنفاسه على صدرها : ما أدرى يا أماه ٠ ولكنى سمعت قائلا يقول خذها وانا ابن الاقلح ثم أصابنى السهم ٠

يقول لها ابنها الكبير ذلك ثم يموت على صدرها فيضطـرب ذلك الصدر ويضطرب فيه الصراخ اضطرابا ثم يتفجر فجـأة كأنه النار أو كأنه الرعد أو كأنه هما معا ٠ وتظل كذلك الى أن ينطفىء ذلك الصراخ ٠ تطفئه الفجيعة الفاجعة وتحيله الى عويل يشبه الانين ٠ أو أنين يشبه العويل فلم تعد تسمع لـه الا عواء خافتا كذلك الذى كان ينطلق منذ أول الليـــــل فى الصحراء فيعشى العيون ويغشى القلوب ويوقر الآذان ويملؤها هولا وجزعا ٠

وتفيق سلافة الى نفسها شيئا وتهم أن تقول لنفسها شيئا ولكنها ترتد فجأة تزم شفتيها ذما كريها بغيضا مروعا فقد أخذها الهول مرة أخرى فتقف شاخصة ذاهلة لا تطرف ، تنظر بعينين جاحظتين الى سهم جديد ينطلق مزغردا فى الفضاء وما أن يبلغ رأس ابنها الثانى صفوان حتى يشجه شجا ويستقر بنصليه فى قلب الجمجمة فتتطاير فروتها وتتناثر عظامهافتسرع اليه ذاهلة واجفة قد أخذها الخوف أخذا وأطبق عليها الرعب اطباقا وتسأله وهى تنتزع السهم من الجمجمة : يا بنى ! من أصابك ؟

فيقول الصقر الصغير وهو يجود بأنفاسه على صدرها :

ما أدرى ياأماه ولكنى سمعت قائلا يقول خذها وانا ابن الاقلح . ثم اصابنى السهم .

يقول لها ابنها الصغير ذلك ثم يموت على صدرها كما مات ابنها الكبير منذ لحظات على صدرها أيضا وتنظر الام الى ابنيها هذا ملقى شمالا قد شق السهم صدره ، وهذا ملقى يمينا قد شج السهم رأسه . فتشخص عيناها ويضطرب صدرها ويضطرب فيه الصراخ اضطرابا ولكنها لم تصرخ . وانما تسير آخر النهار صامتة مع فلول جيشها المنهزم . وما أن تبلغ دارها حتى تنظر ذات اليمين فلا ترى مصعبا وتنظر ذات الشمال فلا ترى صفوان ثم تنظر مرة أخرى الى بعيد فترى الاول قدشق السهم صدره وترى الثانى قد شج السهم رأسه . فترد بصرها هذا الذى ذهب الى بعيد . وترده سريعا مبهورة الانفاس قد أخذها السعار الى الخمر لتطفىء بها تلك النار التى تحرق جسدها ، ولكنها ما أن تبلغ القدر التى فيها خمرها المعتقة وتهم أن ترفعها الى شفتيها حتى تردها سريعا منذرة للات والعزى صوما حتى تشربها فى قحف رأس ابن الاقلح . وخرجت هائمة على وجهها تذيع فى أهل البادية وأعراب الحجاز ان من جاءها برأس عاصم بن ثابت بن الاقلح فله مائة من الابل .

ومائة من الابل عدد ليس باليسير ومال ليس بالهين واغراء كبير ليس الى رده من سبيل . وكان أن أغرى هذا النذر الجميع

ولكن أنى لهؤلاء جميعا برأس ابن الاقلح هذا الذى آزر الله به نبيه فكان خير من ثقف فى الدين ، وكان خير فارس يذود عن حياض المسلمين ، وكان أقرب الناس الى قلب محمد وآنسهم اليه وأعزهم عليه وأكرمهم عنده ، ولكن فتنة المال كانت هى الاخرى أشد مضاء وأكثر اغراء .. وأقض مضجعاالنفوس الذين لا يؤمنون .

وكان أكثر هؤلاء جميعا اغراء وفتنة وافتتانا بهذه الابل المائة جبير بن سهم وهو أخو سلافة لابيها وكان رجلا رقيق الحال خامل الذكر ولكنه قوى الشكيمة صعب المراس له دهاء وله فطنة وله رأى سديد فى كثير من الامور التى يراد بها الشر بالناس ، وفكر جبير جيدا وفكر طويلا وقضى أياما لا يغمض له جفن لانه قضاها فى احكام الخطة التى تمكنه من الظفر بالابل المائة اذا ماظفر برأس ابن الاقلح .

ولما اطمأن الى خطته التى أحكمها ، ذهب الى جماعة من هذيل وتشاور معهم فى الامر ثم اصطحب نفرا منهم أقوياء أشـــداء يعرفون كيف تحذق فنون المكر وكيف تدبر أفانين الدهاء . وما أن اقبلوا على الرسول « حتى زعموا له أنهم قد آمنوا به وأسلموا له وأن دينه قد مشى فيهم ، وسألوه أن يرسل معهم من يفقههم فى الدين ويعلمهم شرائعه ، يظهـــرون الاخلاص ويضمرون الغدر ، ويريد الله لامر قضاه أن يختار نبى يثرب ستة من أصحابه وأن يؤمر عليهم عاصم ابن ثابت بن الاقلح وان يرسل هذا النفر من أصحابه مع أولئك الغادرين ، فما هى الا أن يقتربوا من مكة حتى يظهر الخفى ويصرح الشر ، واذا الذى كان يعلن ايمانه يصرخ فتستل جماعته الماكرة ســــيوفها » ويظر أصحاب محمد فلا يرون الا الغدر ويتلفت أصحاب محمد فلا يرون الا الجبل فينحازون اليه فيلحق بهم جبير وجماعتـــه معاهدا على أن لا يقتلهم أو يمسهم بأذى ان هم سلموا اليه رأس عاصم لتشرب القرشية فى قحفه الخمر ، فأما أصحاب عاصم فينظرون الى السماء ويقسمون على أن تكـــون رؤوسهم فداء رأس صاحبهم ، فما كان لمسلم أن ينزل على رأى كافر قط ، وما كان لرأس مسلم أن تلهو به كافرة قط ، ثم يســـتلون

سيوفهم وتكون الحرب بينهم وبين هذه الكثرة التي أرادت بهم سوءا ·

وتمتد هذه الحرب العوان بين الفريقين الى ساعات طوال · حارب فيها أصحاب النبي حربا لم يشهد التاريخ مثلها قسوة وعنفا وايمانا بالله ورسوله حتى أبادوا جماعة هذيل عن آخرها ولم يبق منها سوى جبير وصاحبه عميرة بن النضر ورجل ثالث هو العباس بن عامر · قد شج سيف أحد المسلمين جبهتـه فاستلقى بعيدا يعالج جرحه الغائر حينا ، ويرسل أنينـه وتوجعه حينا آخر · وحارب جبير وأصحابه حربا شعـواء فيها كثير من القسوة والغلظة والعنف ، حتى قتلوا وفد النبي عن آخره ولم يبق سوى عاصم وحده على الجبل يكر ويفـر ويستمد العون والقوة من السماء التي لا ينى يرنو اليهـا بعينيه وهو يدور حول جبير وصاحبه · وجبير يكر عليه حينا ثم يفر منه في أكثر الاحيان وظل الثلاثة كذلك الى أن أراد الله أمرا وأطلق جبير سهما طائشا استقر في صدر عاصم وأصاب منه مقتلا ·

ونظر ابن الاقلح الى الدم الغزير الذي يتدفق من صدره ، والسهم الطائش الذي استقر في قلبه فغمره سرور لا حد له واكتنفته لذة كبيرة فاضت على جسده الذي يرتعش رعشـة الموت فقد كانت أعز أمانيه أن يستشهد في سبيل الله · بيد أن الذي آذاه وهو يموت هو أن تلهو تلك القرشية برأسه ، وتشرب في قحفه الخمر · ولما شعر بهذا الذي يكتنفه وأحس أن هذا الاذى يلم به الماما ويمسه مسا رفيقا طورا وعنيفا طورا آخر اتجه الى السماء ونظر اليها طويلا وقد اغرورقت عينـاه بالدموع وتمتم شيئا · ثم أطبق شفتيه ، وأغمض عينيه ··

وفرح جبير وصاحبه عميرة بمقتل عاصم فرحا كاد ينسيهما عناء ذلك اليوم الطويل الشاق ·

وبعد ان استراحا قليلا واستعادا نشاطهما أقبلا على جثته يريدان أن يجتثا رأسه بيد أنهما قد شهدا ظلة من الدبر تقوم دونه فتحميه وتمنعهم أن يصلا اليه · ويعمل جبير أقصى مافي طاقة انسان ويعمل صاحبه عميرة أقصى ما في طاقة الانسان

أيضا ، ولكن الظلة كما هي تقوم دونه فتحميه وتمنعهما من أن يصلا اليه ، ويشير عليهما صاحبهما ذلك الجريح الذى شج سهم أحد المسلمين جبهته فاستلقى يعالج جرحه ويرسل أنينه وتوجعه — يشير عليهما بأن يدعاه حتى يأتى الليل فتنصرف عنه هذه الظلة من الدبر وينجلى لهما رأسه ويستصوب جبير هذا الرأى ويستصوبه أيضا عميرة ويجلسان بعيدا عند ربوة عالية ينتظران الليل وينتظران أيضا لقاء سلافة ليقدما اليهـا رأس غريمها فتقدم لهما الثراء الطائل والخير العميـم • ولم يطل انتظارهما طويلا لان الليـل كان قد أقبـل سريعا • ولكنه لم يقبل وحده كما كانا ينتظران وانما أقبل ومعه شيء غريب آخر لعله أقرب ما يكون الى العجب العجاب • فقد أقبل الليل وأقبل معه سيل كاسح جارف حمل الجثة ومضى بها الى حيث لا تراها عين ، ولا تبلغها يد ، ولا تصل اليها قدم •

ووقف جبير مأخوذا ووقف معه صاحبه عميرة ذاهلا ، ينظر أحدهما الى الاخر ويريد أن يقول له شيئا فلا يستطيع ولايقدر حتى على أن يحرك شفتيه الى أن سمعا صوتا ينبعث من تحت أرجلهما فالتفتا اليه فاذا به صاحبهما الجريح الذى شج سهم أحد المسلمين جبهته يقول لصاحبيه : لقد سمعته — وهـو يموت — يقول شيئا •

فقال له عميرة : ماذا كان يقول ؟

فقال الرجل الجريح : سمعته يقول :

— « اللهم انى حميت دينك فى أول النهار فاحم لحمى فى آخر النهار »

فاستشاط جبير غيظا وألقى فى وجه صاحبه الجريح بحفنة من التراب عفرته ، ثم تركه وانصرف مع صاحبه صامتا لا ينبس متخاذلا يرزح تحت أعباء الخيبة الخائبـة التى أثقلت كاهله فأفقدته حتى حسه •

أما عميرة فكان يسير بجواره يغمض عينيه حينا فيرى حبلا طويلا من الابل يبلغ المائة سيصبح هو وصاحبه به من أثرياء قريش وسادتها ومن أهل اليسار فيها • فتغمره السـعادة

وتفيض عليه الفرحة ويفتح عينيه فرحا مبتهجافلا يرى الاظلاما حالكا أشبه بالظلمة التي ترين على قلبه وتطبق على نفسه بعد تلك الخيبة الخائبة ، وينظر الى صاحبه جبير الذي يسيربجواره فتأخذه الشفقة عليه وعلى ما يرتسم على وجهه من علامات الحنق والغيظ واليأس المرير فيغمض عينيه ثانية ولكن على حبل طويل من الابل يبلغ المائة ..

وظل كذلك يغمض عينيه فلا يرى الا حلما جميلا ، ويفتحهما فلا يرى الا ظلاما الى أن حانت منه التفاتة عارضة فاذا به يرى شيئا عجيبا لم يفطن اليه من قبل لانه لم يكن قد رآه . فأغمض عينيه سريعا وهو يضطرب اضطرابا شديدا فيه خسوف وفيه ذعر . ثم عاد ففتح عينيه لعل هذا الذى أخافه يكون وهما ولكنه رأى الشيء الذى رآه ورآه واضحا جليا فراح يتأمله في الليل ويدقق فيه ويمعن النظر فاذا بعينه لم تخطيء واذا بوجه جبير لايختلف في قليل أو كثير عن وجه ابن الاقلح ، انه يشبهه تماما حتى يكاد يكون هو . وفجأة واتته فكرة ، وما أن فكر فيها حتى اربدت ملامحه وجحظت عيناه في الليل جحوظا غريبا لذلك أسرع فأبعدها عن خاطره سريعا . وأغمض عينيه ولكن على حبل طويل من الابل يكاد يبلغ المائة . به سيصبح «وحده» من أثرياء قريش وسادتها ومن أهل اليســـار فيها . فغمرته اللذة واكتنفته السعادة . وفاضت عليه الفرحة ففتح عينيــه فرحا مبتهجا ولكن على وجه جبير هذه المرة . ان الفرق حقيقة بين الوجهين لا يكاد يذكر . فقط تقطع هذه الاذن ، وهـــذه الشفة ، وتفقأ هذه العين ، ويجدع هذا الانف فيكون وجه ابن الاقلح بعد احتراب السيوف .. ثم من ذا الذى سينكر أنه وجه عاصم ؟ ان من ينكر هذا فعليه برأسه ، وعاصم قد مات وجرفه السيل وليس من سبيل اليه .

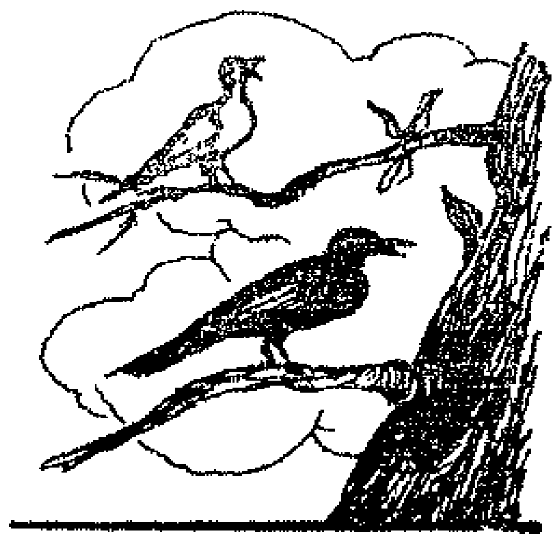
ولكن ...

وأغمض عينيه . ولكن على حبل طويل من الابل يبلغ المائة . وبينما هو ينعم برؤية هذا النذر العزيض كانت يده تتحسس

فى رفق سيفه الباتر ! وما أن تلمسه واطمأن اليه حتى فتح عينيه فجأة ولكن على رقبة جبير فأطاحها بضربة غليظة قاسية
وحمل عميرة رأس جبير وسار بها فى الظلام يتحسسها بيديه ويسويها بسيفه . يفقأ هذه العين ويقطع هذه الاذن ويجدع هذا الانف . وينظر الى الظلام الممتد أمامه فلا يرى الا حبلا طويلا جدا من الابل ظل يسير خلفه الى أن بلغ سلافة فألقى فى حجرها بما يحمل .
ونظرت سلافة الى رأس غريمها فى الدنيا ، وعدوها فى الدين ، وقاتل ابنيها ومذل قومها فأخذتها الفرحة أخذا عزيزا فقامت فى أهلها مزغردة . وما هى الا لحظات حتى التأم الشمل وانتظم سامرها وكان الشوق الى الخمر قد قتلها قتلا . فراحت تعب منها ما تشتهى . ويعب منها سمارها ما يشتهون حتى لعبت الخمر برؤوسهم كما لعبت الفرحة بقلوبهم ،وأبت سلافة الا أن توزع على قومها فيهذه الليلة الكثير من الخيرات فنحرت الابل وذبحت الشاء ووزعت عليهم قدور الخمر . كما أبت أيضا الا أن تنعم العيون كما نعمت البطون وكما نعمت القلوب فى هذه الليلة السعيدة فارتدت ثوبا غاليا للرقص . كانت لا ترتديه الا لمن يشتهون جمالها فقط . ومن ثم راحت وسط سامرها ترقص على رنين الدفوف وبين يديها قحف رأس ابن الاقلح تشرب فيه الخمر .
وبينما الجميع كذلك يسمرون ويضحكون سكارى تلعب برؤوسهم الخمر ويلعب جمال سلافة بقلوبهم اذ بهم يسمعون صوتا يأتى من بعيد كأنه فى آذانهم لفحات النار ، فالتفتوا جميعا فاذا برجل جريح ينزف الدم بغزارة من جبهته التى شجها سيف غليظ قاس . يقبل عليهم راجفا يكتم بيمناه الدم الغزير المتدفق من جرحه الغائر ، ويلوح للقوم بيسراه وهو يقول صارخا :
— لاتشربى الخمر ياسلافة ، انه قحف رأس أخيك .

ويهرع القوم فى ذعر الى الرجل الجريح فاذا به العباس بن عامر أشد الناس كرها لمحمد • وأكثرهم حقدا عليه وبغضـــا الى دينه • فيحيطون به كما كانوا يحيطون منذ لحظات بسلافة وهى ترقص ويسألونه الخبر فلا يجيب • وتسأله سلافة الخبر فلا يجيب أيضا فترتمى عليه تلطم خديها وتشق ثوبها فـــلا يقول شيئا • فتهزه هزا عنيفا فيفتح عينيه • ولكنه لا ينظر الى سلافة ولا ينظر الى القوم ولا الى الدماء التى تتـــدفق من جبهته • وانما ينظر الى السماء وينظر اليها طويلا وطويلا جدا وكأنه يتأمل فيها شيئا ثم يغمض عينيه رويدا رويدا وهو يتمتم بصوت لم تسمع قريش أعذب منه رنينا ولا أوقع منه ترنيما أشهد أن لااله الا الله وان محمدا رسول الله •

ربيع الجسد



كانت الخميلة تقع في مكان ناء عند أطراف الصحراء ، ليس من السهل تحديده أو الاهتداء اليه ، وكانت أيضـــا من غير الخمائل التي نألفها ، فقد كانت مسورة بســــور من زهر الياسمين قام على أوراق بيضاء ناصعة من أوراق الورد الابيض المتضوع ، وعلى كل زهرة من أزهار الياسمين هذه ، القائمـة على السور ، قوس مشدود بها سهم ، وليس على النســيم العليل الا أن يهب رخاء فتنطلق الاسهم حيث يشاء لها « الهوى » أن تنطلق . أما أشجار الحديقة فهى من السوسن الذى لم نألفه

تحن .. ففي نهاية كل فرع وعلى رأس كل زهرة نبتت فيه ترى زنبقة كبيرة بيضاء ضمت هي الاخرى أفوافهـــا على قلب وردة حمراء قانية لم تتفتح بعد ، وترى الزنبقة هذهوقد مالت بالفرع المياد كله الى أسفل حيث شارفت تلك الجداول الكثيرة المنبثة تحت الاغصان يتدفق منها ماء زلال كأنه الكوثر ، وفي وسط هذه الخميلة التي اسمها « خميلة الحب » ترى عرشـــا كبيرا ، صنع كله من الورد الابيض أيضا على هيئة قلب كبير مقام على سبعة أغصان من أغصان النرجس وقد جلس عليـه « كيوبيد » اله الحب ، ومن حوله سبع فتيات عاريات كأنهن في جمالهن الحور العين ، وقد وقفن منحنيات كالقوس ، وقد مدت كل واحدة ذراعها العاجي الابيض الى الامام فغدا كالسهم المسدد ، وكلما هب النسيم العليل تطاير معه ذلك الشعـــر العسلي المسدل من الخلف على الردفين ، ينساب من الامام على الصدر العريض الفخور بتوأميه ، فحال بين القمر العاشـــق والندى الواله المتشوف ، فلا يسعهن وقد كشف النسيم عن هذا كله الا أن يكتمن أنفاسهن غيظا من ذلك النسيم العليـــل المتخابث الذي يأبى أبدا الا أن يكشف دائما ــ عن تلك المناطق المحرمة في الجسد الجميل .

وكان من عادة كيوبيد أن يسر ايما سرور لهذه المعابثـــات البريئة ، فمثلا همسات النسيم للجمال البكر ، كانت تطربه ولثمات القمر الذي كان يطبعها بمهارة فائقة على أماكن البروز في الجسد المشبوب العاري كانت تسره ، غير انه في هــــذه الليلة لم يفطن الى شيء من هذا السحر ولا من هذا الجمـــال الخالد الرائع المتناثر حواليه ، فقد كان مضطربا على غيرعادته قلقا لا يكاد يستقر لحظة على عرشـــه الوردي العطر ، ذلك لان الانباء كانت تترى عليه من المدينة غير سارة ، فكلها تنـــذر بأوخم العواقب وتنبيء بالنتيجة المحتومة للجيش المنهـــزم والقائد المغلوب ، فالضحايا قد كثر عددهم ، والجراح لاسبيل الى التئامها ، والثغرات التي أحدثها العدو على طول جبهـــة القتال قد اتسعت واستعرت وغدت كأنفـــاس القدر تتلظى

وتزأر نارها وكلما حاول جنوده أن يسدوها بالزفرات والدموع اختلط عليهم الامر لان زفرات المحبين في هذه الايام ، لم تعد لها تلك الحرقة التي تبلور القلب وتطهره وتروضه على الصبر والنضال ، والدموع لم يعد لها ذلك الصفاء الطاهر الذى تهتز له النفس ، ولم تعد لها تلك النار المستعرة التي تؤثر في الحبيب ، حتى عبارات الغرام والهيام التى كانت فيما مضى تسكر القلوب وترنحها ، غدت هي الاخرى عبارات باردة لاأثر لها ولا معنى تذهب وتتلاشى كما تتلاشى الظلال ·

وكانت نتيجة ذلك كله أن جنوده غـدت تخر صرعى في الميادين بالالوف كل يوم ، لان الجندى الذى لم ينجح في تأدية رسالة الحب بين الحبيبين ، عليه أن يقدم نفسه تكفيرا عن هذا الاخفاق ، وكانت نتيجته ايضا أن اضطرب حبل الوفاء وتعددت هذه الحوادث التي يسجلها بين لحظة واخرى هذا المرصد الوردى القائم أمامه ·

ونظر كيوبيد الى تلك الزنبقة البيضاء الكبيرة التى أمامه يسجل عليها النسيم بأنفاسه العبقة الحوادث أولا بأول ·· فألفاها قد سجلت حادثا مروعا ما كان ليظن أبدا بأنه سيحدث وهو أن تلك الراعية الجميلـة التى ترعى الشاء في الواحة الخضراء بجانب الخميلة ، والتي باركها هو بنفسه يوم أن جمع بينها وبين ذلك الاعرابي الذى كان يرعى الابل قريبا منها في الصحراء حتى هذه الراعية الجميلة قد ضلت سواء السبيل ووضعت السيف في موضع الندى ، وارتكبت أمرا ادا في غفلة من الذى أودع قلبه أمانة في عنقها ·

وما أن رأى كيوبيد هذا حتى ثارت ثائرتى واضطرب فؤاده وظن أمرا خطيرا ، ظن أن العناية الالهية التى تمـده بالوفاء والاخلاص والطهر قد تخلت عنه ، والا فما سر كل هـذه الاحداث التي تحدث ··· وما أن واتاه هذا الخاطر البغيض حتى ارتعدت فرائصه ، وكاد يجب قلبه ، وأراد أن يجرب ·

هل تخلت عنه حقا العناية الالهية ؟

والتفت وهو شاحب اللون ، زائغ العين ، وأشار اشارة خاطفة الى النسيم العليل ، واذا بسبعة أسهم حادة الانصال تنطلق فى قوة غاشمة واذا بها فى غير ما رحمة ولا شفقة تشج صدور الفتيات السبع الواقفات حوله عاريات، واذا بها تخترم الصدر ، وتبيت فى القلب ، واذا بالفتيات السبع يهوين مترنحات متأودات ، وقبل أن يبلغن أرض الخميلة المخضوضرة ألفين سبعة فتيان أشداء أقوياء ، فحمل كل واحد واحدة على صدره ومن ثم تسللوا بهن من الخميلة ، يرقص أمامهن النسيم فرحا ، وتتمايل أوراق الورد لهن طربا ، ومن خلفهن يصب القمر عليهن ضحكاته وينثر عليهن رقاه وتعاويذه التى تحفظ المحبين وتحرسهم من العين .

وكان هذا كله بمرأى من كيوبيد ،فارتدت أنفاسه ،وعاودته ابتساماته التى أنارت الكون ، وراح قلبه من شدة الفرح ينشد نشيد الولاء والاخلاص للعناية الالهية التى مازالت تمده بروح من عندها ، وتبث فيه روح الود والخير .. والولاء للناس .

... اذن ماسر هذه الاحداث ..؟ وما هى هذه الانباء السيئة التى ترد اليه من جنوده !

ومد اصبعا وردية الى زنبقة حمراء صغيرة بجانبه ، ومسها مسا رقيقا ، واذا بجنوده من حوله تأتى من كل صوب راكعة ساجدة تنشد لاله الحب على قيثارة القلب أنشودة الجمال ، فمال عليهم يستفسرهم عن سر الانباء التى ترد اليه منهم ، فخروا جميعا سجدا مرة أخرى ، ثم تقدم جندى جميل تحفه هالة من النور المصفى الذى خلق منه . اسمه ــ الوفاء ــ وقال بصوت ملائكى عذب الترنيم والترجيع .

«طاعة واخلاصا ، ايها الملك الكريم الذى بعث به الله ليملأ الدنيا نورا وطهرا .. اننا لم ندخر وسعا ولم نأل جهدا .. ولكن الشيطان قد مده ــ الشر ــ بجنود عرفت كيف تبذر

بذورها السوداء في عقل انسان هذا الزمن الذى غدا لايصغى الينا الا اذا أراد أن يتفكه .. لهذا نحن يامولانا الخالد أشقى ما تكون بهذا الشيطان الذى راح يمشى على الارض مرحا ، أملا انه سيخرق الارض ، ويبلغ الجبال طولا . »

ولم يرد كيوبيد أن يسمع أكثر من ذلك .. فأعاد أصبعه الوردية الى تلك الزنبقة الحمراء ومسها مسا رفيقا رقيقا فاذا بالنسيم العليل يعبق ويتضوع ، وبالجنود الذين خلقوا من نور تسبح عليه كذرات من لجين منطلقة الى المدينة لتستأنف صراعها الازلى فى ميدان الدنيا .

ورأى كيوبيد وقد انصرفت جنوده ، أن يذهب هو بنفسه الى المدينة ويبارك ساحة القتال ، ويشرف على هـذا الصراع الابدى ، فهبط من على عرشه الوردى الكبير ، وقبل أن يبلـغ أرض الخميلة الخضراء الطاهرة كان على الهيئة التى اختـارها لنفسه ، وهى هيئة بلبل صغير جميل ، رخيم الصوت عذب النبرات لاينفك عن الترنيم ، وما أن غادر أرض الخميـــلة وبلغ الشاطىء المتاخم لها المسمى بشاطىء الحب ، حتى كانت الطبيعة قد أحست بمقدمه فهرعت اليه واستقبلته فرحة كـل الفرح مرحبة كل الترحيب ، فالمروج قد اخضرت وغـدت بساطا متراميا يسير عليه ، والهواء الندى غدا خمرا آلهيـة يشرب منها ، والشجيرات تمايلت وراحت تظلله . والنخيلات طابت عناقيدها وراح بلحها يتساقط ذهبا حواليه ، والبحر بأمواجه الفرحة يوقع اعذب الالحان ، كل ذلك وهو يســير مبتهجا الى أن بلغ مكانا على الشاطىء أشبه بربوة جميـــلة تظللها صفصافة كبيرة قد أرخت أغصانها عليها وكأنها تضمها وتعانقها وكان هذا المكان قد أعده أحد جنوده لحبيبين جديدين سيلتقيان عنده لاول مرة بعد لحظات ، وسر كيوبيد جدا لهذا المنظر ، وقدر فى خادمه هذا الولاء ، ورأى أن يتريث قليـلا لينعم بهذا الجمال الفاتن الاخاذ ولينتظـــر الحبيبـين حتى

جاثيا فيباركهما بنفسه. ويمسح عليهما بيده الطاهرة فاقترب من الربوة وهم أن يقفز على الصفصافة ليشرف عليهما من عل ولكنه ما أن اقترب قليلا ، حتى انتفض مرتعـــدا غاضبا . وتصلبت أساريره وأربدت ملامحه ، ذلك لانه رأى « غرابا » عجوزا بشع المنظر كالح السحنة .. يأكل بمنقاره الاسـود المدبب من جسده حتى راحت دماؤه تسيل سوداء بلون سحنته وكان هذا الغراب هو «الشيطان» فتقدم منه البلبل فى غضب وجرأة وقال له محتدما :

ـ ماذا تصنع هنا أيها الشيطان الرجيم ، وفيم انتظارك ؟

فقال الشيطان ضاحكا وقد أخذ بجمال البلبل الغضبان :

ـ جئت لانه بلغنى أيها الملك الكريم انك غررت باثنين من البشر ، بأن أثرت فيهما بألفاظك ـ الطاهرة ـ حيث اهتديا به الى طريقك .. طريق ـ الخير ـ الذى سيترديان فيه بفضل دهائك وشعوذتك .. وقد بلغنى أيها الملك الــكريم . ان المسكينين على موعد هنا فى هذه الساعة فجئت بنفسى انتظرهما لاهديهما الى الطريق السوى . طريق الجسد والفناء فيه .. طريق الشهوة الجامحة التى كتب لها البقاء على لوح اللــذة والاستمتاع .

فقال البلبل غاضبا وقد احتدم غيظه :

ـ ولكنك لن تضل من هديته أنا ، وباركتــه .. انك لن تستطيع .

فقال الشيطان مبتسما مطمئنا :

ـ ولكنك لن تجد أقدر منى على تضليل من هديت ..

وصمت لحظة نشر فيها جناحه الاسود الاجـرب وعقب :

ـ وأنا أعتقد أن هذا اللقاء دبره لنا أبانا الخالد «الشر» لحكمة تعود على الدنيا بالغنم والكسب ، فأنا وانت فى صراع دائم ما دامت الدنيا . فلم لا تثوب الى رشـــدك وتنضم الى ، أنا بالشهوة واللذة والجسد ، وانت بالغرام والحب والروح ..

وبذلك نغرق الدنيا في بحر ـ الشر ـ الذي يجب أن تغرق فيه وبذلك نريح ونستريح ، ألست معى أيها الملك الكريم ؟ ؟ •
فقال البلبل ، ومرجل غيظه يكاد ينفجر •

ـ ولم لاتثوب انت الى رشدك ايها الفاجر ، وتنضوى تحت لوائى ، أهديك وأطهرك ، وأستعين بك على توجيه الانسانية الى الخير ••

فقال الغراب مبتسما •

ـ ولكنى أشد منك مراسا • ولا تنس ان الغلبة لى •

فقال البلبل :

ـ ان الغلبة للخير • الذى اليه المصير •

فقال الغراب جادا :

ـ ان مبعث شقاء الانسانية هو هذا الخير الكاذب الذى به تتشدقون فاعلم أيها الملك الكريم الذى سخره الخير المموه أن الخير ومشتقاته الخيالية • الطهر • والشرف والقلب • والروح والوفاء • والاخلاص • ماهى الا أسماء سميتموها ، وترهات خلقتموها ، وأضفيتم عليها من معسول ألفاظكم ما جعل لهاهذا الرونق الخلاب الذى هو مبعث شقاء الانسانية وسر تعاستها ولولا ذلك ما بعث بى أبونا الخالد ـ الشر ـ العظيم ومكن لى فى الارض ، الا لاهدى من أغويته انت •

فقال البلبل :

ـ انك واهم •• انك فى ضلال مبين ، انك أضعف بكثير مما تظن ، أن الغلبة لى أنا ، والبقاء لى أنا ، والخلود لى أنا • ألم تعرف قول الله :

وهنا انتفض الشيطان ، وارتعدت فرائصه ، وقال فزعا :

ـ اننا هنا نتكلم فى الارض، فاى شأن لنا بما أنزلت السماء، ومع ذلك أتراهننى ؟

ـ على ماذا ؟

ـ أينا تكون له الغلبة ينضوى تحت لوائه الأخر •

ـ قبلت ولك أن تختار ٠

ونظر الشيطان ، فألفى الحبيبين البريئين قد أقبلا يتهاديان وقد يمما شطر الربوة الجميلة التي تواعدا اليها والتي أعدها لهما الحب ٠٠ فقال على الفور :

ـ على هذين الحبيبين نتراهن ، انت تختار من تشاء وأنا لي النهاية ، ثم نبدأ صراعنا ، والذي ينتصر يأتمر المهزوم بأمره

فقال الحب فرحا :

ـ انت الذي تختار أولا ٠

فقال الشيطان قبل أن تفلت الفرصة :

ـ اخترت الفتاة ٠

وقبل أن يرتد الى البلبل طرفه كان الغراب قد تحول الى ذرة سوداء تطايرت في الهواء فاستنشقتها الفتاة ودون أن تشعر تسربت الى عقلها وكمنت فيه ٠ وتحول البلبل هو الاخر سريعا الى نغمة متضوعة حملها النسيم العاطر الى الفتى فاستنشقها ومن ثم تسربت الى ـ قلبه ـ واستقرت فيه ٠

وأقبلت المرأة التي هي الشيطان ، والرجل الذي هو الحب على الربوة وجلسا عليها يتناجيان ٠٠٠ وتركت (هدى) طرف ثوبها عامدة فانحسر عن فخذ بيضاء ناصعـــة ٠ ما أن رآها « محسن » تبلورها ٠ واكتنازها ، حتى أغضى قائلا :

ـ انظري الى هذه الربوة الجميلة ٠٠٠ وهذه الصفصـافة التي أرخت شعورها علينا لتظللنا ٠٠ وهــذا البحر الذي تصدح موسيقاه تحت أقدامنا ، وهذا النسيم العليـل الذي يداعب شعرنا في رفق ٠٠ ان هذه أشياء سخرتها الطبيعـة لتبارك حبنا الخالد ٠

ثم نظر الى عينيها الواسعتين ٠ واستطرد يقول :

ـ ثقي ياهدى أن حبنا سيخلد خلود هذا النسيم العليـل خلود هذا البحر الرابض تحت أقدامنا ٠

فقالت وهي تلتهم بعينيها من شفتيه ٠

ـ أحقا أنت تحبني ؟
ـ كما أحب الله الذي خلقك ، وأحب قلبي الذي أحبك •
ـ ماالذي تحبه في ؟
ـ أحب في عينيك صفاءهما ونورهما ، وفي صوتك براءته وفي ذيلك نقاوته ونصاعته •• احب في نفسك طهـــارتها وحبها للخير ، واحب من جراء ذلك فيك الله الذي جعل الجمال آياته الكبرى ، والذي جمع بيننا في هذه الســـاعة التي تفضل العمر •

قال لها ذلك ، فكسرت جفنا مترنحا مهزولا ، وأرخت هدبا طويلا أسود على عينين ساحرتين وقالت سكرة الأعطاف •

ـ أما أنا فأحب فيك شيئا واحـدا لا يعدله شيء عند المرأة أحب فيك قوتك •

واقتربت منه ، والتصقت به ، ومكنت لفخذها العـــارية الملتهبة من فخذه الخدرة النائمة ، وأردفت بصوت ضمـــخ السحر كل نبرة فيه •

ـ أحب فيك هذا الساعد المفتول ، وهذا المنكب القوى • وهذا الصدر العريض الذى يحمي كل من يلوذ به ، واندلعت في جسدها شرارة فألهبته وأججت ناره ، فعاودت النظر اليه محمومة ، ولما رأت تخبط نظراته ، وحيرة لسانه ، ووجهـــه الذي صبغه الخجل بحمرة قانية ، قالت ذاهلة محمومة :

ـ صدقني •• صدقني •• ليس في الوجود كله غير ثغرك هو الذى يطفيء هذه النار ، وليس غير ساعدك هذا القوى هو الذى يحرك العود المياد ، وليس غير صوتك هو الذى أخر له ساجدة •• أبدا وليس غير صدرك أنت يحد من ثورة هـذا النهدي الارعن الطائش•• صدقني حتى هذا الخجل أحببته فيك

وأدنت ثغرها من ثغره ، وصدرها من صدره ، وثارت ثائرة الرجل ـ وهم أن يضمها الى صدرها الخافق ، ويلهب ثغرها الظامىء لثما وتقبيلا ، ولكنه انشغل بصوت ملائكي كان يناديه من أعماق ضميرة ، فنحاها برفق وهو يقول :

ـ ولكن السماء ترقبنا ، والله ينهانا !

فقالت وقد همت ، بعدأن أفلت من يدها زمام الجسدالثائر :

ـ ولكن الدنيا تدعونا .

وأسرعت لتلقى بالجسد المشتعل بين ذراعيـــه ، لتبترد بأحضانه بيد ان الصوت كان مايزال يناديه ، فارتد خائفــا فانزلقت قدمها فجاة فهوت الى البحر .

ونظر محسن وهو على الربوة الى الحبيبة الطائشــة التى تغرق ، فانهلع قلبه ، وجحظت عيناه ، ودون أن يشعر ألقى بنفسه خلفها فى اليم المتلاطم الامواج .

وبعد حين خرج من اليم حاملا لها على صدره بعد ان تطهرت من رجس الشيطان المنهزم الذى فر هاربا ، وألقى بجسدها الخائر الذى انهكته تراتيل التوبة والاستغفار فى المساء ...

ولما أفاقت من هذا الحلم المزعج ، والكابوس الثقيل ، الـذى جثم حينا على عقلها فأضله والفت محسن ينظر اليها فرحـــا ـ بالنجاة ـ هممت اليه بشفتيها الطاهرتين ، فتقدم منهـــا وطبع على ثغرها قبلة خالدة ، رجعت السماء ترانيمها ، وراح كيوبيد يرقص على أنغامها ، ويطلق سهامه ، التى راحت فى الفضاء تدوى مزغردة تنشد أناشيد الظفر .

وبينا الحبيبة تسير فى جانب الحبيب منتشية تتهـــادى والبلبل ـ الخالد ـ فى طريقه الى عرشه الوردى القائم وسط الخميلة المتضوعة ، ومن حوله جنوده الابرار ترتل اناشـــيد النصر ، كان الغراب الكالح السحنة فى الصحراء ناشرا جناحيه الاسودين على عدد من ـ الكلاب ـ تنهش فى جسد غض كان فيما مضى لاعرابية جميلة ترعى الشاء فى الصحراء .

نساء في الليل *



كنت اذ ذاك أربح من صوري ولوحاتي الفنية التي أرسمها مبلغا ضئيلا ، لايتجاوز العشرة جنيهات في الشهر، ابعث منها باثنين لامي التي تعيش في الريف واقطن بواحد في غرفة ضيقة فوق سطح احدى العمارات الكبيرة ، ثم انفق بعد ذلك كل ما تبقى لى في شيئين اثنين ، هما الرغيف الذى اتبلغ به والخمر التي تنسيني فجيعتي في «المرأة » التي أحببتها والتي اختطفها الموت عنوة من بين يدى .

وكما وجدت في الزجاجة بعض التعزية ، وجدتها كذلك في المسكن الذى طوح بى القدر اليه بعد أن ماتت آمال وخلفتني في هذه الدنيا غريبا ، كما جئت اليها غريبا ، فقد كانت الغرفة التي أسكنها أشبه بالبرج المعلق في السماء

أطل منه على المدينة النائمة فى الليل ، فتسلوح لعيتى رؤوس عماراتها الكبيرة ودورها الصامتة أشبه بالمقابر التى يحتويها الفناء ويريم عليها الصمت ، ومن الاشياء الجميلة أيضا التى كانت تطربنى كثيرا ، ذلك الكشك الخشبى الكبير الذى يقوم أمام غرفتى على السطح والذى ضم عددا كبيرا من الدجاجات المختلفة ألوانها وأحجامها ، أعدت لطعام احدى الاسر الثرية التى تقطن العمارة • هذه الدجاجات كنت أحبها حبا لا حدله• وكثيرا ماكنت أقضى معها نهارى أرسمها وأداعبها واعنى بهـــا عناية فائقة ، وكثيرا أيضا ما فضلتها على نفسى فكنت آتى لها بالرغيف الذى اتبلغ به وأغمسه فى الماء ، ثم أنثر أمامهـــا فتاته ، متناسيا أننى سأجوع طوال اليوم ، وكثيرا أيضـــا ماكنت أحزن حزنا لاحد له اذا نقصت دجاجة أو أكثر ، وأقول لنفسى بأى حق نستبيح لانفسنا أن نفجع نفسا فى حياتها ونذبحها بأيدينا ونأكل لحمها ، واذكر مرة اننى قضيت ليلة لم أنم ولم يغمض لى فيها جفن ، لاننى عدت فى المساء فوجدت الدجاجة البيضاء الكبيرة ذات الطوق الذهبى التى أحببتها ، وجلست أمامها زمنا أرسمها ، غير موجودة ورأيت مكانها نقطا من الدم ، فعرفت بأنها ذبحت ، وبأنها فجعت فى نفسهـــا وتصادف اننى فى اليوم الثانى غادرت غرفتى وذهبت الى السوق أشترى رغيفا وزجاجة من النبيذ ، ولما عدت مع الظهر صعدت معى فى المصعد فتاة فارعة الجسد ، عليها مسحة من جمـــال قديم ، ما زالت آثاره تغالب السنين وتتشبث بالشفاه والعينين وكانت تحمل على يدها صينية كبيرة خرجت لساعتها من التنور تنام فى قلبها دجاجة سمينة موثوقة الجناحين والفخذين • وقد سوتها النار وانضجت لحمها فامتقع لونى لرؤيتها لاننى عرفت فيها دجاجتى البيضاء الحبيبة ولذلك رحت أنظر اليها وأتأملها وكأن عينى تعلقت بها ولاحظت على الخادم ذلك وكأنها أشفقت على عينى المعلقتين ووجهى المتقع فقالت مترفقـــة بصوت وقور ••

ـ ألست أنت الذى يقطن على السطح ؟

فقلت وكنت قد رأيتها مرارا تصعد اليه لتسقى الدجاجات وتطعمها •••

نعم .

فقالت وهى تنظــــر الى ثيابى الرثة ولحيتى الكثة المغبرة ووجهى الذى غام خلف الشعر الذى لم تعمل فيه المـوسى من شهور ....

ـ ولكن ألا تشفق على نفسك من البرد فى هذه الغرفة العارية وهذا الشتاء القارس ؟

وهممت بأن أقول لها شيئا ولكن المصعد كان قد وقف بنا فانصرفت وانصرفت أنا كذلك . غير اننى بعد حين وقد بدأت الزجاجة العزيزة تهدهد نفسى وتروح عنها ، أحسست يـدا تفتح باب الغرفة وكانت يد الخادم الوقور التى جاءت تقـدم الى طبقا به حفنة من أرز تعلوها قطعة من لحم الدجاجة التى رأيتها فى الصينية ، فتألمت لان هذه الفتاة الطيبة ظنت غير الحقيقة وأنا انظر الى الدجاجة فى المصعد ولكنى لم أشـأ أن أفجعها فى خلقها هذا الطيب وكرمها هذا الذى تشكر عليه . ولا سيما انها قالت لى فى حياء وخجل : ان هذا كأمر سيدتها فتناولت منها الطبق شاكرا لها هذا الفضل .

وبعد أن انصرفت ألقيت بحفنة الارز الى الدجاجات التى فرحت كثيرا وهى تلتهمها التهاما ، أما قطعة اللحـم فهممت بأن آكلها بيد اننى تذكرت بأنها من لحم الدجاجة البيضــاء التى كنت أحبها فالقيت بها جانبا .

ومن هذا اليوم توطدت علاقتى بهذه الخادم الطيبـــة التى أحبتنى وعطفت على وراحت تعنى بشئونى وتنظف لى ثيابى كلما رثت وعلاها البلى ، وكثيرا ماكانت فاطمة تسرق نفسها وتصعد الى لتجلس معى تحدثنى عن نفسها وعن حياتهــا الثقيلة المملة التى تسير على وتيرة واحدة ، كـل ذلك وأنا أنشغل عنها حينا بحياتى التى تشبه حياتها ، وحينا بزجاجتى التى أحبها ، ومكثنا كذلك الى أن حدث ذات مرة وكان النهار قد أوشك على الرواح ، وكنت أحب رواحه جدا لأمتع نفسى بمنظر الشمس الغاربه ، فوقفت على السور اشترك فى توديع يوم من أيام العمر ، وأنظر الى شمسى أنا الاخــر وأكفنهــا بالدموع التى تذرفها عيناى على آمال التى ماتت ، وخلفتنى

مشردا فى هذه الدنيا أعيش بغير مأمل ، وبينا أنا كذلك اذا بى أسمع من خلفى حفيف ثوب يتماوج ووقع اقدام تسعى على مهل كأنها النسيم يتهادى ، فالتفت واذا بى فجأة أقف مذهولا مبهور الانفاس ، فقـــد رأيت أمامى آمال ٠٠ آمال بعينها آمال بقوامها الفارع الفاره المياد وشعرها الكستنائى اللامع الذى تهدل على الكتفين وانساب على الصدر الذى لاح لعينى غديرا عاريا من فرجة الروب الحسريرى الذى ترتديه ورأيت معه الوجه الفاتن المتألق الذى حرمت من طلعته تسع سنوات كاملة والهدب الطويل الساجى الذى كان يهـدهد بلفتاته قلبى كلما قست عليه الايام وبرحت المحن ، ورأيت كل ذلك فجأة وعلى غير انتظار فهممت بأن أصرخ وأهتف من فرحتى وأقول آمال ٠٠ بيد أن فاطمة كانت تقف خلفها فقالت على الفور بصوتها المترفق الوقور :

ـ سيدتى آمال هانم جاءت بعد أن حدثتها عنـك لترى صورك وتطلع على لوحاتك ٠

٠٠٠ ياالهى حتى الاسم هو الاخر نفس الاسم ؟

وتقدمت منها مذهولا جاحظ العين ، وصافحتها بيد مولهة الانامل ، وكأن نظراتى التى تكالبت على وجهها وعينيهـا أدهشتها حتى لكأنها تقول لى بعينيها :

ـ لم تنظر الى هكذا ؟

فخجلت وكدت أتعثر فى خطواتى وأسقط على الارض وانا أدفع بيدى المرتعشة باب الغرفة لأريها لوحاتى التى جاءت لتطلع عليها بيد أن الذى هدأ من روعى أننى رأيتها راضيـة مبتهجة تنطلق أساريرها لكل لوحة أشرحها لها وكل صورة من صورى الرائعة التى رسمتها بقلبى قبل أن تموت آماله٠

ولما اطمأنت الى والى مكانها منى وجلست على المقعد المتآكل الذى قدمته اليها ، رنت الى السرير الحديدى الذى عـلاه الصدأ وانتشرت عليه بطانية سوداء متآكلة فغدا فيها كنعش الفقراء المحمول على أعناق بعض السابلة فى طريق مقفر ، ثم نظرت الى فاطمة نظرة طويلة ، فهمت منهـا ماتعنى ، فقلت والخجل يخنق صوتى ويحطم نظراتى ويلقى بها أشلاء عـلى

الارض قبل أن تبلغ أذنيها :

ــ هذا هو بيت الفن ٠

فقالت مجاملة وهي تنظر الى :

ــ وهذا أنت ربه العظيم ٠

فشكرت لها هذا الثناء ٠ ثم رحت أشرح لها من جديد ماترمز اليه بعض لوحاتي شرحا مستفيضا ، وكأنني أشرح لها فرحتي برؤيتها ، ثم لما انتهيت من الشرح وأطلعتها على جميع رسوماتي الفنية نهضت وقدمت الى يدها شاكرة ، بيد أنها رأت مصادفة في مكان قصي صورة كبيرة في اطار لم أشأ أن يراها أحد فلففتها في غطاء من الدبلان علاه البلى ولوثته بعض الالوان وكانت صورة آمال التي ماتت فأسدلت عليها هذا الغطاء ولم ترها عيني منذ سنوات فطلبت مني أن تراها فاضطربت أنفاسي وخجلت أن أرد لها طلبا ، فذهبت الى الصورة متخاذلا ورفعت عنها ذلك الغطاء القديم واذا بآمال أمامي يشع النور من عينيها كأنها لم تمت ، وكأن البلى لم يعلو ذلك الجسد العاري في الصورة الذي يتألق بهاء وصفاء والذي انسدلت عليه غلائل الشعر الفاحم فكادت تغرقه في بحر من الظلام لولا شعاع من نور انبثق من العينين فعربد بالظلام وكشف عن بعض مواطن الفتنة في الجسد الجميل ونظرت الزائرة العزيزة الى الصورة مشدوهة وكأنها ترى نفسها فيها ولما تأملتها طويلا ووقفت على خطوطها ومعالمها نظرت الى فاذا بي مخضل الطرف ابكى بكاء مكتوما ، فحولت عينيها ثانية وكأنها فهمت كل شيء ، وسر دهشتي عند رؤيتها وأرادت أن تحترم أحزاني فذهبت من نفسها الى الصورة وأسدلت عليها الغطاء وأعادتها الى مكانها ، ثم جلست حينا صامتة ٠ ولما هدأت ثائرتي تحدثت معي طويلا وحادثتها أنا أيضا طويلا وقصصت عليها قصتي الحزينة حتى بكت هي الاخرى وبكت معها فاطمة ثم انصرفت بعد أن وعدتني وعدا صادقا بتكرار الزيارة ٠

ولست أدرى لماذا طربت لهذا الوعد وفرحت به فرحا كبيرا وقضيت ليلى مبتهجا حتى أنني من فرحتي وابتهاجي نسيت نفسي ونسيت معها زجاجتي العزيزة فلم أقربها ولم أتناول

منها شيئا . وفي الصباح برت بوعدها ، واقبلت على السطح تسعى رويدا كأنها النور ، وكانت مرتدية نفس الثوب الستان اللامع الذى رأيتها فيه بالامس والذى تألق بجسدها فيه وانساب فى رعونة وطيش وراح يعبث باقفال الثوب ويتدفق نورا من صدره المشقوق وكنت لحظتها أجلس الى جدار الغرفة اقضم من كسرة جافة بقيت من عشائى وأتهيأ لرسم الشمس وهى تتسلل رويدا الى حظيرة الدجاجات ، فلم أحفل بتحيتها لاننى أخذت بطلعتها وقلت مبهورا :

ـ لو أن يد فنان نقلت هذا الجمال على الورق ، لقدم الفن نفسه قربانا اليه .

فاستلقت ضاحكة تخلص بأناملها الحلوة خصلة شعر رفت كالاقحوانة على الجبين ، ولم تعلم غير السماء الفرحة التى غمرتنى والنشوة التى نعم بها فؤادى عند ما قبلت أن أرسمها .. يا الهى ألى هذا الحد يسمو الجمال بالفنان ، ويخلقه خلقا جديدا ، ويعيده الى دنياه ويرد اليه الهامه وفنه ؟ لقد كنت فى تلك اللحظة أحس احساسا صادقا بأننى غير الانسان الذى أعرف وغير المخلوق الهش الذى كان يعيش كذبالة تتناهبها ريح عاتية ، فلا هى تنطفىء ولا الريح تشفق على أنفاسها المحترقة ، كنت أحدث نفسى بذلك وآمال الجديدة تجلس أمامى جلستها فى الوضع الذى اختاره لها جمالها.. وأرغمتنى عليه فتنتها .

ولما انتهت الجلسة الاولى صافحتنى وانصرفت ، فانصرف معها قلبى يودع الذيل الطاهر والجمال العف ، ثم انصرفت من فرحتى أسير فى الطرقات كطفل يلهو واجوب الاماكن العامة وغير العامة واقول لنفسى المغتبطة :

لئن كان القدر قد بعث الى بآمال جديدة . فقد بعث الفن أيضا برفائيل جديد .. وذهبت من فرحتى الى بيت الليل ، وهو حانة صغيرة فى شارع غير معروف كنت أتردد عليها دائما فوجدت جماعة من الزملاء والاصدقاء السكارى قد غرقت نفوسهم فى بحر من الخمر يشربون لفائف التبغ التى تحترق بين أناملهم رويدا كما تحترق أجسامهم المخمورة رويدا كذلك وقد تصاعد دخانها فكون غمامة سوداء معتمة فوق رؤوسهم وكلما تبددت

اذا عربدت بها نسمة عابرة . عاد الدخان المحترق وتصاعد اليها يكونها من جديد كأنها دنياهم السوداء جاثمة على صدورهم ، فمكثت معهم حينا من فرحتي أضحك وأمرح على غير العادة دون أن أشاركهم في الشراب لان نفسي كما قدمت عافت الخمر وحرمتها تحريما منذ اللحظة التي عادت فيها آمالي وكيف أشرب الخمر . ؟ انني كنت أشربها لانسى أما الان فأصبح لا يحزنني سوى اللحظات التي أنامها لان النوم سيحول ولو الى حين بيني وبين هنائي بيني وبين فرحتي ، بيني وبين فتى العزيز الذي رجعت اليه وكأنني من الشوق أكاد التهمه التهاما .

انني منذ أن ماتت آمال لم تعمل يدي في صورة واحدة رائعة . سوى صورة الدجاجة البيضاء التي ذبحت وذهبت أيضا وكنت أعيش من صوري القديمة أما الان وقد رجعت الى دنياي ... رجعت الى سعادتي أريد أن أرسم كل شيء .. وأصور حتى سعادتي وهنائي .. ترى لو ترسم الفرحة .. ؟ ترى لو تصور السعادة ؟ اذن لكنت أول من صور النشوة وهي تتساقط من السماء وتنسكب هناء على قلبي .. ولهذا فرحت جدا عندما كنت أقطع الطريق في الليل الى غرفتي وكان مقفرا والمطر ينهمر والريح تدوى فرأيت شبحا يترنح في الطريق ويتمايل مع ظلام المصابيح المرتعشة التي تعصف بها الريح ويلطمها المطر المتهافت على الارض فاقتربت منه واذا به «كوثر» ولكم كانت فرحتي وأنا أهتف بها أين أنت فلم تزد على أنها فتحت عينيها ونظرت الى . ثم تبعتني دون ان تقول شيئا لانها لم تقل شيئا لاحد ولم ترد نظرة لانسان منذ أن أعوذتها اللقمة فقدمت جسدها الجميل لطلبة مدرسة الفنون يرسمونه ويصورون أوضاع الفتنة فيه وكانت مقرورة ترتعش، وكانت أيضا جائعة فلما بلغنا الغرفة أعطيتها رغيفا وزجاجة النبيذ التي ظلت بعد أن عافتها نفسي ثم قمت الى اطار قديم كان عندي وحطمته وأشعلته اليها ولما شعر جسدها المرهق بالدفء استلقت في استرخاء ونامت نوما عميقا . وكم شاقني منظرها في الصباح وكانت لا تزال نائمة عندما تسللت اليها الشمس من فرجة النافذة وعانقت جسدها بلثم ملائكي وكأنها تكفكفت أوجاعه وفي الضحى اقبلت آمال هانم فأحسست بقلبي العاشق

يسبقني لاستقبالها • وكم سرني أنها حيتني في حـــرارة وصافحتني في شوق كأننا متعارفان من زمن بعيد • ومكثت حينا بجواري بجانب السور تستمتع بدفء الشمس العارية في الافق وتتحدث الى وأنا صامت لا أنبث ببنت شفه ، فقد كنت أخشى ان تحدثت أن أحرم آذاني من اللحن الملائكي الذي ينسكب فيها انغاما ومكثنا كذلك الى ان خـرجت علينـــا كوثر من الغرفة وأقبلت علينا ذليلة صامتة كالكلب الاليف •• ولما لم نعرها اهتماما انصرفت صامتة ايضا بعد أن أفهمتها بأن تجيء ثانية ••

وبعد ان انصرفت سألتني عليها آمال هانم ولما قلت لها من هي تورد وجهها خجلا و اندهشت كيف تقف امرأة عارية أمام رجل ليرسمها •• ثم جاءت فاطمة وانتقلنـــا ثلاثتنا الى الغـــرفة واستأنفت آمال أمامي جلستها الثانية ووقفت أنا أمامها أرسم دنياي الجديدة وأصور حياتي خطوطا وألوانا

وتكررت هذه الجلسات التي كانت تبلغ الساعات أحيانا ، ومكثت أياما لا أغادر غرفتي ولا أهبط الى الطـــريق وكانت حاجاتي تقضي بسهولة •• مرة تقضيها فاطمة التي كانت تتكرم علي بقضائها • ومرة كوثر الذي اتخذت من غرفتي مأوى لهـا كلما لفظها باب او أحوجتها اللقمة •

ومكثت كذلك الى أن انتهت الصورة المقدسة ولن أنسى ما حييت الليلة التي أتممتها فيها والتي احتفلنا فيها ثلاثتنا أنا وآمال هانم وفاطمة بهذا العمل الخالد الذي طربت له آمال وفرحت به وأزالت بسببه الكلفة بيني وبينها في تلك الليلة • فقربتني منها وأولتني الكثير من عطفها وأغدقت علي ما تملك من حنان وعطف ثم تركتني بعد أن ودعتني ضاحكة وضغطت على يدي مبتسمة • وظلت فاطمة قليلا تحدثني عن سيدتها وكيف أنها تعيش في سماء أخرى لاتهبط أبدا الى دنيا الناس ولاتسمح أبدا لانسان لان يراها أو يحادثها بأن يجلس اليها ويرسمها •

ثم ضاحكتني هي الاخرى طويلا وعابثتني على غير العـــادة وانصرفت • ومكثت أنا وحدي مع الصورة المقدسة أتأملهـــا على ضوء المصباح الخافت بعين فنان • فراعني منها فني الذي

تقدم وأخذتني أفكاري التي سمت وبهرني الطهر الذي كان يتألق في كل خط من خطوطها وينسكب نورا على كل زاوية من زواياها ولا سيما الذي انسكب من العينين على الجسد فأحاله الى اشراق ونور جديد لم تره عيني منذ سنوات ٠لذلك مددت يدي ودون أن أدري كتبت عليها بأحرف بيضاء ناصعة الاسم الذي اختاره لها قلبي « النور العائد » ومكثت كذلك أتأملها الى أن نضب زيد المصباح فانطفأ فأخذت الصورة وغادرت الغرفة ورحت أحلق بها في السماء وأجوبها على جناحي طائر أبيض جميل يسمونه السعادة ٠ حتى غلبني النوم فاستلقيت بجوارها على السرير أنام لاستيقظ وأستيقظ لانام بيد اني وقبل أن أستغرق في النوم أحسست باب الغرفة يفتح على مهل وتدلف منه في الظلام الدامس كوثر صامتة كعادتها ولا أدري كيف جاءت ولا من أين أقبلت مع أني كنت لم أرها منذ أيام ٠ وانما الذي أدريه انها اقبلت على غير مألوف عادتها خفيفة رشيقة تفوح منها في الليل رائحة عطر جميل أخاذ عبق في أرجاء الغرفة ثم أقبلت صامتة واستلقت بجواري على السرير بعد أن نضت عنها ثيابها ٠ وعلى غير مألوف عادتها ايضا لاذت بصدري خائفة مضطربة حتى أطارت النوم من عيني ٠ ومكثت كذلك الى وقت متأخر من الليل ثم ارتدت ثيابها لاهثة وهمت بأن تنصرف فسألتها الى أين فلم تجب فدسست في يدها خمسة قروش وتصادف أنها كانت كل ما أملك لتعود الى في الصباح برغيفين وقطعة من الجبن فأخذتها وانصرفت صامتة كما أقبلت صامتة يشيعها الظلام الذي ظل ينتظرها حتى توارت وما أن خرجت حتى رحت أسبح في نوم عميق ٠

وفي الصباح لم تعد كوثر كما قلت لها ٠ وشعرت بأنني جائع وأنني في حاجة اليها أو بمعنى آخر في حاجة الى الخمسة قروش لاشتري بها شيئا اتبلغ به ، فهبطت الى الطريق ورحت أبحث عنها في كل مكان ، ولما لم أجدها ذهبت الى بيت الليل لعلني أجدها هناك ، فوجدت جماعة من الزملاء يتجرعون الخمر ٠ ولما سألت عن كوثر لم يجبني أحد بيد ان واحدا قال وهو يهيىء وجهه للامتعاض والتأفف ليحتسي كأسا من الكونياك الرخيص :

ــ كوثر في السجن من ثلاثة أيام يا استاذ ٠

فلم أصدق طبعا وقلت على الفور •
ــ انها كانت معي ليلة البارحة
فقال مازحا وهو يهيء وجهه مرة ثانية لكأس أخرى
ــ يجوز صورتها • أما هي فيسأل عنها الاستاذ فتوح الذي قدم اليوم معارضة في أمر حبسها ورفضت •
وقبل أن يتم سمعت صوتا ينبعث من بعيد ورأيت حوذيا مسنا يجلس بعيدا يلف لفافة من علبة صدئة دفنها أمامه بين الكأس وزجاجة النبيذ وحفنة من الترمس •
يقولون بأنها سرقت « بطانية » من رجل كانت تبيت عنده
وخرجت مذهولا أفكر ، فشيعتني امرأة من نساء الحانة بكأس شربتها ، وببقايا لفافة أشعلتها وضحكة جوفاء ماتت على شفتيها الملطختين وهي تقول :
ــ ما تزعلش • السجن أحسن من الشوارع يا أستاذ لمي
ولست أدري لماذا وأنا في الطريق تذكرت فاطمة وقفزت الى ذهني صورتها وشعرت نحوها فجأة بشيء كثير من الاحتقار والكراهية والمقت • ولما بلغت الدار صعدت الى غرفتي مباشرة وأقبلت عليها مفكرا محزونا وما أن أدرت المفتاح الصغير في رتاج الباب حتى رأيت فجأة آمال هانم في أعقابي تدلف اليها معي ، وكانت تعلو وجهها سحابة شاحبة ويكتنف جسدها الفتي شيء من الاجهاد والاعياء كأنه خارج لساعته من ليل طويل مضني ووقفت قلقة تتحسس بعينيها أرجاء الغرفة ثم فجأة قفزت فرحة الى مكان معين من السرير وجلست عليه ثم غافلتني ودست شيئا في يدها استطعت ان ألمحه من بعيد وأعرف بأنه سوار من الذهب كان قد سقط من يدها في الظلام •
شيء واحد بعد أن انصرفت هو الذي حول عيني عن الصورة التي تبدلت خطوطها فجأة وغام ت معالمها وانقلبت عيونها التي كانت تشع نورا وطهرا الى ظلام دامس اكتنفها وأغرق الجسد كله في بحر من السواد •• تلك هي الزجاجة الفارغة التي كانت بجوارها والتي تناولتها في رفق وضممتها الى صدري في حنان ولما تسللت بها خفية ورحت اهبط الدرج على مهل قابلتني فاطمة وقالت ذاهلة وهي تنظر الى يدي القابضة عليها
ــ الى أين •• ؟
فلم أجب فأنا نفسي لم أكن أعرف الى أين ••!

آثار على الشفاه



قال خالي لامي بعد أن شيعنا جثة أبي وعدنا الى البيت :
ــ ان عليك أن تخلي البيت ياآمنة ليقطنه الخولي الجديد
فامتقع وجه أمي وقالت وهي تمسح بعض الدموع التى تجمعت على شفتيها المفرورتين :
ــ أهكذا سريعا .. ياعبد العزيز
ــ انه بيت الخولي ياآمنه ، ولعلك علمت أن خوليا جديدا قد عين اليوم خلفا للمرحوم .
فقالت أمي وهي تنظر الى الارض ، وكأنها تبحث عن شيء عند قدميها :
ــ أعرف ، ولكن أين سأقيم ؟
فصمت خالي لحظات ثم قال وكأنه ينتزع الكلمات من بين شفتيه :
ــ عندي ياآمنه .
ــ عندك ؟

ـ أجل ، أليس بيتى هو بيتك •

فنكست أمي رأسها وتمتمت بصوت مرتعش حزين :

ـ وهل تقبل زوجك ياعبد العزيز ؟

ولم أسمع بقية الحديث ، لان الدموع كانت قد غمرت عيني ، فتركتهما وانصرفت الى غرفتى التى أنام فيهـا ، وأشعلت المصباح الزجاجى المعلق على الحائط ، ثم جلست على (الكرويته) أمام السرير أتطلع الى المصباح وأتأمل ذبالته الخافتة وهى تلفظ فى صمت انفاسها المحترقة التى تحيلها النار الى دخان اسود ، تنطبع طبقاته على الحائط الجيرى المتآكل، كما تنطبع تماما أنفاسي الملتهبة على شفتى فتحرقها وظللت كذلك أفكر حينا فى المصيبة التى حلت بنا فجأة •• فشردتنا بعد أن كان لنا أب ، وكانت لنا أسرة ، وكان لنا بيت نقطن فيه •

فكرت فى هذا ، ومددت أصابعي الى عيني وجففت دموعى المنسابة ، ومن ثم رحت أنظر ثانية الى المصباح وزجاجته التى تتصاعد منها النار فينطبع دخانا على الحائط والى ذبالته التى تلفظ أنفاسها المصفرة الشاحبة ، فتتراقص صفرتها على صورة قديمة فى اطار بال ، تآكلت أطرافه ولوثته أسراب الذباب وخيوط العناكب التى عششت عليه والتفت به ونظرت الى الصورة فرأيت رسم أمي وانا بجوارها أيام الطفولة الجميلة فى حلة من القطيفة الحمراء ، تزينها خطوط كثيرة من الترتر الاصفر والاشرطة الحمراء والخضراء ، ثم الطربوش الاحمر القانى الذى زانته هو الاخر الاشرطة العديدة الرفيعة التى قامت مقام الزر، يداعبها الهواء فتميل ذات اليمين وذات الشمال •• ويقابل الزر الورقى من الامام حلقة من الخرز الملون على هيئة هلال تدلى على جبينى ، وهذا هو لبناس «الختان» الذى أبت أمي الا ان تصنعه لى لازف به على حمار يدور بي حول القرية سبع مرات يوم ختانى •• نظرت الى هذا ، ثم نظرت الى أمي وهى بجوارى فى الصورة وكانت اذ ذاك فى العشرين من عمرها كما حدثتنى بذلك وكانت أيضا أجمل نساء القرية كما حدثنى جمالها وشبابها ووجهها الذى يتألق بهاء وفتنة خلف الخمار الذى تحجبه به كعادة أهـل

قريتنا . فجعل الخمار من وجهها الجميل قمرا يتألق نورا خلف الغمام .

نظرت الى هذا وتحسرت ، على هذه الشجرة التى وأدها الظمأ فجأة ، وهذا العود الذى لن يورق ، والزهرة التى لن تعبق ، وأحسست بالدموع تعود الى عينى من جديد فتغمرهما بحيث تطمس المرئيات جميعا وتحيلهاالى خيالات تتراقص أمام عينى . جثة أبى مسجاة على «طبلية» خشب كبيرة ويصب عليها الماء ... ثوب أبيض تلف فيه الجثة ... فجوة كبيرة فى قبر مهجور ... كومة من التراب تنهال ... امرأة تلطم خدبها امرأة تشق ثوبها ... وجه المرأة يغبر ويكتئب حتى يغدو كقطعة من الفحم ... ثم يمتقع ويصفر حتى يصير كالرقعه الصفراء .. بيت سنتركه .. غرف عزيزة علينا سنهجرها صورة فى اطار بال ... طفل صغير ... أم شـابة ... رغيف ... فلوس ... جوع .. القاهرة .. تجهيزية دار العلوم ... دموع تنساب ... أرض تدور بى ... رأس يكاد يتحطم ... ثم شيء ثقيل يسقط على الارض فلم أفطن اليه الا بعد حين عندما فتحت أمى الباب ومدت يدها الرحيمة وأنهضتنى ..

***

ومرت بعد ذلك أيام ، حدث خلالها ما كان لابد له أن يحدث انتقلت أمى الى دار خالى ، وعاشت هناك تستجدى اللقمـة وتنتظرها من المرأة التى تبغضها وتحقد عليها وتزيها صنوف المذلة والهوان ألوانا . وذهبت أنا الى القاهرة أهيم على وجهى فى الطرقات طوال النهار وأغلب الليل .. أقطـع الازقة وأجوس خلال الحارات لعلى أظفر بغرفة متواضعة تكون بأجر قليل يمكننى سداده .

كان كل الذى فى جيبى ثلاثة جنيهات بعضها تصدق على به خالى من وراء زوجته وبعضها كان ثمن الخلخال الذى باعته أمى ، والبعض الاخر كنت أملكه من قبل .

وثلاثة جنيهات مبلغ كبير من غير شك ، ولكن أليست الايام أكبر منه ؟ وهل خالى سيتصدق على بشىء مرة أخرى ؟ وهل ستجد أمى خلخالا آخر تبيعه ؟ وأصحاب الغرف التى تستأجر

في القاهرة ليقطنها أمثالى ، هل سيرأفون بى ويشفقون على اذا ما تأخرت شهرا عن تسديد الايجار لضيق ذات اليد ؟ · هذا ماكان يشغلنى كثيرا ، أما الطعام والملبس ، فقد يسر الله لى أمرهما · اذ صنعت لى أمي «قفة» كبيرة جدا ملأتهـا «بالمرحرح» وهو خبز من الحلبة والشعير ، علمنا الفقر فى الريف كيف نصنعه بطريقة تجعله يعمر طويلا دون أن يلحق به عطب أو يتغير مذاقه ، وهو عدا ذلك يمتاز بأنه رقيق جدا بحيث تتسع القفة الواحدة لاكثر من الفى رغيف ··· كما زودتنى أمي ـ لها الله ـ بقدرين كبيرتين امتلأت احداهما «بالمش الخالص» وامتلأت الثانية بخليط من مخلل الفلفل والباذنجان، وقشر البرتقال ·· وهذه (الزوادة) كانت تكفينى لمدة شهور يقضى الله بعدها أمرا كان مفعولا · ومثل ذلك ملابسي ، فقد كانت ميسرة هي الاخرى ، فالكاكولة الكشمير التى كان قد ابتاعها لى أبى رحمه الله منذ عامين مازالت جديدة ولا يهمني بعد ذلك ما ارتديه تحتها من ثياب ممزقة رتقتها لى أمى ··

ووفقت أخيرا الى غرفة متواضعة فى بيت قديم تملكه الست «لواحظ عبد السلام الدارمللى» الشهيرة بالست « أم صابر » فى زقاق الجناينية المتفرع من حارة السطوحى فى حوش الشرقاوى بباب الخلق ·

ولكى تبلغ هذا البيت يتحتم عليك أن تصعد عشر درجات من الحجر القديم المتآكل تغمرها المياه القذرة صيفا وشتاء وتعرف «بسلالم السبيل» ثم تنحدر منها يمينا الى حـارة السطوحى وتصير وسط الابنية المتلاحقة بشرفاتها المصنوعة من خشب البغدادلى على الطراز العـربى القديم المعـروف بالشرفيات ، وامام كل شرفة صف من القلل القناوى ذات الاغطية النحاسية اللامعة ·

ثم تنقلب يمينا ايضا بعدأن تقطع الحارة الى زقاق الجناينية وهو زقاق ثعبانى ضيق به عدة منعطفات ونتـوءات بارزة وأقبية مهجورة · بحيث لو أبصرت المارين به وقت الغـدو أو الرواح لظننتهم جماعات من المتدينين يطوفون حول بعض

الاضرحة والمعابد وتظل تسير وتسير فى زقاق الجناينية الذى يمتاز بطول غريب جدا الى أن تبلغ «السرجة» وهى المعروفة فى الحى بسرجة العجرانى ، وتغمر انفك رائحة الزيت والكسب والبذور المتعفنة فتسترد أنفاسك ، لانك تكون قد بلغت بيت الست «لواحظ عبد السلام الدراملل» الذى يقع بجانب السرجة تماما ، والذى انتصب بابه الفولاذى الضخم أمام السرجة وبعض الاقبية أشبه بتمثال حجسرى قام بين الاطلال من عدة قرون ·

كان الباب من السمك والضخامة بحيث لايمكن زحزحته أو تحريكه ، تزين جوانبه بعض نقوش نحاسية قديمة تآكل بعضها وبقى البعض الاخر يغالب الزمن ، ويتوسطه باب آخر صغير ذو «سقاطة» حديدية ضخمة ، ما أن ترفعها بيديك حتى تسمع صوتا مزعجا فى الداخل أشبه بأصوات الاوانى النحاسية عندما تسقط على الارض ، وهذا هو صوت السلسلة الثقيلة المعلقة فى طرف «السقاطة» من الداخل ··· ثم ينفتح الباب فتنحنى وتقوس ظهرك لتدلف منه ، فيطالعك دهليز فسيح ولكنه رطب مظلم لاتستطيع من الظلام أن تتبين بسهولة محتوياته أو تبصر غير مايشبه الاشباح تطالعك فى الظلام منتصبة على جوانبه ، فاذا ماتبينتها جليا عرفت انها أبواب الغرف الثلاث التى يتكون منها البيت ·

كانت الغرفة الاولى تقع عن يسار الداخل مباشرة ، وكان يقطنها الاستاذ حسبو ، وهو كهل فى الستين من عمره ، وان كان يصر على انه مازال فى عقده الرابع · وكان منظره يبعث على الغرابة بحيث تقف عيناك عليه بمجرد أن تراه ، فهو يرتدى بذلة لايعرف لها لون اذ كلما تآكل جانب منها رتقه بلون جديد وهو يرتدى دائما ياقة منشاة من الطراز القديم ذات فتحات أفقيــة بارزة ورباط رقبة تآكلت أطرافه حتى كادت تبلغ عقدة العنق ، وصديرى من الحرير «الالاجه» زى أصحاب اليسار فى الزمن القديم ، وقد بلى هذا الصديرى حتى لم يبق منه سوى أزراره الستة الصدفية الغاليسة التى ترمز الى مجد دارس ، ويضع على عينيه منظارا صدىء نحاسه

وتشقق زجاجه الابيض وتلوث بحيث يدهشك أمره ... وكيف يستطيع أن يرى من خلفه . ثم هو يحمل في يده دائما حقيبة جلد كبيرة ، ومظلة تكاد تكون معطلة ، ومدبة ذات يد صدفية ثمينة ومسبحة من خشب الصندل كبيرة الحبات ويحمل كل هذا في يديه دائما وهو برغم نحافته وضموره وشحوب لونه الدائم يتمتع بحيوية غريبة ، ونفس صافية مستبشرة ، يضحك دائما ولا يعبث ابدا ويرسل الفكاهة تلو الاخرى حتى يجعلك تستلقى من الضحك . ولا يبالى اذا واتته النكتة ان يلقى بها حتى ولو كان فى حضرة النساء مهما كان مرماها ، وكان الاستاذ حسبو يشغل وظيفة (عرضحالجى) الحى . ويعتبر نفسه من أشهر رجال القانون ، وقد علق على باب غرفته لافتة كتب عليها بخط كبير «الاستاذ حسبو القط خبير بشئون المحاكم الاهلية والشرعية والحسبية ، وجميع القوانين على اختلاف أنواعها ، ووكيل محام سابقا) وقد اتخذ له مكتبا على رأس الزقاق عند حارة السطوحى حيث يجلس فى الطريق بجانب الحائط الى ترابيزة خشب قد لوثها الحبر ، وعليها محبرة نحاسية مستطيلة يضع فى قلبها عدة أقلام من البسط وبعض بقايا من أقلام الرصاص وفى طرفها فجوة بداخلها قطعة من القماش سميقه انغمست فى الحبر الاحمر الذى يميل الى السواد ، وبجانبها بعض العرائض البيضاء وهو يعتز جدا بهذه المحبرة ، ويصر على أنها المحبرة التى كان نابليون يوقع منها أوامره اليومية الى جيشه أيام احتلاله قاهرة المعز ، ثم آلت من بعده الى قائده العظيم كليبر ، ثم اغتصبها بعض الفرنجة الذين استوطنوا مصر بعد جلاء الفرنسيين ، ثم انتهت فى النهاية الى جسده الثانى . أى جد الاستاذ حسبو الذى كان يشغل وظيفة مهمندار السلطنة العثمانية ، وظلت فى حوزته الى أن ورثها هو ... وكان يجلس الى مكتبه هذا طوال اليوم ومن حوله بعض النسوة يستشرنه فى شئونهن وحل مشاكلهن ، وهو يصرف لهن الامور بدرايته الواسعة فى حل المشاكل العائلية أو تعقيدها حسب مافيه صالح موكلته من حيث الطلاق والنفقة

وكان للاستاذ حسبو وظيفة أخرى أهم بكثير من هذا كله وهي كتابة خطابات الغرام للعشاق والمحبين، وقد برع في هذا براعة فائقة حتى اشتهر بين أهل الهوى من سكان الحى بأن خطابا واحدا يدبجه يراع الاستاذ حسبو فى العشق والهيام ، يلين الحجر ويذيب الحديد ، ويجعل الحبيب القاسي يخر راكعا عند قدمي المحب من أول سطر ··· ولذلك فهو كل ليلة وفي وقت معين بعد صلاة العشاء ، لابد أن يكون فى غرفته حيث توافيه بعض بنات الحي، أو بعض شبانه ، هذا يكتب للمحبوب يستجدى اللقاء ويرجو الوفاء ولو مرة عند سلالم السبيل ··· وتلك تصف لزوجها الغائب كيف أضناها الشوق ، وقتلها الجوى وطال بها البعاد · وهذه الحبيبة تصف للمحبوب كيف كانت الاشواق ولذة العناق وفرحة القلب عندما وافاها الحبيب فى الظلام عند السرجة ، وكان الاستاذ حسبو يعتز ببراعته هذه ولا يسمح لاحد أن يعارضه فيها أو يقلل من شأنها بأن يغير لفظا أو يسأل عن معنى ، وقد مررت به يوما وكان لايزال جالسا الى مكتبه على ناصية الحارة ، فاستمهلني حتى يذهب معي الى البيت ، وكان يقرأ خطابا غراميا على خادم جميلة كلفته بكتابته لمن تحب ، وراح الاستاذ حسبو يقرأ والفتاة تنصت اليه ، وهو يقول بصوت مسموع : « أبعث اليك مع الليل سلامي ·· وابثك مع الفجر هيامي ·· وارسل اليك مع الصباح كتاب غرامي ·· كتبته وانا على الجمر اتقلب وفى نار الغرام أتعذب ·· وفى بحر الشوق غارقة ·· والى طلعتك البهية وامقة · »

وهنا استوقفته الفتاة وسألته قائلة :

ـــ وامقه يعني ايه ياأستاذ ؟

فثار الاستاذ حسبو لهذه المقاطعة وغضب ، وكاد يمزق الخطاب ، لولا ان الفتاة استرضته وقدمت له القروش الخمسة التي هي ثمن الخطاب الغرامي الذى يكتبه ، وعندها هدأت ثائرته وعلت ثغره ابتسامة عريضة وهو يتناول الخمسة قروش من يدها ويخرج لها الخطاب ثانية كما أخرج معه

كتابا قديما أصفر الصفحات كتب على غلافه السميك «دوحة الاشواق فى رسائل العشاق .. لمؤلفه أمير المحبين . وحبر العاشقين . واله المغرمين ، سيدنا عبـــــــد الله بن القيروان الشيرازى . طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه ونفع المحبين بذكراه » . وبعد أن راجع الفهرس قليلا فتح الكتاب عـلى صفحة بعينها كتب على رأسها (بين الاحبة والاحبـــاب ، فى رسائل الهجر والعتاب) وراح يقرأ قليلا فى هذا الباب حتى وصل الى كلمة وامق ومن ثم راح يشرحها للفتاة قائلا :

ــ وامق بمعنى عاشق ، اى مشتقة من العشق ، كما يشتق العاشق من المعشوق والله أعلم .

وطبعا لم نفهم جميعا شيئا من هذا التفسير، لاأنا ولا الفتاة ولا الاستاذ حسبو نفسه .

***

أما الغرفة الثانية فكانت تقع عن يمين الداخـــل ، خلف الخوخة مباشرة . ذات باب نظيف يميل لونه الى البياض .

تتوسطه طاقة زجاجية ذات أضلاع مختلفة الالوان ،وتمتاز هذه الغرفة عن غيرها بسرير كبير قام فى وسطها كالتختروان تحليه ملاءة محلاوى ذات مربعات بيضاء وحمراء و «ناموسية» من التل البمبى انعقدت فى قلبه فغدت كالقبة المعلقة فى الهواء والسرير عال للغاية بحيث لايمكنك أن تبلغ ســـــطحه الا بوساطة سلم دائرى وضع أمامه ، وحليت درجاته الثــلاث بالقطيفة الخضراء الباهتة ، وحول كل درجة منهـــا برقع من القطيفة الحمراء الباهتة أيضا . تنسدل منه عدة شراريب مدلاة ذات الوان متعددة ، ويقابل السرير (بريه) كبير متعدد الادراج تعلوه رخامة كبيرة زرقاء تحطمت بعض جوانبهـــا ويتوسطها شمعدان نحاسى صدىء لم يستعمل منذ سنوات وقد امتلأ قلبه بعلب الثقاب الفارغة وبعض الابر والدبابيس وقطع كثيرة من الفاسوخ والجاوى وعـــين العفريت وبذور الكسبره والشيح . وقد تلوث هذا كله بسائل الشمع مما يدل على قدمه . حتى غدا منظره قذرا مشوها ، وبجــــوار الشمعدان قلة زجاجية بيضاء عليها باقة من الورد الصنــــاعى

بليت أوراقها وتآكلت أسلاكها وحول عنق القلة عدة خيوط حريرية رقيعة . علقت بها حلقات نحاسية وحجاب مغلف تغليفا جيدا ، وبجوار القلة كوز حمام نحاسي تزينه نقوش عربية قديمة ووضعت عليه قطعة من اللوف وصابونة«ممسكة» ثم مكحلة ذات مرود نحاسي .

كانت تقطن هذه الغرفة الست لواحظ عبد السلام الدراملى صاحبة البيت ، وهي امرأة في منتصف العقد الثالث ، ذات جمال أخاذ وقوام سمهرى مشوق تستهويك رؤيتـــه وتطربك طلعته ، وكأنها كانت تعرف ذلك في نفسها فراحت تتعهد جمالها وشبابها بالرعاية والعناية الفائقة فحينما تراها .. ترى وجها يفيض بشرا ويزينه جبين وضاح أسدلت عليـــه «قصة» من الشعر الفاحم يتوسطها «فرق» صغير كالهـــلال الوليد ، وفوق هذا كله عقدت منديلها المطرز بخرج النجف وزهور القرنفل ، وتدلت أطرافه مع «المقصوص» الطويل على اليمين عند الاذن التي يزينها قرط ذهبي كبير على هيئة نصف دائرة ، حتى لتكاد تبلغ الكتف وتلمس الصدر ، ويغطى هذا جميعه ملاءة لف حريرية رقيقة الملمس عرفت كيف تحكمهـا وتضغط نسيجها الرقيق على قوامها الفارع المشـوق بحيث تلوح كنوزه لعينيك من بعيد أشبه بالنور الذى يتلألأ من مكان سحيق في الليل .

وكنت قد رأيتها أول مارأيتها على ناصية الزقاق عنـــد (مكتب) الاستاذ حسبو الذى كان قد أرشـــدني الى الغرفة وتعاقد معي على ايجارها نيابة عنها، ولذلك قدمني اليها قائلا:

ـــ حضرته الشيخ فراج الساكن الجديد فألقت على نظـــرة من عينيها الجميلتين وقالت وهي تلوك بين شدقيها لبـــانة كبيرة تجيد فرقعتها اجادة تامة :

ـــ أهلا وسهلا ،و بتشتغل ايه ؟

فأجاب الاستاذ حسبو على الفور قائلا :

ـــ مجاور في الازهر .

فأحرجتني هذه الاجابة واردت أن أصحح لها هذا الوضع ولكنها سبقتني قائلة وهي تمد لى يدها وتصافحني :

ــ يعنى فقى •

وآلمنى منها هذا التعبير ، واحمر له وجهى خجلا ، وهممت أن أقول لها شيئا ، بيد انها كانت قد سحبتنى من يدى التى كانت لاتزال فى يدها وسارت بى فى الطريق الى البيت •• وفى الطريق أردت أن أنتهز هذه الفرصة لاصحح لها الوضع وأفهمها بأننى لست (فقى) كماظنت ولست مجاورافى الازهر وانما أنا فى تجهيزية دار العلوم ، واننى بعد سنوات سأكون مدرسا فى احدى المدارس الحكومية ، ولكنى لم أقل لها شيئا من هذا كله • لانها كانت قد شغلت عنى حينا باللبانة التى تفرقعها بين شدقيها ، وحينا بأحاديثها المتقطعة مع كل من يقابلها من سكان الحارة وحينا آخر بضحكاتها الصاخبة التى توزعها ذات اليمين وذات الشمال ، الى أن بلغنا البيت ••• فدلفت هى الى غرفتها وذهبت أنا الى الطاقة الصغيرة التى خلف الباب الصغير وتناولت مفتاح غرفتى الحديدى الكبير وفتحت باب غرفتى التى كانت تجاور غرفة الست لواحظ مباشرة ، ولكن من الداخل فى نهاية الدهليز ، وأشعلت المصباح لانه كان يتعذر على الرؤية من كثرة الظلمة التى تكتنف مسكنى ليلا ونهارا ، ونزعت الكاكولة وعلقتها على المسمار فى الحائط وبينماأنا أنزع العمامة واضعها فىالسفط الصغير الذى أعددته لها وغلفته بورق سميك حتى لا تنفذ اليه الصراصير ، اذا بى فجأة أرى الست لواحظ من خلفى واقفة على الباب تتأمل محتويات الغرفة بعين فاحصة وتنظر الى الحصير القش الذى أنام عليه ومن فوقه (الحرام) الصوف القديم متكوما عليه كالكلب الاجرب النائم ، وقدر المش الذى تجمد من الرطوبة فعافته الديدان الصغيرة وخرجت هائمة تسبح على جدرانه ، وبعض لقيمات المرحرح التى انتشرت على الحشية وبقيت من فطورى ••• وما أن رأيتها تتأمل هذا كله وتتفحصه بعينها حتى شعرت بالعرق يتصبب من جبينى وخجلت أكثر عندما رأيتها تنظر الى والى جلبابى الذى بدت ثقوبه عارية بعد أن نزعت الكاكولة ، وأحسست من فرط الخزى بأننى فى حاجة الى من يواسينى ، ولما لم أجد سوى

نظراتها التى تكاد تحرقنى قلت لها مواسيا نفسى :

ـ لا تؤاخذيني ، فهذه هي حياة الفقي

فقالت ضاحكة وهي تنصرف وترد الباب خلفها :

ـ علشان تبقى تقرأ لنا (ربع) ٠

وحزت في نفسي هذه السخرية ، وأحسست بضحكاتها الصافية التى اختلط رنينها بوسوسة الحلى فى معصمها وهى تغلق الباب ، كأنها فحيح الافاعي الصغيرة ينساب فى أذنى فارتعدت وجلست القرفصاء متهالكا على نفسي ، ثم راحت الذكريات المريرة تمر سراعا بخاطرى ٠

ومرت بعد ذلك أيام أخرى حمدت الله في كثيرا ، لاننى لم ار الست لواحظ ثانية ، فهي كثيرا ماكانت تتغيب عن البيت ولا تعود اليه الا بعد أن أكون قد استغرقت فى النوم ، أما الاستاذ حسبو فكنت أراه كل يوم على ناصية الزقاق ، وأنا عائد من المدرسة فأتحدث اليه قليلا ثم انصرف الى غرفتى وأشعل المصباح ، ثم اغرق بين كتب النحو والصرف ، وما شابهها الى أن يقبل الليل ويعود الاستاذ حسبو الى غرفته وتبدأ بعض النسوة والفتيات يتوافدن عليه وتعلو ضحكاتهن وتعطر أنغامها أرجاء الدهليز المظلم وتنفذ رائحتها الى أذنى فى غرفتى فأعرف أن الاستاذ حسبو قد جاء وان صلاة العشاء قد حانت فأخرج الى الحوض فى الدهليز وهو عبارة عن نصف برميل قديم تعلوه حنفية صغيرة لاينساب منها الماء الا بمقدار فأتوضأ واصلى العشاء ثم أغلق باب الغرفة واقرأ الفاتحة وآية الكرسى سبع مرات ، كما كان يفعل أبى رحمه الله ، ثم أنام ، الى أن حدث ذات ليلة ، وكان الشيخ زناتى طيب الله ثراه قد حتم علينا فى المدرسة أن نحفظ الفية ابن مالك حفظا جيدا مجودا ونفهمها فهما دقيقا ، كما كان يقول رحمه الله ، على أن يكون ذلك كله فى خمسة عشر يوما ، لذلك أغلقت الباب على فى تلك الليلة وجلست أمام المصباح أبدىء وأعيد وأتلو بصوت مسموع كعادتى كلما أردت أن أحفظ شيئا ٠ وأنا أهتز أمام المصباح ٠

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

وواحدة كلمة والقـــول عم وكلمة بهـا كــلام قد يــؤم

وبينا أنا كذلك أهتز يمينا وشمالا وأغمض عيني حينا ، وأفتحهما على بعض الابيات حينا آخر ، اذا بالاستاذ حسبو يدق الباب على مستأذنا في الدخول ، وقد بدا عليه الارهاق والتعب الشديد ، وفي يده كتاب دوحة الاشواق ، وبعض العرائض البيضاء وطلب مني أن انقل له من الكتاب على الورق أربعة خطابات عينها لي ، لان اشغاله كثيرة جدا في هذه الليلة والزبائن لاترحم ، وليس من الميسور تأجيل هذه الرسائل الى الغد ، وضايقني هذا في أول الامر لانه سيحول بيني وبين طلاسم الالفية اللعينة وحل رموزها ، ولكنه رجاني في الحاح ثم ألقى الى بالكتاب والورق وانصرف وجلست أنا انقل له على الورق الرسائل الاربع ٠

كانت الرسالة الاولى من زوجة الى زوجها الغائب والرسالة الثانية كانت لاتختلف كثيرا عن الاولى ، وان كانت من خطيب الى خطيبته ، أما الخطاب الثالث فكان من عاشق مفتون الى عشيقته ٠ وقد أخجلني كثيرا ماتضمنته هذه الرســالة من عبارات خارجة ، واوصاف جارحة ، حتى فكرت في تمزيقها ولكنني كنت قد فرغت من كتابة الرسائل جميعا ، فاستغفرت الله ، وأخذتها وذهبت الى غرفة الاستاذ حسبو وفتحت بابها فوجدتها غاصة بالنسوة والفتيات ، يضحكن ويتحدثن ٠٠ والاستاذ حســــبو بينهن يجلس على الارض فوق فروة من الصوف وأمامه طبلية عليها مصباح تعلوه برنيطة قد تحطم نصف زجاجها وبجوارها المحبرة ذات الاقلام البسط التي كان نابليون يوقع بها أوامره اليومية ، وقد انهمك الاستاذ حسبو في الكتابة والنسوة من حوله جالســات على الارض ينظرن اليه تارة ويتحدثن فيما بينهن حينا واليه حينا آخر ولكنه لايجيب ولا ينظر اليهن ، وما أن أبصرن بي عندالباب حتى فوجئن واكتنفهن ذعر شديد كما شـــعرت أنا بكثير من الخجل وهممت أن أرجع ولكن الاستاذ حسبو قدمني اليهن دون أن يرفع عينيه عن الورق وقال :

فضيلة الاستاذ الشيخ فراج مجاور في الازهر ٠

فغاظني منه هذا القول ، كما غاظني في المرة الاولى واردت أن أصحح له الوضع للمرة العشرين بعد الالف ولكن احدى النسوة قد أنفجرت ضاحكة وهي تقول :

ـ والنبي سألتك الفاتحة يأستاذ وفجأة دوت عاصفة من الضحكات الانثوية الصاخبة امتلأت بها الحجرة حتى كادت تطبق على المصباح الزجاجي وتخنق ذبالته ، فتصبب العرق من وجهي وتصاعدت انفاسي ولم تهدأ هذه العاصفة الا بعد أن دق الاستاذ حسبو بقلمه البسط على الطبلية عدة دقات متواليات ، ومد لي يده فأعطيته الكتاب والوسائل ، وبعض العرائض البيضاء التي بقيت ، ثم قفلت راجعا اتعثر في خطواتي ، وأنا أقطع فراغ الدهليز ، بيد ان الاستاذ حسبو كان قد لحق بي واستوقفني وقال وهو يدس في يدي شيئا في الظلام ويطبق أصابعي عليه :

ـ على ماقسم .

ولما خلوت الى نفسي فتحت يدي فوجدت بها أربعة قروش كاملة ، وما أن رأيت ذلك وتأملته وتأكدت منه حتى تبدل حالي فجأة وشعرت بغبطة لاحد لها تغمرني وتفيض على كيالي كما شعرت فجأة أيضا بأنني جائع ، وان رائحة السمك المقلي تنفذ الى خياشيمي لذيذة شهية ، كما تنفذ اليها كل يوم عند ما أمر على (سماك الملوك) في باب الخلق عنــد عودتي من المدرسة ، ودون ان أفكر وجدتني في الطريق بالقبقاب أقطع في سرعة خارقة الزقاق ثم الحارة الى أن بلغت باب الخلق ، فاشتريت بالقروش الاربعة جميعا سمكا مقليا طازجا حلـو المنظر لذيذ الرائحة ، ثم عدت سريعا أيضا الى غرفتي ، وما أن جلست أمام المصباح ورأيت أمامي تلك الكومة الـكبيرة من السمك الصغير حتى انقضضت عليها التهمها في سرعة كما يلتهم الجائع شيئا في الظلام ، دون أن تعترضني شوكة ثم أفرغت نصف القلة في جوفي واستلقيت على الحصير ناعم البال هادىء النفس ، أحلق بعينين سعيدتين في سماء حجرتي كما يحلق العصفور الطروب في سماء الربيع ، وما أن قرأت الفاتحة وآية الكرسي وزدت عليهما في هذه الليلة

السعيدة قراءة سورة (الفلق) وكررت «ومن شر حاسد اذا حسد» مرات حتى استغرقت في نوم عميق لذيذ كذلك الذي يستشعره المريض بعد أن يبل من مرضه ، بيد أن هذه السعادة والأسفاه ، لم تدم سوى ساعات النوم فقط ، فقد وصلت الى في الصباح رسالة من خالي تشير الى أن أمي مريضة مرضا خطيرا ، وان الاسطى هنداوى حلاق صحة المركز اشار بضرورة نقلها الى المستشفى ، وقد نزل هذا النبأ على كالصاعقة ، فاسقط في يدي واظلمت الدنيا في عيني ، وقضيت يوما لايعلم الا الله كيف قضيته ، ولما تشاورت في الامر مع الاستاذ حسبو كان الرجل معي كريما نبيلا الى أقصى حدود النبل والكرم فقد أقرضني خمسين قرشا واشار علي بضرورة احضارها الى القاهرة ، وادخالها مستشفى قصر العيني ، ولما أفهمته أن هذا ليس في مقدوري واني لا أعرف هذا المستشفى ، ولم اسمع عنه سوى مايلاقيه المريض فيه من عنت وقسوة وسوء معاملة ، افهمني بأنه سيتكفل بهذا كله وبماله من نفوذ سيعمل على راحتها وشفائها ولقد بر الاستاذ حسبو بما وعد ودخلت أمي مستشفى قصر العيني وهي بين الحياة والموت ، أكلها المرض أكلا ، فذهب شبابها وغاض لونها وذوى جمالها وغدت في سوء حال لاينذر الا بالفاجعة ، وانا أتصور كل شيء الا أن تموت أمي ، لذلك كنت كالمجنون ، لاأذهب الى حجرتي الا لأخرج منها ، ولا أذهب الى المدرسة الا لأذرف الدمع ، ولا تقودني قدماي الى المستشفى الا لاطوف حول جدرانه متطلعا الى السماء بالدعاء حينا وقراءة القرآن حينا راجيا من الله أن يشفي أمي وان لايحرمني منها وظللت كذلك الى أن امتدت لي فجأة يد الله التي تأبى الا أن تمتد الى البائسين من عباده في أحرج المواقف وأشدها ظلما وظلاما ، فتنقذهم وترد اليهم حياتهم، فشفيت أمي وخرجت في صحة وعافية ، ولما أرادت أن تعود الى القرية أبيت عليها ذلك حتى لاترجع ثانية الى زوجة خالي فتذيقها من جديد تلك الالوان المتعددة من المحن فتمرض مرة أخرى وعاشت معي في الحجرة تجوع لتطعمني ، وأشبع لاطعمها

ولكن للجوع رائحة يشمها البعض ، وقد شم الاستاذ حسبو رائحة الجوع تتصاعد من حجرتنا يوما بعد يوم ، فأشفق الرجل علينا وعرض على أمي عرضا رفضته أنا في اول الامر ثم عدت فقبلته في آخر الامر ، فقد اتفق لها الاستاذ حسبو مع بعض الكوائين في باب الخلق ، على أن يحضروا لهـا بعض الملابس لغسلها وتنظيفها ورتق مايحتاج منها الى الرتق نظير بعض القروش ، وقد أفدنا من ذلك فعلا واستطعنا به ، أنا وأمي أن نفتح في سماء حجرتنا المظلمة طاقة صغيرة يطل علينا منها الرغيف اذا ماتطلعنا اليه ، ولم يقف الامر عند هذا ، بل اتسعت تلك الطاقة بعد ذلك اتساعا كبيرا ، فقد توطـدت علاقتي بالاستاذ حسبو ، واتخذ مني مساعدا له وكاتمـا لاسراره وصديقا يطمئن اليه في ملمات الامـور ، وكان أن قسمنا العمل بيننا ، فاختص هو بالشئون القانونية وقضايا الزواج والطلاق والنفقة ، وكتابة المظالم ورفعها الى أولى الامر وانفردت أنا بتحرير الخطابات الغرامية التى يحيلهـا على الاستاذ حسبو يوميا نظير أجرا اتفقنا عليه وهو قرش عن كل رسالة ، ولما درست كتاب دوحة الاشواق دراسة وافيـة وتفهمته وفرقت بين خطابات الحب والهيام ، وخطابات الهجر والخصام ، رحت أكتبها من تلقاء نفسي ودون الرجـوع الى الاستاذ حسبو الا اذا تعقدت بعض الامـور واحتـاج حل اشكالاتها الى الاستاذ ، وشيئا فشيئا قمت مقام الاسـتاذ حسبو في حل المشاكل ايضا ، فما كان على العاشق الا أن يقص على قصته ويطلعني على خفايا نفسه حتى اعـرف نوع الخطاب الذى يريد فأكتبه اليه وكثيرا ماكنت أزيد على بعض الخطابات التى أنقلها ، أشياء من عندى ليس لها أصـل في الكتاب مما حبب في الاستاذ حسبو وجعله ينتظر لى مستقبلا طيبا ، وكان هذا فعلا فاتحة خير كثير لى ، فقد تبدل حالى عن ذى قبل وبدأ القرش يعرف طريقه الى يدى ، أو يدى هي التى بدأت تعرف طريقها اليه ، فاشتريت جلبابا جديدا وجوربا غير الذى تآكل ، وأرسلت بالكاكولة الى الكواء فنظفها واعاد اليها بهجتها ، كما كثر ترددى على سماك الملوك في باب الخلق

فلا يكاد أسبوع يمر دون أن أذهب إليه واستجلب منه سمكا كثيرا لي ولامي ، كما عرفت قدمي طريقها الى بعض المطاعم الاخرى ، عرفت مطعم الامراء الذى يبيع الفول الشهي والطعمية ذات الالوان الذهبية البراقة، كما عرفت (طرشجي) الذوات في باب الخلق ، وعم خليل بائع البسبوسة والشيخة خضرة بائعة الفجل والجرجير والبصل الاخضر التي تجلس عند سلم السبيل ، كما بدأت أمي تعطر لي سماء الحجرة بين الحين والحين بأريج اللحم الذى يتصاعد عطره من الاناء أثناء انضاجه على النار ، فمرة أكلة شهية من الكوارع ومرة أكلة لذيذة من لحم الرأس ، ومرة دجاجة سمينة تطهيها لي وتضعها أمامي حمراء وردية اللون تتضوع مسكا، كما يتضوع أريج الزهر في الخمائل ، كما اننا نظمنا الحجرة ، فقد اشترت امي سريرا ومقعدين ومرآة صغيرة نرتدى ثيابنا أمامها كما اشترت لها ثوبا جديدا وشبشبا وملاءة لف ترتديها عند الخروج وهكذا يسر الله لنا الحال ، ودخل الفرحة على قلبي ، ولا سيما بعد أن رضيت أمي عن هذه الحياة الجديدة وزايلها المرض الذى كانت تشكو منه دائما واستعادت شبابها الغض ، وجمالها الذى كان قد فارقها بعد أن مات أبي ، وعاد البشر الى محياها وراحت الضحكة الصافية التي لاتصدر الا عن القلب الهانىء ، تشق طريقها الى شفتيها اللتين توردتا .. كما راحت تقف بين الحين والحين أمام المرآة تمشط شعرها وتردد بعض الاغاني الريفية كما كانت تفعل تماما أيام أبي رحمه الله ، كما توطدت علاقتها بالست لواحظ حتى انهما أصبحتا لاتفترقان ولا تخرجان الا معا لزيارة السيدة زينب والسيدة نفيسة والتبرك بالحسن والحسين والطواف حول قبر أم هاشم والسيدة سكينه والشيخ أبو السعود .. كما راح الاستاذ حسبو يرينا الكثير من عطفه ويسهر في حجرتنا أحيانا فنشرب الشاى الذى تصنعه لنا أمي ونكتب بعض الرسائل الغرامية دون أن تفطن أمي الى مانفعل وكثيرا ما كانت تسألنا عما نكتب فيفهمها الاستاذ بأننا بعض الشئون القضائية كطلب نفقة أو وفاء عدة او غير ذلك ، فكانت تحزن لهذه

الخلافات بين الناس وتدعو الله في خشوع أن يحل الوئام محل الخصام بين الناس اجمعين ، فيبتسم الاستاذ حسبو وابتسم أنا من سذاجة النساء وصفاء قلوبهن ، أما أنا فقد رتبت حياتي الجديدة ونظمتها تنظيما مريحا للغاية ، فقد خصصت الوقت من المغرب الى صلاة العشاء فى كتابة خطابات الاستاذ حسبو ومن صلاة العشاء الى منتصف الليل فى الدرس والتحصيل ولما قرب موعد الامتحان امتد بى السهر الى مابعد ذلك بكثير وفي بعض الاحيان الى الصباح وقد أثابني الله على مابذلت من جهد اذ نلت تجهيزية دار العلوم بتفوق فى ذلك العام ، وان أنس لا أنس ما حييت تلك الليلة التي ظهرت فيها النتيجة التي كنت أنتظرها واجف القلب نافد الصبر يقتلني الشوق الى النجاح ، ولذلك ما أن ظهرت النتيجة وعرفت انني ثالث الناجحين حتى كادت الفرحة تفقدني صوابي وتخرجني عما ألفت من وقار ، وما جبلت عليه من ريث واناة ، وانطلقت فى الطريق أركض كطفل وأكاد مع فرط ماغمرني من سعادة وهناء أطير في السماء ولما لم اجد أمي في البيت، ضايقني ذلك ورحت انتظرها على أحر من الجمر ، لازف اليها البشرى .. وكأنها قد أحست بما ينتظرني من سعادة فى هذه الليله فأرادت أن تضيف اليها سعادة أخرى فأعدت لى دجاجة سمينة وطبقا من الارز الشهي الذى تجيد صنعه فلم انتظرها حتى تعود ، ورحت من فرحتي التهم الدجاجة التهاما ، وأمزق لحمها تمزيقا وألعق عظمها لعقا شهيا لذيذا ، وقد انستني الفرحة بالنجاح وبالدجاجة كل شيء فلم أبق لامي منها شيئا ، وقد آلمني هذا كثيرا بعد مافطنت اليه ، حتى أنني جلست أفكر في عذر يبيح لي عندها هذا الذى فعلت فلم أجد سوى أن أسرع قبل أن تجيء الى سماك الملوك واشتري لها رطلا من السمك المقلى لتتعشى به ، ولا سيما انها تحب السمك كثيرا وتفضله على غيره من الطعام، فسوف يسعدها هذا كثيرا كما اسعدتني هي بالدجاجة، بيد انني لم أكد أخرج من البيت وأدفع الباب خلفي حتى رأيت أمي مقبلة من بعيد في الظلام ومعها الست لواحظ تسرعان الخطى فاختفيت عند السرجة حتى لاتراني.

أمي فتحول بيني وبين ماأريد أن أسعدها به في هذه الليلة المباركة التي أفاء الله علينا فيهاخيرا كثيرا وفضلا كبيرا ونعمة سابغة ، لذلك أمعنت في الاختفاء بجوار حائط السرجة ٠٠ وظللت كذلك الى أن أقبلنا على الباب وفتحتاه ودلفت منـــه الست لواحظ تخب في ملاءتها الحريرية السوداء ، أما أمي فقد تريثت في الدخول ووقفت أمام الباب في الليــــل تتلفت حولها في حذر كمن يريد ان يخفي شيئا في الظلام فأدهشني ذلك وأمعنت في الاختفاء حتى أرى ماتصنع ، فاذا بها تدس يدها في جيبها وتخرج منديلا وتزيل به شيئا كان على الشفتين٠

فهرس

كتب المؤلف

١ ... **الضباب**
مطبعة الاهرام مايو ١٩٤٢

٢ ... **هتاف الجماهير**
لجنة النشر للجامعيين أكتوبر ١٩٤٥

٣ ... **نساء فى حياتى**
دار جريدة المصرى نوفمبر ١٩٥٠

٤ ... **أرض الخطايا**
لجنة النشر للجامعيين ديسمبر ١٩٥١

٥ ... **يوم الثلاثاء**
نادى القصة أكتوبر ١٩٥٢

٦ ... **آثار على الشفاه**
نادى القصة سبتمبر ١٩٥٣

الكتاب التالى

غراميات ومحــاكمات

مجموعة قصصية مستمدة من قضايا « الرجل والمرأة » التى فصل فيها القضاء المصرى ، وترافع فيها كبار رجال القانون .

الكتاب الذهبى
العدد السادس عشر سبتمبر ١٩٥٣
يصدره نادى القصة
١٥ ميدان التحرير
١٨ شارع محمد سعيد
تليفون : ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨

الاشتراكات :

مصر ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة
الخارج ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة .

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

رئيس التحرير المسئول: سعد الكفراوى خليل

حديث الشهر

فقيد القصة

كانت العربة تنساب بي في طريق المقابر الموصل الى القلعة متجهة الى مقر عملي بالمتحف الحربي . والطريق موحش صامت ونسمات الصباح الرطبة تلفح وجهي وقد شرد بصري خلال النافذة وأخذت تتوالى عليه شواهد القبور وقباب المدافن وصحف الصباح ملقاه في أرض العربة وقد شرد عنها البصر والذهن في جولتهما بين المقابر .

وعلى غير ارادة انتقل البصر فجأة من شروده في النافذة الى أرض العربة في لمحة خاطفة .. وثبت في ذهول على بضع كلمات في احدى الصحف الملقاة على الارض .. كان بها «وفاة صلاح ذهني»

ورفعت الجريدة بيد وجلة خائفة .. وأخذت أرقب الصورة في صمت ووجوم

وكنت أعرف من حديث الاطباء مدى يأسهم من علاجه .. ولكني كنت آمل في رحمة الله . وكنت أرجو ان تمد قدرته عجز الطب

واحسست بغيام يخيم على عيني .. وأنا أكره البكاء .. وأعلم أن الموت هو الحق الوحيد في هذه الدنيا .. وحاولت أن أتجلد وأتماسك وأن أبدد سحب الدموع وأعيدها الى مآقيها .. ولكن طوفان الدمع كان أقوى من سد ارادتي

وبكيت صلاح .. وحيدا بين المقابر .. ثم واصلت السير حتى بلغت مكتبي وأخذت أتشاغل بفض الخطابات .. وكان أول ما وقع عليه بصري تذكرة بريد من لندن جاء فيها

«أبعث اليك من فراش المرض بالمستشفى بتحياتي لك ولكل أعضاء نادي القصة »

اخوك — صلاح ذهني

ومرة أخرى عاد الدمع يتساقط على الحروف المتراقصة أمام عيني

واني أحس بعجز عن رثاءه ... فقد غلب انهياري بفقده قدرتي على الكتابة عنه ولست أجد ما أقوله عنه الا ما سبق أن قلته في تقديم كتابه جاء الخريف : « ان صاحبي فنان أصيل . وان به من صفاء النفس والذهن والمشاعر ما يجبره على أن يكون كما كان وانه عاشق للادب والموسيقى وكل انواع الفنون وانه ان لم يكن كاتبا لاضحى موسيقيا أو رساما أو مثالا .. ناجحا » رحمه الله وأجزل ثوابه .

يوسف السباعي